عبد الرحمن منيف



مُدُن المِلح
المُنْبتّ

علي مولا

IV



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

- أرض السواد (3 اجزاء)
- الأشجار واغتيال مرزوق
- سباق المسافات الطويلة
- عالم بلا خرائط (بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)
- شرق المتوسط
- قصة حب مجوسية
- ام النذور
- سيرة مدينة (عمان في الأربعينات)
- النهايات
- لوعة الغياب
- الكاتب والمنفى
- العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة
- بين الثقافة والسياسة
- عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
أنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمروان قصاب باشي

جزء من الخسارة التي تلحق البلدان أنها تركن إلى الأوهام، وتعيش في الماضي، وتخطئ في قراءة الواقع واحتمالات المستقبل. وكما أن التاريخ ذاكرة، فإن إدراك الجديد ذاكرة أخرى، وقدرة أكبر على مواجهة المختلف والطامع والعدو. فإذا لم يُحسن استيعاب دروس التاريخ، ولم يجر معرفة الجديد، فإن كل شيء سوف يتحول إلى ذكريات وأغان حزينة.

«المنبتّ» قراءة للهزيمة، والعيش في ظلالها، مع الألم والحسرة وانتظار ما لا يتحقق ولا يأتي.

عبد الرّحمن منيف

مُدُن الملح

المُنْبَتّ

IV

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي

عبد الرحمن منيف

مدن الملح

المنبت

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص.ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«... فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»

حديث شريف



هبطت الطائرة في شتوتغارت بعد رحلة طويلة، أطول مما توقعها السلطان. ولقد تخللها الكثير من الأسئلة ومراقبة الأماكن ومحاولة النوم، وحين لم تكف هذه الأمور طلب جلالته أن يوافيه إلى مقصوراته شايع السحيمي لكي يحدثه ويؤنسه.

كان شايع يروي له قصة نبي الله يوسف، حين جاءه كبير المضيفين يبلغه أن الطائرة تقترب من شتوتغارت. تحرك شايع ليغادر المقصورة، قال له السلطان:

ـ قلت لي أربع لا يشبعن من أربعة... ما هو كذا؟

ـ أي نعم، يا طويل العمر. أربع لا يشبعن من أربعة: عين من نظر، وأذن من خبر، وأرض من مطر، وأنثى من ذكر.

مطَّ الكلمة الأخيرة وهو ينهض. ابتسم السلطان. مسّد لحيته عدة مرات، وبدأ وجهه يكتسب الحزم تدريجياً.

في شتوتغارت كان الاستقبال مليئاً بالحفاوة والمرح. بدا السفير متهيباً أقرب إلى الخوف أو الارتباك، لكن بمرور الوقت أصبح واثقاً ومتألقاً.

في السيارة التي أقلّت السلطان، ورافقه ممثل عن بلدية المدينة والسفير، جرت أحاديث سريعة عن الطقس والخضرة والمسافة إلى بادن بادن. أما عند القصر فقد كانت فرقة موسيقى بافارية تنتظر، وقد أدت لجلالته التحية، ثم عزفت ألحاناً مرحة، واستمرت حتى بعد أن تجاوز الجميع البوابة. أما في حديقة القصر فقد نصبت عدة طاولات، وضعت فوقها الأزهار والفواكه والحلويات.

بعد استراحة قصيرة غادر الضيوف والفرقة الموسيقية. وبطريقة لا تخلو من مكر، هيأ رجال السلطان احتفالاً على طريقتهم الخاصة، تعبيراً عن الفرح، ورداً على موسيقى الألمان! وقد شارك الجميع، وفي لحظة معينة كاد السلطان يشارك، لكنه تردد ثم صرف النظر، رغم أنه لم يتوقف عن هز رأسه دلالة الفرح. وبدرت من النسوة جرأة غير معتادة، إذ وقفن على أكثر من شرفة وتابعن الرقص.

كان السلطان مأخوذاً بالجمال الذي يطوقه من كل ناحية. ولفت نظره أن ضوء النهار باهر، والشمس لا تغيب. استغرب ذلك، نظر إلى ساعته أكثر من مرة. لاحظ ناصر السحيمان، السفير، استغراب السلطان، قال بمداعبة:

ـ هذي الديرة غير ديرتنا، يا طويل العمر. صيفهم غير صيفنا، وشتاهم غير شتانا...

التفت إلى أكثر من ناحية، ابتسم ابتسامة الواثق وأضاف:

ـ وبعض الأيام، يا طويل العمر، الشمس تغيب من الغرب، وبعد ساعتين أو ثلاث تناظرها من الشرق.

قال السلطان وهو يقهقه:

ـ هذي هي الجنة التي وعد الله بها المتقين.

قال زيد الهريدي بافتتان:

ـ لعن الله والدين الألمان، منين جابوا هذي الخضرة كلها؟

ولم يهدأ السفير، ولم يتعب، وهو يحدث السلطان عن الحقول والغابات والأنهار. وكيف أن الإنسان لا يستطيع اجتياز الغابة السوداء القريبة، وأن الحكومة تدفع للمزارعين مبالغ طائلة من أجل دفع الغابات قليلاً إلى الوراء! تظاهر السلطان بالاهتمام والمتابعة، لكنه بدا مشغولاً بأمر آخر. في إحدى اللحظات سأل بمرح:

ـ والناس، بهذي الديرة، ما ينامون؟

وحين نهض ليأوي إلى فراشه، خاطب الموجودين بمداعبة:

ـ هذي الديرة، يا جماعة الخير، ما لها رباط، ليلها مثل نهارها، ورجالها مثل نساها، والأَخْيَر أن البني آدم يتوقى!

حتى ظهر اليوم التالي، انشغل السفير ورجال السفارة بإعادة ترتيب إقامة الحاشية والمرافقين، إذ جرت مشاورات عديدة، تدخل فيها الكثيرون، من أجل توزيع الحرس، وتغيير الغرف، وتأمين المترجمين والسيارات. ورغم أن ترتيباً مبكراً قد أعد، وتم الاتفاق عليه مع إدارة الفندقين اللذين خصصا لنزول الحاشية، إلا أن المراجعات والصخب، إضافة إلى التغير المستمر، خلق ارباكات عديدة. أما موضوع الطعام فقد ظل مشكلة غير قابلة لأي نوع من الحل، لأن الأكل الذي أعده الفندقان لمائة وسبعين شخصاً، لم يتناول شيئاً منه سوى المرضى وعدد محدود من الذين بقوا في الفندقين.

ما كاد يعود السفير عند الظهر، ويعرض على جلالته رغبة وجهاء الجالية العربية بزيارته والسلام عليه، حتى رد السلطان بطريقة لا تخلو من ضيق:

ـ خلنا نشوف الدنيا يا ابن سحيمان، وجماعتنا نلحق عليهم.

والتفت وواصل الحديث، وكأنه يخاطب زيد وحده:

ـ وهذول، جماعتنا، ما عندهم إلا سوالف الحريمات: قلنا وقالوا، والأَخْير نخليهم للتالي!

في فترة بعد الظهر، أثناء قيلولة السلطان، وصل من بون السكرتير الأول للسفارة. اختلى بالسفير فترة، وما كاد يغادر، حتى اهتزت غرفة زيد الهريدي، إذ دخلها السفير مضطرباً اصفر الوجه، وقد تصبب منه العرق. ومن خلال الأصوات العمياء والاشارات نقل لزيد الخبر.

لفترة غير قصيرة ساد الذهول والصمت، وحين تمالك زيد نفسه سأل:

ـ وأنت متأكد يا ابن الحلال؟

يهز السفير رأسه مؤكداً، ولا يقوى على أن تلتقي عيناه بعيني زيد إلا للحظة خاطفة، لحظة مليئة بالخوف والتوسل. يتابع زيد:

ـ ما هو معقول، يا ابن الحلال!

ـ هذا ما حصل يا شيخ. يلهث ويضيف: والحكومة الألمانية بعثت تريد اقابلها اليوم بعد الظهر.

ـ وشنهو اللي نقوله لطويل العمر؟ ومن هو اللي يقوله؟

وحين يصمت السفير، لا يقوى على الرد أو النظر إلى عيني زيد، يتابع زيد محدثاً نفسه:

ـ أبد ما هو معقول، يا جماعة الخير. وفنر؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد فترة صمت يضرب زيد على ساقه، ويسأل من جديد بلهجة مختلفة:

ـ خاف تكون السالفة من أولها إلى تاليها: قيل عن قال؟

يرد السفير بيأس:

ـ خلنا نشوف الحكومة الألمانية، وبعدها الله كريم!

ـ والحكومة الألمانية ويش اللي درّاها؟ ومن عملها؟

ـ هذي حكومة يا ابن الحلال.

ـ وحنا شنهو حنا؟ زق؟ فزاعة زرع؟

ـ حاشاك يا شيخنا، بس هذي حكومة وعندها علوم كثيرة.

ـ وإذا رحت، متى ترد؟

ـ من ساعتي ماشي، يا مبارك، وباكر ارد.

ـ ولباكر تخلينا نضرب أخماس بأسداس؟

ـ بعد المقابلة اتصل بكم، وما أترك أحد إلا وأنشده، وباكر، إنشاء الله، اجيكم بالعلوم، وعسى تكون علوم زينة.

ـ وطويل العمر؟

ـ خل طويل العمر بعرسه، وباكر نشوف.

ـ وإذا سمع من غيرنا؟ إذا علّمه أحد؟
ـ أنت موجود، يا شيخنا، وما أظن يصله أحد.
ـ وأنت. . . أريدك تعلمني بكل شيء، بالتلفون، بطارش، شلون ما كان، وأريدك ما تبطي.
وبعد قليل:
ـ متى ترجع؟
ـ ما ابطي عليك يا شيخ زيد، وإذا قدرت ارجع اليوم.
ـ ترى إذا غيبتك طالت أمورنا حارت.
ـ وكِّل الله يا شيخنا.
ـ اعتمادنا على الله وعليك، وإنشاء الله بعودتك تجي البشاير ونخلص من هذي المصايب.
بعد العصر كان مزاج السلطان رائقاً وجليلاً:
ـ «. . . وأول رجعتنا، يا زيد، بالخير والسلامة، يلزم تذكرني: العجيزّة، الشيخة، لا بد ونزورها ونحب راسها. تعبت الحريمة، يلزم نطيّب خاطرها، وهي ما تريد أكثر.
«ويلزم، يا زيد، نروح لجماعتنا. نزورهم ببيوتهم. نشوفهم ونسألهم: شلونكم يا جماعة الخير؟ إنشاء الله مرتاحين وراضين علينا؟ وإذا نسيناكم، يا جماعة، فسبحان من لا ينسى. لكنها الدولة وهمومها، ويلزم تسامحونا، وعسى الأيام اللي تجي أحسن من الأيام اللي راحت. ويلزم نسمع منهم يا زيد. خلِ كل واحد يسولف. يقول اللي يريده. وحنا لازم نسمع. نقول لهم: الحق حق، وما ينزعل منه، واللي تقولونه صحيح، لكن البني آدم عقله ما هو دفتر، ينسى، تغره الحياة الدنيا أو تشغله، لكن بعد هذا اليوم أبد، ذاك يوم وهذا يوم. وإذا زعلنا يا زيد نكون مخطين.
«ويلزم نسأل عن كل واحد، يا زيد. لأن جماعتنا أرواحهم عزيزة، والواحد منهم يموت وما يقول آخ. وأنت تعرف: أولاد الحرام سدوا علينا كل باب. كل يوم بوجوهنا، وسوالف وأخبار. وقالوا وقلنا. وبعدها: الله

أكبر. وبعد الصلاة: تفضلوا يا جماعة الخير. وكّلهم لقّامة، وأبد ما يقولون لا. ياكلون ويتسوكون. وإذا قمنا قاموا. وثاني يوم سروة يجون. وإذا سألنا: وين فلان يا جماعة الخير؟ يسكتون، يناظرون بوجوه بعضهم ويسكتون. وإذا سألناهم نوبة ثانية يقولون: ما ندري.

«أمس يا زيد تذكرت شداد، وتذكرت شمران. صار سنين وأيام ما شفنا شمران. قال لي حماد: شمران ما عنده سالفة إلا سوق الحلال. قلت لحماد: اتركوا سوق الحلال بمكانه. قال لي: سوق الحلال صار أثر بعد عين، ومكانه ما هو مناسب. قلت له: اتركوا الناس يترزقون. قال لي: العوالي أخْيَر لهم وأوسع.

«يلزم تذكرني، يا زيد، إذا رجعنا بالخير والسلامة حتى نزور شمران، فإذا شفناه كلمة منا وكلمة منه وتصفى القلوب، لأن الناس إذا ناظروا وجوه بعضهم، إذا قالوا اللي بقلوبهم تصفى. أما إذا قيل عن قال خاست، وأولاد الحرام يحصدونها.

«ويلزم، يا زيد، أن الواحد يقول اللي له واللي عليه. وموران اليوم ما هي مثل أمس. أمس كنا ندوّر ونقول: عطونا يا جماعة الخير: دين، قرضة حسنة. اليوم، وبعد ما أفاض الله علينا يلزم نقول: خذوا. وما نترك أحد يجوع أو يحتاج. لأني بين يوم والثاني اسمع من الحريمات: فلان ذابحه الجوع. وفلان محتاج وما يلقى. وبمجالسنا، يا زيد، كلهم يحمدون ويشكرون. لكن الناس ما هم بس اللي يجونا.

«بعد اليوم، يا زيد لا تترك الشيبان، اللي ما عندهم إلا: قال الله وقال الرسول، يملون مجالسنا ويسدون بيبانا. خلنا نروح للناس، خلهم يجونا. وبعدها نسوي اللي الله يقدرنا عليه، لأنه بعد اليوم ما لنا عذر، وما لنا شفاعة عند أحد».

يستريح السلطان قليلاً، يتذكر وجوهاً وأموراً كثيرة، لأن الأطياف القديمة تعاوده من جديد، فتتغير لهجته:

«ـ وحماد، الله يصلحه، ما عنده إلا سالفة: احذر وتوّق يا طويل

العمر. أولاد الحرام كثر وقلوبهم ماليها الطمع. وأقول له: يا ابن الحلال، جماعتنا وحنا أدرى بهم. عطهم، خلهم يشبعون، لأنهم إذا شبعوا ارتخوا وفترت حركتهم، وما يهمهم فلاني وتركاني. ويقول: المؤامرة الفلانية: الجماعة الفلانية. الشخص الفلاني، كلهم طامعين ويتآمرون. وأقول له: سوالف يا حماد، وأخاف جماعتك هم اللي ينقشون ويكتبون، وتراهم واهمين. يقول: حنا متأكدين، يا طويل العمر، وعندنا الدليل.».

يهزّ السلطان رأسه. يحاول أن يضحك، فلا تخرج من فمه إلا همهمات ساخرة. يتابع:

«ـ ولو قدر حماد كان سد بيبابنا، وما خلى حتى الطير يمر فوقنا أو أحد يتقرب منا».

وتغيرت اللهجة، أصبحت آمرة وأقرب إلى الحدة:

«ـ لكن من رجعتنا، يا زيد، نقول لهم: اتركونا. افتحوا بيبانا وخلوا الناس يجونا، ومثل ما سوى المرحوم أبوي نسوي. لا نخاف ولا نجفل. وما تاخذنا كلمة وتردنا الثانية. ونقول لحماد: وأنت يا حماد إنسَ هذي السوالف ولا تخف، وأولها وتاليها: المقدر لازم يصير».

ويضيف مخاطباً نفسه:

«ـ أي نعم، أي نعم هذا اللازم، وهذا اللي يصير».

وبعد أن يخيم الصمت، وكل من الرجلين يفكر بأمور مختلفة تماماً عن الآخر، يقول السلطان وهو يتلفت حواليه:

«ـ وبعد ما أنعم الله علينا يلزم نسوي موارن جنة، يا زيد، البيوت، الشوارع، الحدايق، المدارس. ومثل ما قال لي الجماعة قبل شهر أو شهرين، قالوا: مشكلة موران: الماء. إذا توفر الماء كل شيء يتغير. وما دام الله أعطانا وتفضل، وما دامت الفلوس واجدة، نقدر نجر الماء من كل مكان، نحفر البيار، ونحفر القاع...».

وتتغير اللهجة مرة أخرى، تصبح تعليمية:

«ـ الماء يجر الماء، يا زيد، مثل الفلوس تجر الفلوس. فإذا ربّعت

قاعنا، وإذا زاد زرعنا، وصار الشجر والثمر، ترى ديرتنا تتغير. تصير موران مثل البستان».

وتصبح اللهجة آمرة من جديد:

«ـ برجعتنا، يا زيد، لا تنس تذكرني: كل من يحفر بير الحكومة تساعده. كل من يزرع شجرة الحكومة تساعده. وما يروح يوم ويجي الثاني إلا والسلطنة كلها، من حران إلى البقعة، من المطالع إلى عين موسى أرض خضرا مثل هذي الديرة وأحسن.

«وتذكرني، يا زيد: المدارس على حسابنا. الاجزخانات على حسابنا. وتعالوا يا ناس، تعالوا يا أولاد الحلال: كل من يريد يعلم أولاده: ولا قرش. كل من يطب الاجزخانه ما يدفع ولا قرش. وما هو بس كذا، كل واحد يخرج من الاجزخانة معافى إكرامية: دشداشة وعباية، وفي أمان الله. واللي يموت يدفن على حسابنا!

«الناس، من قبل، يا زيد، جواعا. الخبز ما يحصل. تذكر ذيك الأيام. هالحين لازم ياكلون ويشبعون. وكل واحد بموران عنده عيال، عنده أكثر من أربعة يلزم الحكومة تعاونه. الفلوس من فضل الله واجدة. وخذوا يا أولاد الحلال، أنتم النشامة وتستاهلون، وما ننسى أحد أبد.

«والمحابيس يا زيد. الله يرحمه خريبط، كان بكل عيد يطلق قسم منهم. كل واحد جرمه خفّيف، كل واحد بقى له مدة قصيّرة، تعال يا فلان، ترى هالمرة سامحناك، وأنت من اليوم طليق، لكن إذا جيتنا نوبة ثانية ترى ما تخلص منا. تسمع؟ وبعد ما يسمع ويطيع: اعطوه قرشين يا جماعة، وخله يدوّر أهله.

«حنا يا زيد نسينا هذي العادة، سويناها نوبة، وبعدها الشيطان، الله يخزيه، نسّانا. هالحين من رجعتنا. أول شيء تذكرني به هالمساكين. ذكرني ولا تمل، وما يهم عيد أو ما هو بعيد، يلزم هالمساكين يرجعون لأهلهم».

ويهز رأسه أسفاً لهذه الأخطاء التي وقعت دون أن يفطن لها، ودون أن يذكّره بها أحد. يضيف بحزن:

«ـ واللي ذبحوهم جماعتنا هنا وهنا، يا زيد، لا تتركوا أهلهم إلا وترضوهم. حطوا بجيب كل واحد منهم قرشين، وقولوا لهم: عفا الله عما مضى، وحنا أولاد اليوم».

وتتغير النبرة.

«ـ لأن هذول إذا ما كانوا راضين يسوون كل شيء. يلزم ترضوهم، يا زيد. وأريد منك أنت وحماد أن تحضروا لايحة بكل اللي ذبحهم الجماعة من يوم استلامي العرش. وتعالوا يا اخوانهم، يا أهلهم، وتبلغونهم: ترى يا جماعة الخير طويل العمر ما يدري. لا عرف ولا سمع. وتعرفون: براسه ألف شغلة وشغلة، لكن لما جا من قال له، رد وقال: أبد ما يصير. وهالحين هو اللي أمرنا. قال: شوفوهم، طيبوا خاطرهم، واللي يريدونه يصير. وحنا، يا جماعة الخير ما نقدر إلا ننفذ أوامر جلالة السلطان. تسمع يا زيد؟ لا تتركوا أحد أبد، لأن من هذا الباب تجي الريح، فإذا خلصنا منهم تخلص الطلايب، ونخلص من سوالف حماد.».

وبعد أن قدم الشاي والقهوة مرتين، طلب جلالته، خلافاً لليوم السابق، أن يعد له الطعام في جناحه الخاص. ولما خيم الصمت وطال، قال السلطان يواصل حديثه:

«ـ هذي الديرة تعجب، يا زيد. من ساعة ما حطينا رجلنا بالمطار، وإلى هنا، والخضرة ما فارقتنا. وبيوتهم زينة، والناس شبعانين، ويلزم موران، وعموم السلطنة، تصير مثل هذي الديرة. ويلزم الأمراء كلهم يجون ويناظرون. إذا شافوا الغيرة تاكل قلوبهم، وبعدها: يا الله يا جماعة. ازرعوا وعمّروا، وما تمركم سنة إلا وموران مثلا الجنة. ومثل ما قلت، يا زيد: الماء نلقاه. توصله المواسير، ينجرّ ما دامت الفلوس واجدة. المهم أن الواحد ينوي».

وربما خطر للسلطان خاطر وهو يتكلم، إذ فجأة سأل:

ـ وينه ناصر؟ ما شفناه المسويات؟

ارتبك زيد الهريدي الذي ظل صامتاً طوال الوقت. رد بصوت بدا حزيناً:

ـ نسيت اعلّمك، يا طويل العمر، الحكومة الألمانية طلبت مقابلته، فاستأذن وسافر.

ـ الحكومة الألمانية طلبت مقابلته؟

ـ وقال أنه ما يبطي.

قال السلطان بزهو:

ـ الله أعلم أنهم يريدون يشوفونا، وهذا اللي قاله صاحبهم بالمطار.

وبعد قليل:

ـ ومثل جماعتنا، بعد اليوم الثالث يسألون ويتقصّون.

مرت نسمة خفيفة فارتجف زيد. تراءت له موران بعيدة مستحيلة. سأله السلطان:

ـ ومتى يرجع؟

ـ ما أدري، يا طويل العمر، لكنه قال أنه ما يتأخر.

هزّ السلطان رأسه دلالة الفهم والموافقة، وأضاف:

ـ أريدك ما تنسى أبد اللي علمتك به يا زيد، وأريدك تذكرني بكل شيء...

وتغيرت لهجته، أصبحت حزينة:

ـ لأن الناس إذا تحملوا وسكتوا، تراهم ما يحتملون أكثر، وإذا ما قالوا بوجوهنا، يقولون إذا قفينا، إذا مشينا، وعندها الله يستر.

وظلت أنوار القصر تتلألأ، وأصوات الضحكات تسمع بعد مضي ساعات على مغادرة السلطان للحديقة. كما شوهد أكثر من مرة يخرج إلى الشرفة، وكانت عروسه، وكانت معهما أم العروس في إحدى المرات.

وزيد الذي دخل إلى البناء الجانبي، عند بوابة القصر، أبلغ آمر الحرس أن لا يسمح بدخول أحد، أياً كان، عدا السفير، حتى صباح اليوم التالي. وظل يتقلب في فراشه وينتظر، ولم يستطع أن يغفو لحظة واحدة.

. . . ـ **والله**، والله لو ظل بعمري ساعة واحدة ما اتركهم ولا اخليهم يفرحون.

ويهز السلطان رأسه بسرعة وبطريقة آلية تشبه اهتزاز رأس الحرذون. يغيب. يحاول أن يتخيل ما حصل، ثم فجأة يصرخ بحقد:

ـ قالوا لأرواحهم: أبو مشعل طيب. طيب ويده مبسوطة وصدره واسع، ويحمل مثل بعير؟ وقالوا: كم يوم ينسى؟ لا مخطين. هالحين يلزمهم يعرفون من هو أبو مشعل. لأن أبو مشعل مع الكريم أكرم، ومع اللئيم العصا، وماله بقلبي رحمة، ويلزمهم يعرفون: ما هو كل من ركب الفرس فارس، ولا كل من حمل السيف صار عنتر ابن شداد.

يتنفس بعمق وحسرة، وكأنه يريد أن يمتص الهواء كله، ويتابع بلهجة مختلفة:

ـ قالوا لأرواحهم: غاب ألبس ألعب يا فار؟ قالوا: بعيد ونقدر نسوي كل شيء؟ تراهم مخطين وواهمين، وراح ياكلون أصابعهم ندامة، لأن بعد كل ليل صباح، وبعد كل نشوة صحوة... ونشوف.

ويضرب على الطاولة، التي جلس وحده في جانب، وجلس السفير وزيد الهريدي في الجانب الآخر، ويهدر صوته:

ـ من هذا اليوم، من هذي الساعة، أنا كوم وهم كوم، وما عاد بقلبي رحمة، ولا لاحد منهم شفاعة...

ويضرب الطاولة مرة أخرى:

ـ والله.. والله لاخلّي الدم يصل للركب، وبيدي هذي لاقص رأس

كل من خان، وكل واحد اشترك، وتشوفون.

ويخيم الصمت، صمت ثقيل مدوٍّ، فتبدو الأنفاس ثقيلة، وكأنها خارجة من أعماق بعيدة. لا يقوى أحد أن ينظر إلى وجه الآخر، إلى عينيه، لأن في تلك النظرة النهاية.

تحرك السلطان قليلاً، وقال بلهجة آمرة قاسية:

ـ إذا قالوا لك يا ناصر أنهم ما يريدوني، وإذا قالوا أنهم يرمون طيارتي إذا وصلت موران، فقل لهم: تعالوا لهنا. قل لفنر: أبو مشعل يريدك، يلزمك تجي فوراً، ومن رأسك لرأسه تتفاهمون. يا الله، قم وقل هذا الشيء.

ويحاول ناصر السحيمان أن يشرح من جديد أنه حاول مرات كثيرة الاتصال مع موران، لكن موران لا تجيب. لا تستقبل أية نداءات تلفونية. وكل ما وصله عن طريق البرقيات، والبرقيات واضحة لا تحتمل التأويل، ويختم كلامه برجاء:

ـ وأنت، يا طويل العمر، أب للجميع. ورأيي أن نصبر يوم أو اثنين، ولا بد أن يندموا ويتراجعوا.

وحين يحاول أن يضيف كلمات أخرى تفزعه صرخة السلطان:

ـ قم واتصل بهم قبل كل شيء.

ويتصل ناصر السحيمان بالسفارة ببون، ويسأل بصوت عالٍ ما إذا عادت الاتصالات مع موران، وحيت يتلقى جواباً بالنفي، يحاول أن يشرك زيداً في سماع الجواب، فيصرخ السلطان:

ـ لكن وين يروحون مني هالكلاب؟

ويزفر وتتغير اللهجة:

ـ يا عباد الله أنا اللي سويتهم. أنا اللي عطيتهم. قلت لهم: خذوا. قلت لهم: صيروا مثل الناس والعالم. وسكت على فضايحهم وسرقاتهم، سويت روحي لا شفت ولا سمعت، وبعدها اليد اللي ربتهم وعطتهم

يعضونها؟ الصدر اللي حماهم يسوون به كذا؟ هذا وين صار، ومتى صار يا عباد الله؟

يزفر بحرقة ثم يتابع:

ـ اسمع يا ابن سحيمان: تبرق لهم هالحين، نعم هالحين: إما يجوني، وخاصة فنر، يجي ويحب يدي ويقول أخطيت واطلب السماح، أو اركب طيارتي وامشي، وهناك إذا تواجهنا نتحاسب، ولكل حادث حديث.

وحين يهز ناصر السحيمان رأسه دلالة الموافقة، ويحاول أن يجمع نفسه لكي ينهض وينفذ الأمر، يسأله السلطان:

ـ والالمان، الخنازير، قالوا لك: نقبله، ونوافق على إقامته، لكن بشرط: ما يشتغل بالسياسة؟

ويهز ناصر رأسه للتأكيد، فيهدر صوت السلطان:

ـ يخسون، ما نريدهم ولا نريد ديرتهم.

وبعد قليل:

ـ لا هم ولا غيرهم يقولون لنا شنهو اللي يلزم نسويه. حنا شورنا من راسنا، ما هو مثل غيرنا. ونسوي اللي نريده.

ويخيم الصمت من جديد، يصبح ثقيلاً مرهقاً، فيحاول زيد أن يجد مخرجاً:

ـ نزوة شباب، يا طويل العمر، وتنقضي.

ـ فنر ما هو صغيّر يا زيد. فنر بعمري. وهذا اللي سواه ما هو بنزوة. جا من شار عليه، وقال له تسوي كذا وكذا، ولا بد يكون مستشاره أبو العيون الزرق والسنون الفرق، ذاك الابليس الانكريزي. لكن ما يخالف، إذا تواجهنا، إذا بحّرت به لا بد واعرف كل شي. شنهو اللي قاله الأميركان والانكريز، وشنهو اللي قالته الحريمات، ومن وزّه، ومن معه. بسيطة، نتواجه ونشوف.

ـ ظني يا طويل العمر أن الندامة راح تاكل قلوبهم، وباكر يزحفون طالبين التوبة والعفو.

ـ ما اريدهم ولا اريد توبتهم، لأنّا من هذه الساعة قوم، وغلطة مثل هذي ما تنصلح يا زيد، يلزم يندفع عليها مخاضة دم وتتعلق روس، حتى ما يعاودوها نوبة ثانية.

ويهز السلطان رأسه هزات طويلة متصلة، وهو يستعرض كل شيء، وحين يصل إلى نقطة يعتبرها حاسمة يصرخ:

ـ اتصل بالحكومة الألمانية يا ابن سحيمان، وقل لها السلطان يريد يكلّم موران، ولا بد أن يوصولنا بموران.

ـ حاولت، يا طويل العمر، حاولت بكل الوسائل. والغريب أن الحكومة الألمانية نفسها حاولت الاتصال بسفيرها بموران، لكن ما حصّلوا جواب. الخطوط كلها مقطوعة، وموران معزولة عن العالم الخارجي.

قال زيد، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ الله العليم أن الجماعة أبد ما سيطروا، ولا بد تكون المقاومة مستمرة، والناس حملوا سلاحهم ضد الفئة الباغية ودفاعاً عن العرش.

ـ الحق اللي تقوله يا زيد، لأن القوي ما يخاف، ولا يقطع التلفونات...

هكذا قال السلطان، وأضاف بعد قليل بنزق:

ـ وهذا الزق راديو أو تابوت؟ ما به إلا يفحّ ويشخر، وما ينفهم منه شي! والتفت إلى ناصر السحيمان:

ـ ومتى اتصلت بموران آخر مرة؟

ـ يوم وصولكم، يا طويل العمر. بعد إقلاع الطائرة اتصلوا وأبلغوني أن طويل العمر غادر موران، متوجهاً إلى هنا.

ـ وكانوا يريدون امشي؟

ـ ما أدري، يا طويل العمر، بس هم اتصلوا وقالوا: غادرت الطائرة.

ـ كانوا يريدون امشي، أن أغيب عن وجوههم، لأنهم جبناء ورعاديد ما يقدرون على شي وأنا موجود.

وساد الصمت من جديد.

سُمعت حركة خارج الغرفة. تنبهت الحواس. بدت عينا السلطان حمراوين وكبيرتين، وكانت شفته العليا ترتجف. حين رأى أن العيون تعلقت به، صرخ بوجه زيد:

ـ قم، شف من.

قام زيد متعثراً. فتح الباب. وجد كبير الخدم، الألماني، ومعه اثنتان من الخادمات، وبدا من الإشارات والحركات أن وقت تنظيف هذه الغرفة قد حان. عاد زيد. قال كلمات متعثرة، فهمت أن لا شيء.

قال السلطان ليعيد الجو إلى ما كان عليه:

ـ دز برقية هالحين يا ابن سحيمان، تقول: السلطان يطلب مجيء فنر فوراً، وعليه التنفيذ.

وبعد قليل:

ـ وإذا تأخر ردهم، تدز برقية ثانية، تقول: السلطان راكب وماشي، وهو واصلكم بين ساعة والثانية. وما يشوفوني إلا فوق روسهم، وإذا كان بهم خير أو بهم مرجلة، خلهم يرمون الطيارة.

قال زيد في محاولة لأن يخفف من الهياج:

ـ الصباح رباح يا طويل العمر، وظني أنهم راح يندمون ويتوبون.

رد السلطان بحدة:

ـ اسمع يا زيد، الجماعة ركبهم إبليس. قالوا لأرواحهم: راح وما يقدر يسوي شي. وحنا نقدر نسوي اللي نريده ما دام بعيد وغير موجود، لكن إذا شافوني فوق روسهم، إذا عرفوا أن السلطان طبّ ووصل، يصيرون مثل الأرانب، يسلحون على هدومهم، وكل واحد منهم يدوّر السلامة ويختبي بحجره.

والتفت إلى ناصر السحيمان، وبلهجة آمرة:

ـ حضروا الطيارة من الفجر، نعم، حضروا الطيارة، لأن البني آدم يعيش بالدنيا نوبة واحدة، وأريد أشوفهم إذا وصلت الطيارة، وإذا رموها بينّا حساب بالدنيا وبالآخرة.

بعد الكثير من الجهد والمشقة أمكن إقناع السلطان أن الأفضل والأقرب إلى الحكمة تأجيل الرحلة يوماً أو اثنين. وقد تعهد السفير أن يبرق إلى موران بالسرعة الكلية ليخبرها بكامل الأوامر، ويطلب مجيء فنر فوراً. وعلى ضوء الجواب يمكن أن يتصرف السلطان. أن يبقى هنا أو أن يعود إلى موران مباشرة.

لقد حصل الاتفاق على هذا الحل بعد الكثير من الجهد وفترات التفكير والصمت، إضافة إلى محاولات اتصال مجددة مع موران. ثم مع السفارة. وقد طلب السفير من عنصر المناوبة في السفارة أن يبلغه بأي اتصال، وفوراً، خاصة إذا كان من موران، وإلى قصر صاحب الجلالة في بادن بادن، وفي أية ساعة من ساعات الليل والنهار، وأن يطلب التحدث مباشرة مع السفير أو مع الشيخ زيد الهريدي.

في اليوم السابع وصل الدكتور صبحي المحملجي إلى بادن بادن.

وصل قبل الظهر بقليل. بدا متعباً مريضاً، حتى أن الذين فتحوا له بوابة القصر لم يعرفوه لأول وهلة. أما بعد ذلك، وخلال فترة قصيرة، فقد انتشر خبر وصوله بسرعة، وترافق ذلك مع الكثير من الأخبار والتوقعات، الأمر الذي حمل أغلب الذين رافقوا السلطان، وكانوا ينزلون في فندقين وسط المدينة، على أن يتوجهوا إلى القصر، انتظاراً لسماع الأخبار الجديدة، بعد أن امتلأوا خوفاً وحيرة خلال الأيام السابقة، لكن زيد الهريدي لم يسمح إلا لعدد محدود بالبقاء، وطلب من الآخرين العودة.

وللمرة الثانية يأمر السلطان بتأجيل الزيارة التي كان يفترض أن يقوم بها أحد موظفي الخارجية الألمانية «لأن السلطان لن يكون قادراً على استقبال أحد، نظراً لانحراف صحته». أما موظفو السفارة الثلاثة الذين بقوا في بادن بادن، وتحت تصرف صاحب الجلالة، بعد أن اضطر السفير لمغادرة المدينة عائداً إلى بون «لأعمال طارئة، ومن أجل إجراء مزيد من الاتصالات لاستجلاء الموقف»، فقد طلب منهم، بعد وصول الحكيم، «أن يكونوا في حالة الجاهزية الكاملة، لأن أوامر هامة سيصدرها السلطان، وعليهم أن يقوموا بنقلها فوراً». لكن ذلك اليوم انقضى، وجاء بعده الليل، وظلت أنوار القصر مشعة حتى ساعة متأخرة، دون أن يتغير شيء، أو يظهر أحد، ولم تصدر الأوامر التي ظلت متوقعة في كل لحظة.

ضحى اليوم التالي، شوهد السلطان والحكيم يتمشيان في الحديقة الخلفية للقصر. لأول مرة يشاهد السلطان بعد تلك الليلة. بدا هرماً متعباً، وكأنه خارج لتوه من المرض. كان لا يتوقف عن هز رأسه، دلالة أنه

يسمع ويتابع. وبدا الحكيم منفعلاً حاداً وهو يتحدث. ظلا كذلك ساعة من الزمن، ثم دخلا القصر. ولم تمض دقائق حتى استدعي زيد، وطلب منه الاتصال بالسفير واستدعاؤه فوراً. وبعد اتصالات عديدة، تخللها الانتظار والتشاور، أوضح السفير أنه «لن يستطيع مغادرة بون بناء لتعليمات من موران، وأنه سيوفد نيابة عنه السكرتير الأول للسفارة. وسوف يحمله رسالة هامة» ورغم الاتصالات العديدة التي جرت لاحقاً، اشترك في أحدها الحكيم، فقد ظل جواب السفير واضحاً وقاطعاً:

ـ تعليمات موران، يا جماعة الخير، واضحة جداً. تقول التعليمات: لا تغادر بون إلى أي مكان، حتى تصلك تعليمات جديدة.

وأشار السفير، بشكل غامض، إلى أن من الأفضل للجميع، وأكد على الكلمة الأخيرة بالذات، بقاءه في بون. وقد فهمت هذه الكلمة، وفسرت، بشكل متفائل، الأمر الذي جعل الحكيم يفكر ثم يقترح أن يسافر بنفسه إلى بون لاستقصاء المعلومات، وليحمل بنفسه الأخبار الطيبة الهامة التي أشار إليها السفير بغموض.

بعد امعان تفكير وتردد، قال السلطان بأسى وحدة:

ـ توكل على الله يا أبو غزوان، بس لا تبطي.

استغرقت الرحلة يوماً وليلة. وحين عاد الحكيم قبل عصر اليوم التالي، وقد رفض السلطان تناول الغداء مبكراً، خلافاً لعادته، «لأن الحكيم بين لحظة والثانية يصل ونتغدى جميع» فلم يفكر السلطان، بعد عودة الحكيم بالغداء، ولم يقترح عليه ذلك سوى مرة واحدة، لكن بدا للجميع أن الأمور تسير عكس التوقعات، وإن كل شيء منتهٍ.

فالحكيم الذي قرر، بينه وبين نفسه، أن يطلب من السفير تقديم احتجاج، والطلب من الحكومة الألمانية الاعتذار رسمياً، لأنها تأخرت في منحه تأشيرة الدخول، رغم أن أوضح للسفارة الالمانية في بيروت صفته، والسبب الذي يسافر من أجله، فقد أصرت السفارة أنها لا تستطع منحه التأشيرة قبل أن تحصل على موافقة بون، مما اضطره للبقاء أسبوعاً كاملاً

ينتظر. هكذا فكر الحكيم أن يبدأ. وقرر أيضاً أن يتصل بموران من السفارة مباشرة والتحدث إلى الأمير فنز شخصياً. وقرر أن يكون واضحاً وحازماً معاً، وأن يبلغ السلطان بالأخبار والنتائج دون تأخير.

الآن، وهو يعود، دون أن يفعل أياً من هذه الأمور، كما لم يستطع أن يرد على استفسارات زيد الذي كان ينتظره عند البوابة الخارجية للقصر، ولم يرفع عينيه إلى الحرس، أو إلى الذين كانوا عند المحرس الداخلي يدخنون ويثرثرون، وقد نهضوا بسرعة وارتباك حين رأوه، وهم يرفعون أيديهم بحيوية ومعها أصواتهم: «الله يقويك، يا أبو غزوان. القوة يا أبو غزوان»، وكانوا يتطلعون إليه بإمعان في محاولة لاكتشاف النتائج حتى دون كلمات.

رد الحكيم على تحياتهم بسرعة، بأن هز يده، دون أن ترتفع إليهم نظراته. كان متأكداً، تلك اللحظات، أن قواه تخونه، وأن وجهه يفضحه. أكثر من ذلك، ظن أن الدموع لا بد أن تنفر من عينيه. آثر أن يردّ هكذا، وأن يهرول.

السلطان، وهو يرى الحكيم داخلاً بذلك الشكل وبتلك الملامح، ولأنه لم يتصل من بون، أدرك كل شيء. قال له بصوت تخنقه العبرة:

ـ تعال.. تعال استرح هنا، يا أبو غزوان.

لم يكن يريده أن يتكلم، أن يتحدث أمام سلمى وأمها. كان يشعر بالحزن والضعف في آن واحد. وكان يحاول تغليف حزنه وضعفه بالصمت، أو بتلك الثورات المفاجئة، وهو يأمر بالقهوة، بالماء، أو بمجيء أحد من رجاله.

كانت الأيام الأولى قاسية إلى درجة الألم، وكانت حزينة وطويلة، وان ظل يشوبها التوقع والأمل. أما بعد أن جاء الحكيم، وبعد أن سافر إلى بون وعاد، فقد أصبح الألم قهراً والحزن يأساً. ومما زاد الخوف والتشاؤم أن سرى الهمس، ولا يعرف كيف تسرب، إن كل من هو مع

السلطان سينال من العقاب أقله السجن مدى الحياة، وإلى أن يعود سيكون أهله وأقاربه رهائن في موران.

ورغم أن مراهنات كثيرة، وبأموال طائلة، جرت بين نزلاء الفندقين، حول احتمالات أو أخرى، واضطر عدد من هؤلاء إلى «استئجار» مترجمين، غير الذين خصصوا من السفارة، لمعرفة آخر الأخبار، سواء بترجمة أخبار الصحف والاذاعات، أو بإعطائهم أرقام الهواتف في موران لكي يتصلوا ويعرفوا من الأهل والأقارب، وليتأكدوا فقط أنهم لا يزالون أحياء وفي بيوتهم، فإن الاشاعات والدسائس والأخبار التي انتشرت بين نزلاء الفندقين، ما لبثت أن انتقلت إلى القصر، فخلقت تشويشاً إضافياً، وزادت الحيرة والترقب والخوف.

حاولت أم غزوان، بمكر واضح، أن تحمل الحكيم على الكلام، لكن محاولاتها انتهت إلى الفشل، لأن السلطان كان يقرأ في الصمت، وفي الملامح، ما لا يمكن أن تقوله الكلمات، ولذلك كان فظّاً قاسياً حين طلب مغادرة النساء. قال بحزم:

ـ اتركوه يا جماعة الخير. خلوا عرقه ينشف.

وبعد قليل:

ـ ضاقت أرواحنا من السوالف، ومن القيل والقال، فاتركونا يرحم والديكم.

حين خرجت أم غزوان، وكانت الأخيرة التي تخرج، قال الحكيم:

ـ . . . ومثل ما قلت لك، يا طويل العمر: الجماعة راكبين روسهم وما هم مصلين على النبي، حاولت معهم، لكن لا حياة لمن تنادي. فنر رفض الكلام. حماد لما عرف صوتي ارتبك. أما مطيع فقال: بعدين بعدين يا خالي.

وبعد قليل:

ـ هذي الشغلة ما هي شغلتهم، لا بد من قال لهم.

ـ هذا اللي قلته من أول ساعة، يا أبو غزوان. لا بد أحد وزهم. وهذا الانكريزي اللي حميناه وعطيناه، مثل ذنب الكلب، نجس واعوج، والحق عليّ، بدل ما اقصّبه واخليه عبرة، قلت له: انطح فالك يا ولد، دور لك ديرة غير هذي الديرة، وما نسيها، ظل يداور ويحاول، حتى اقنعهم، وسووا اللي صار.

ـ يا أبو مشعل، يا طويل العمر، المسألة ما عادت تحتمل، ولا يمكن السكوت...

ـ بس علمنا باللي صار واللي جرى، يا أبو غزوان.

ـ العلوم كلها ما عاد منها فايدة يا صاحب الجلالة. الآن، المطلوب الموقف، الحزم. وإذا بدأنا نحلل ونتفلسف تراها راحت علينا.

ـ يا أبو غزوان، يا ابن الحلال، علمنا شنهو اللي صار معك. وبعدما نسمع نتدانش شنهو اللي يلزم نسويه.

ـ يا صاحب الجلالة: حنا بواد والدنيا بواد ثاني...

وبعد قليل:

ـ السفير محرِج وخائف، صحيح أن عواطفه معنا، ويريد أن يساعد، لكن الجماعة هناك ما هي فارقة معهم، وقد حرقوا كل الجسور، ولذلك يجب أن لا نتوقع نتائج من أي نوع عن طريقهم. لن يسمعوا ولن يفهموا، وليس بيننا وبينهم سوى السيف!

قال السلطان بعصبية:

ـ ما يخالف، اللي تقوله صحيح، يا أبو غزوان، بس يلزمنا نعرف شنهو اللي جرى بينك وبين ابن سحيمان.

ـ أطلعني السفير، يا صاحب الجلالة، على برقية. البرقية تقول: بلغ السلطان السابق أنه إذا أراد أن يبقى أخاً وموضع تقدير، وأن يعيش، فيجب أن ينسى الماضي، وأن الاجراءات التي اتخذت كانت ضرورية للحفاظ على السلطنة وعلينا جميعاً. يجب عليه أن يفهم هذا الشيء، وإذا أخطأ أو

اغتر فلا بد أن تنعكس النتائج على الجميع، وإلى أضرار لا تترك شيئاً ولا ترحم أحداً.

تنفس الحكيم ملء رئتيه وتابع:

ـ وتقول البرقية: أبلغوا السلطان السابق أن مصاريف أقامته، وأية مبالغ يحتاجها، يمكن تأمينها بشرط: أن يصمت، وينسى أنه كان السلطان...

وزفر وهو يهز رأسه بلوعة ثم أضاف:

ـ وقالت البرقية، وقد خبأ السفير بعض الفقرات: إذا كان له رأي آخر فلنا رأي آخر، ولا بد أن يعرف.

مع الكلمات الأخيرة أخذت دموع السلطان تنحدر على خديه ولحيته. كان يبكي بصمت. لم يحاول أن يخفي دموعه. والحكيم الذي فوجىء، للحظة، وجد نفسه، دون إرادة، يجهش بالبكاء أيضاً. بدأ صوته أقرب إلى المواء، ثم تحول إلى نحيب، وكأنه يختزن، منذ وقت طويل، دموعاً تفوق طاقته على الاحتمال.

لم تصدق وداد أذنيها، دهمتها المفاجأة فارتبكت. أما حين شقت الباب قليلاً، ورأت الحكيم يضرب رأسه ويبكي، وكان يجلس قبالة السلطان، فقد خافت. أغلقت الباب بسرعة، وهربت.

وأخذ القصر يغرق في الصمت والعزلة، وكثيراً ما غرق في الظلام أيضاً. فالأنوار لا توقد إلا في وقت متأخر، ولا تطفأ حتى بعد أن تملأ أضواء الشمس الكون كله، لأن لا أحد يفطن إلى ذلك، أو لديه الرغبة في أن يفعل.

وأكثر الناس حيرة وعذاباً، فلا يعرف كيف يتصرف أو كيف يرد على الأسئلة والنظرات، هو زيد الهريدي. فالمرافقون والأقرباء والحرس يتدفقون على القصر، وبدل أن يستفسروا يحملون الأخبار والتعليقات والخوف، حتى أصبح من الصعب التحكم بهم أو ضبطهم. أكثر من ذلك بدأت تعليقاتهم تتجاوز التساؤل إلى السخرية والتعريض.

زيد الذي كان قوياً مرهوباً، وتكفي نظرة منه، أو إشارة، لأن تحمل أي إنسان على السكوت، لم يعد قادراً على وضع حد للهرج والفوضى اللذين يزيدان كل يوم.

مقابل الصمت الذي خيم على القصر، بلغ الاضطراب في الفندقين حداً زاد على كل تصور. فالنزاعات بين النزلاء أنفسهم لا تتوقف ولا تهدأ. والنزاعات بين هؤلاء والادارتين تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر. والمترجمون الذين كانوا يسهلون الحركة والتفاهم بين الطرفين تواروا، أو لم يعودوا قادرين على القيام بمهمتهم، لأنهم أصبحوا عاجزين عن التفاهم مع أي من الطرفين. أما موظفو السفارة الثلاثة، فقد جاءوا إلى القصر وأبلغوا زيداً الهريدي أن اثنين منهم سوف يغادران إلى بون، تلبيةً لتعليمات من السفارة، وأن الثالث سيبقى.

وإذا كان السفير، ثم الثلاثة، قد عجزوا عن تقديم المساعدة المطلوبة خلال الأيام الماضية، فقد رد زيد على الطلب الجديد بكثير من السخرية:

ـ بعون الله وبعونكم شفنا كل خير، وتأمن لنا كل شي. وهالحين يلزم أن الواحد منكم يستريح مثل ما استراح السفير!

وضحك وهو يهز رأسه، ثم أضاف:

ـ أنتم ناس شوركم ما هو ما روسكم، أنتم عبيد مأمورين، ومثل ما قالوا: اللي ياكل من تمرهم يقوم بأمرهم، فيلزم، هالحين تدّورون أهلكم!

موظف الخارجية الذي أجّلت زيارته إلى القصر للمرة الثالثة، بحجة انحراف صحة السلطان، وصل فجأة في اليوم الرابع لعودة الحكيم من بون. استمرت زيارته عشرين دقيقة، ولم يعرف ما إذا قابل السلطان أم لا، كما لم يتسرب أي خبر عما دار أثناء هذه الزيارة. ومع ذلك لم يبق أحد إلا ورأى الحكيم يودعه عند بوابة القصر الخارجية، كان يهز رأسه دلالة الفهم ومتابعة ما يقوله. وحين غادر قفل الحكيم عائداً إلى القصر دون أن يكلم أحداً، حتى زيد الذي وقف عند بوابة الحرس وحياه أثناء عودته، فقد رد عليه الحكيم باختصار وسرعة. قال زيد لنفسه: «إذا كان الغراب دليل قوم...» ومرت في مخيلته صور الحكيم منذ لحظة التعارف الأولى في حران وحتى هذه اللحظة، قال بهمس، وهو يبتسم: «إذا ظل ورانا ما راح تطول خطانا، لأن من ورا شوره ما جاتنا إلا المصايب».

دبت الحركة مبكراً، وبشكل مفاجئ، في القصر، صباح ليوم التالي. تمشى الحكيم في الحديقة الأمامية. توقف عند بعض الشجيرات، تمعن بها، ثم فجأة، وكأن الفكرة وأتته في اللحظة، توجه إلى المبنى الجانبي الذي يقيم فيه زيد الهريدي، ولم يمكث أكثر من دقائق، خرج الاثنان بعدها وتجولا في الحديقة. كان الحكيم يتحدث ويستعين بيديه، وزيد يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة. ولم تمض نصف ساعة حتى افترقا. توجه الحكيم إلى داخل القصر، وزيد إلى المبنى الجانبي، وبعد دقائق انطلقت إحدى السيارات لإحضار بدري المدلل من الفندق.

من يعرف بدري المدلل، ويمعن إليه النظر الآن، لا يتصور أن عشرة أيام يمكن أن تغير إنساناً بهذا القدر. فالبدلة الطحينية التي يرتديها تبدو واسعة جداً، وكأنها لشخص آخر، أكبر وأضخم، والحقيبة اليدوية التي يحملها تجعل كتفه الأيسر يميل تحت ثقلها، أما تعابير وجهه ولون بشرته فإنهما يدلان على التعب والهم، أو مثل إنسان خرج لتوه من مرض.

هذا التغير حلّ ببدري منذ لحظة وصوله إلى ألمانيا. فالثقة التي ملأته أن يكون أقرب الناس إلى السلطان، وأن ينزل معه في نفس القصر، ما لبث أن تبددت، إذ طلب منه أن يصعد إلى الباص مع آخرين لكي يتوجه إلى الفندق. وعندما تردد وأبدى ممانعة، أُبلغ أن كل شيء معدّ سلفاً، حسب القوائم، ولا مجال لأي تغيير. ترافق هذا مع غمزات وتعليقات من بعض المرافقين الذين سمعوه في الطائرة يؤكد بصوت عالٍ أن غرفته ستكون إلى جانب غرفة السلطان مباشرة!

وزاد في هذا التغير العارض الصحي الذي أتعبه وأقعده، وعندما أبلّ قليلاً جاءت الأخبار الغامضة والمشوشة لتجعله أقرب إلى الانهيار. فقد أصبح على يقين أنه لن تتاح له فرصة العودة إلى موران، وأن زوجته وابنه مصباح لن يستطيعا شيئاً أثناء غيابه أو بدونه. أما الأموال التي جمعها، فقد أصبحت في الأرض والحجارة، إذ اشترى أكثر من أرض، وأقام أكثر من بناء، وتراكمت عليه الديون، فلا يعرف كيف يعالج الموضوع بعد أن أصبح بعيداً، وبعد أن كان مقدراً الحصول على عطايا كثيرة في هذه الرحلة. الآن، وهو يصل القصر، يبدو مرتبكاً، أقرب إلى الخوف. تطلع بإمعان إلى كل شيء لعله يفهم ما لم يستطيع فهمه من ثرثرة الذين حوله في الفندق، وسخريتهم ومخاوفهم. تخيل السلطان حزيناً مهموماً، كما كان في فترات سابقة. انقبض صدره وامتلأ بالحزن فقرأ آية الكرسي.

انفتح الباب فجأة ودخل الحكيم. تطلع إليها للحظة خاطفة، ثم هجم عليه. عانقه بكثير من المودة. دفن رأسه في صدره، عند الكتف وأطال، وكأنه لا يريد أن تلتقي نظراته بنظرات بدري. ارتجف قلب بدري وأحس

بمودة حقيقية تجاه الحكيم. لام نفسه أنه أساء الظن به إلى هذه الدرجة. قال في نفسه: «لا تعرف حقيقة الناس إلا في الغربة، أو عند المصائب».

قال له الحكيم، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ ما غبت عن بالي لحظة واحدة، يا أبو مصباح.

تمتم بدري بكلمات مرتبكة ليعبر عن شكره. لم يمهله الحكيم:

ـ وفي الأول والأخير الناس لبعضها، يا أبو مصباح، والبني آدم ما ينعرف إلا بالتجربة.

وليداري أبو مصباح خجله، ويخلص من هذا المديح الفضفاض، سأل بهمس:

ـ شو آخر الأخبار يا أبو غزوان؟

عدل الحكيم جلسته، تلفت، ثم قال بصوت أراده صلباً:

ـ غيمة صيف، يا أبو مصباح، لا تطول ولا تمطر.

وضحك بمرح، وهز رأسه أكثر من مرة، ثم تابع:

ـ طيش شباب، ولازم حدا لعب بعقولهم وقال لهم: استغلوا غيبة السلطان، لكنها كم يوم وتنتهي على خير.

ـ الله يبشرك بالخير يا أبو غزوان.

ـ لا... اطمئن من هذي الناحية، يا أبو مصباح.

ـ وإنشاء الله ما راح تطول إقامتنا هون، يا أبو غزوان؟

ـ بس يأمر صاحب الجلالة نركب ونمشي، لأننا دائماً جاهزين وحسب أوامره.

ابتسم الحكيم وهز رأسه عدة مرات، تطلع إلى بدري المدلل ليقرأ على وجهه مدى الاقتناع، فلما رآه اقرب إلى الاطمئنان، قال بلهجة متآمرة:

ـ تتذكر أول وصولك لموران يا أبو مصباح...

وبعد قليل:

ـ أنت اللي أعطيت للسلطان الشخصية والوجه، وأنت اللي غيّرت منظره من خلال لمساتك الفنية وعِنايتك، لأنه قبل وصولك تعرف كيف كانت الأمور. . .

هز بدري المدلل رأسه بكبرياء وقد تذكر. تابع الحكيم:

ـ المطلوب منك، يا أبو مصباح، اليوم، أكثر مما كان مطلوب من قبل!

وتغيرت اللهجة، أصبحت أكثر تآمراً:

ـ لزم نخلق منه صورة لا تغيب عن البال أبداً: القوة، الشباب، الحيوية. ولازم، بمجرد النظر إلى صورته، يولد في القلب الخوف والاحترام والهيبة.

بعد هذا التوضيح، والذي تخلله أيضاً بعض الذكريات، وأهمية أن تظهر هذه الصورة بسرعة وقوة، أدخل بدري المدلل إلى غرفة السلطان.

لم يتخيل بدري الاختلاف إلى حدّ الانكار إلا وهو يرى السلطان: بدا مسناً متعباً، بل أقرب إلى المرض. ولما حاول الابتسام ظهر وجهه قبيحاً إلى درجة لا يمكن معها إجراء أي إصلاح. وحين هجم ليقبل يده سحبها السلطان بجفلة أقرب إلى الخوف.

كان الصمت موجعاً، ولم تكن أية كلمة قادرة على تبديده. وعندما فتح بدري حقيبته، وبدأ يعد أدواته، كانت الأصوات الصادرة عنها تشبه اصطدام الأواني الفارغة.

بالاضافة إلى رخاوة الجلد، وقد أصبح مثل كيس اللبن، فقد انتابت السلطان ارتجافات عصبية في الوجنة اليسرى، قريباً من العين، الأمر الذي جعل الحلاقة صعبة إلى أقصى حد، وجعل بدري المدلل في حالة من الخوف أقرب إلى الهلع. فهذه الحركات العصبية، وهي على شكل تشنجات مفاجئة، كادت تؤدي إلى أخطاء لا يمكن تداركها.

قال الحكيم، في محاولة لكي يسيطر على الموقف ويطمئن الاثنين:

ـ هذه التقلصات في الوجه تشبه حزقة البلعوم أو المري، انها طارئة، وغالباً ما تكون نتيجة اضطرابات هضمية، أو بسبب الطقس.

وبكثير من الجهد حاول أن يضفي جوّاً من المرح، فأكد أن الحلاقة والحمام والنوم تجدد الإنسان وتنشطه، وأنه يحس بولادة جديدة بعد كل حلاقة، وبعد كل حمام!

حين انتهى بدري المدلل، وتطلع إلى السلطان مواجهة، ثم تطلع إليه في المرآة، بدا له كالدمية: فالبقع الحمراء في رقبته ظاهرة، وشارباه أصبحا دقيقين رفيعين بشكل غير مألوف، بل ويثيران الضحك، قياساً إلى ما كانا عليه. أما الشعرات البيض في لحيته فلم يستطع أن يمد يده إليها، لأن وضع السلطان النفسي، وارتجافات الوجنة، لم يساعداه!

قال الحكيم بطريقة تقريرية صلبة:

ـ المساج اليومي ضروري لوجه صاحب الجلالة.

لم تنقض ساعة حتى امتلأ الصالون الكبير للقصر، في الطابق السفلي، بأبرز الشخصيات التي رافقت صاحب الجلالة في رحلته. وصل حوالي عشرين من هؤلاء. وخلال فترة انتظارهم للسلطان كانوا، بصمت، يقلبون أنظارهم في أنحاء القصر، وفي وجوه بعضهم بعضاً، يقرأون ويتساءلون عن سر هذه الدعوة، وماذا يمكن أن يقال أو أن يحصل.

حين دخل السلطان، وكان وراءه الحكيم وزيد الهريدي، حاول أن يتصرف بمرح: رسم على شفتيه ابتسامة كبيرة، لكنها بدت أقرب إلى التكشير. أما وهو يتطلع إلى الوجوه، ويسأل عن الرأي بالزيارة وألمانيا، فكان مظهره يثير الاستغراب والحزن، فقد تغير تغيراً كبيراً، وبدا للجميع مريضاً ومتعباً. أما الوصايا التي أكد عليها الحكيم عدة مرات، بأن يتصرف تماماً كما كان يفعل في عيد الجلوس، فقد نسيها، إذ ما كادت دقائق قليلة تمضي حتى خيم صمت قاس أقرب إلى صمت المآتم.

تنحنح الحكيم أكثر من مرة لينبه السلطان، فلما انتبه ارتجفت وجنته ارتجافة عصبية زادته ارتباكاً، وأثار خوف الذين نظروا إليه وتساؤلهم.

تطلع إلى الأرض بامعان، وكأنه يبحث عن شيء، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ لا بد وأنكم سمعتم أن أشياء وأشياء صارت بموران بعد ما تركناها. وهذا الحكيم، أبو غزوان، كان هناك، وراح يسولف لكم عن اللي صار واللي جرى.

عدل الحكيم جلسته، تنحنح، ثم أخرج ورقة من جيبه وبدأ يقرأ:

ـ «لم يكد صاحب الجلالة يغادر موران حتى سوّلت للبعض نفوسهم المريضة الاصطياد في الماء العكر والتآمر تحت جنح الظلام، فاستغلت هذه الفئة القليلة جهل عدد محدود جداً من العسكريين وأغرتهم بالوعود الكاذبة والآمال الموهومة لكي يقفوا معها، لكن يقظة الشعب وتماسك الأسرة السلطانية والتفاف الجيش حول صاحب الجلالة لا بد وأن يفوت على الغادرين غدرهم وعلى الحاقدين حقدهم، ولا بد أن ترتد السهام إلى نحور الذين أطلقوها.

«أيها الأخوة الكرام: تعرفون أن صاحب الجلالة السلطان خزعل تمت تسميته من قبل المغفور له السلطان خريبط، وأنا على ذلك شهيد، ثم تمت مبايعته من قبل الأمراء جميعاً، وهذه التسمية والبيعة دين في رقبة كل مسلم، لا يمكن أن تنقض ولا يمكن أن تخان كما لا يمكن أن تسحب إلا عن طريق الشرع. أما إذا تصور البعض أنه بغياب السلطان توضع اليد فلا بد أن يحارب ويقهر. وإذا تصور غيرهم أن التراجع عن البيعة سهل ميسور فإن دمه مباح مهدور لأنه مرتد ومغرور. وإذا تصور البعض أن الدول تبنى بالرغبات والشهوات فلا بد أن يلقم حجراً، لأن الدول لا تعترف إلا بالشرع والشرعية، ولا تتعامل إلا حسب الأعراف والتقاليد. وعليه فإن جميع ما حصل، من قيام هذه الفئة القليلة الباغية، وادعاءاتها ومزاعمها، لا يعتد به، ولا يساوي قلامة ظفر، كما لا يغير شيئاً. فما دام السلطان حياً وقادراً، فإن البيعة باقية، والسلطة، بعد الله، له وحده، وكل تصرف يخالف ذلك، ومن أي شخص، يؤدي إلى هدر دمه. وصاحب الجلالة،

بما عرف عنه من أبوّة وصبر وبعد نظر، والذي رعى الجميع أمام الله وضميره، إذا لم يتحرك، ولم يلجأ إلى القوة، حقناً للدماء، فإن للصبر حدوداً، وللتسامح حدوداً، وللرحمة حدوداً. وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

كان هذا أقصى ما يستطيع الحكيم أن يقوله. ورغم أن ما قيل لا يرضي أحداً، ولا يشفي غلا، فقد كان كل من في القاعة مرتبكاً. لكن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ اندفع الموجودون، واحداً بعد آخر إلى الوعيد والتهديد، مع التأكيد أن ما حصل لا يمكن السكوت عليه أو التساهل فيه، «وإذا أمر صاحب الجلالة نمشي من ساعتنا، وما تأخذنا في الحق رحمة أو لومة لائم، نحاربهم ونعلق روسهم». والحكيم الذي انفعل بهذا الجو تولى الرد نيابة عن السلطان، قال، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ كنتم دايما، أيها الأخوة، عند حسن ظن صاحب الجلالة وموضع ثقته، ووجودكم هنا أكبر دليل على ذلك. وأنتم تعرفون أن للظلم جولة وللحق جولات، وعلى الباغي تدور الدوائر.

تنفس ملء رئتيه، تطلع إلى السلطان يستأذنه أن يواصل في هذا المنحى، هز السلطان رأسه بالموافقة والرضا، تابع الحكيم:

ـ نعم، لا يمكن السكوت عما حصل، لكن من رأي صاحب الجلالة، وفي هذه الفترة بالذات، أن ننتظر قليلاً، وأن نعطيهم الفرصة الأخيرة، خاصة وأن الاتصالات جارية حالياً، لعلهم يعودون إلى رشدهم، ويتراجعون عن غيهم. أما إذا ركبوا رؤوسهم، واستمروا على عنادهم فليس بيننا وبينهم سوى السيف حكم.

قال السلطان بانفعال:

ـ الحق اللي تقوله يا أبو غزوان.

وحين بدأت التهديدات تتوالى من جديد، تبادل والحكيم النظرات، وكأنها أشعار بانتهاء الاجتماع. تحرك السلطان في مقعده، كما لو أنه باب

حجري يدور، وما كاد ينهض حتى ارتجفت عضلة الوجنة، ارتبك، وبعد قليل، خرج صوته من بين أسنانه:

ـ تهون يا جماعة الخير، ولا بد تشوفونهم شلون راح يندمون.

قال زيد الهريدي للضيوف بعد أن انسحب السلطان:

ـ يا جماعة الخير... طويل العمر ما والمته هذي الديرة. من يوم وصولنا انحرفت صحته، ولولا هذا السبب كنتم تشوفون غير اللي شفتوه هالحين.

ولما التفت الرجال بعضهم إلى بعض، وكانت عيونهم مليئة بالتساؤل والخوف والهم، قال الحكيم، وكان صوته أقرب إلى النشيد:

ـ وان غداً لناظره قريب.

قال زيد بسخرية:

ـ مثل ما قال الحكيم، يا جماعة الخير، لازم نطول بالنا، ومن اليوم لباكر الله كريم.

كإلهام مفاجئ رنت الكلمة التي قالها غزوان قبل فترة طويلة في أذني الحكيم من جديد: «الحرب أخطر من أن يقرر أمرها العسكريون».

وتراءت للحكيم الحرب التي يمكن أن تدور أكبر وأخطر مما قد تبدو في الظاهر، إذ لا تقتصر على عدد من الدبابات أو على مجموعة من المهووسين، كما لا يمكن أن تحسم في يوم أو اثنين، فهي تتطلب الاستعداد وتتطلب أساليب جديدة «أساليب غير مطروقة».

هكذا قال لنفسه وقد شعر ببعض الراحة، وأضاف وهو يتنهد: «صحيح اننا خسرنا معركة لكننا لم نخسر الحرب». رفع يديه إلى أعلى، مثلما يفعل عادة، وجرّ نفسين عميقين. حاول أن يبتسم، لم يطاوعه فكاه، بل وشعر بمرارة في حلقه.

قال لنفسه بحدة: «الوقت كالسيف» وقرر أن يتحرك:

ـ اسمع يا سمير، أنت مثل ابني غزوان، ونحن عملنا معاً وأصبحنا نعرف بعضنا جيداً. والآن نواجه نفس الصعوبات والتحديات...

نظر إليه بحزن، هز رأسه أكثر من مرة وتابع بنفس اللهجة:

ـ لقد تشاورت مطولاً مع جلالته، وبعد المشاورات أعطاني الضوء الأخضر وفوضني أن نفعل كل ما نراه مناسباً لصالح القضية.

وتغيرت اللهجة:

ـ أريدك، يا سمير، أن تعطيني نفسك، أن تكون ساعدي ومساعدي، لأن الأمر، في النهاية، يعتمد على ما سنفعله...

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وأنت تعرف أن القضية الآن، وفي مراحل كثيرة لاحقة، تعتمد على الفكر: كيف يمكن أن نقنع الناس بصحة وعدالة موقفنا، وكيف نخرج من هذا الموقف. ومن هنا أهميتنا وضرورة تعاوننا.

لم يكن سمير بحاجة إلى هذه الديباجة، ولم يكن بحاجة إلى تذكيره بأهميته وصعوبة الظرف الذي يواجه الجميع. قال بطريقة اختبارية ماكرة:

ـ المسألة، يا أبو غزوان، بين أخوة، وأنا وأنت غرباء، مجرد ضيوف في موران، والأنسب أن نبقى بعيدين!

ـ لا.. لا يا سمير، المسألة مسألة مبدأ، مسألة حق وعدالة، ونحن أصحاب القضية.. ونخطئ إذا ترددنا أو تخلينا.

ـ لكن هم أسرة يا حكيم.

ـ ونحن من الأسرة!

هكذا رد الحكيم بانفعال وسرعة، لم يكن ليقصد المعنى المباشر للكلمة، وحين رأى ابتسامة سمير تابع ببعض الحرج:

ـ قصدي أن القضية أكبر من الأسرة وأخطر، ومطلوب من كل إنسان أن يحدد موقفه.

ـ وايه فائدة موقف واحد مثلي يا حكيم؟

ـ نحن الأساس يا سمير، لأنه إذا صَفَت قلوبنا، وإذا تضامنا وفكرنا بما يجب أن يُعمل فنحن أقوى من الدبابات وأكثر تأثيراً من الجيوش!

ـ أنت متفائل قوي يا حكيم!

ـ وبعد قليل وهو يضحك:

ـ في هذا العصر يا حكيم الذي يملك أموالاً أكثر ودبابات أكثر هو الأقوى، وكل قوة أخرى في مواجهة المال والسلاح مجرد وهم، فلا تغلط.

ـ يا ابني، يا سمير، مسألة المال لا تخف ولا تسل، خير الله كثير، والدبابات بدون عقل، بدون فكر يوجهها تنقلب على أصحابها.

تنفس بهم وكأنه يبحث عن طريقة جديدة لإقناعه.

ـ مثلما قلت لك يا سمير: أعطني نفسك، ووظف الفسفور الموجود في دماغك للقضية وسوف ترى النتائج وتفاجأ بها.

ابتسم سمير وسأل بدعابة:

ـ «ونسر موران» اللي بقى لنا مدة نشتغل فيه؟

ـ يمكن تأجيله لفترة، لأن لدينا واجبات عاجلة.

لم تطل المناقشة. اتفقا على أن يجريا مناقشات عميقة وواسعة، بعد أن يعدّ الحكيم ورقة عمل تكون أساساً لهذه المناقشات، وأن يفكر كل منهما بالطريقة المناسبة والفعالة لمواجهة الموقف الجديد.

قال سمير وكأنه يخاطب نفسه، ولكن يريد الحكيم أن يسمع:

ـ نحن أخطأنا في قضية أساسية: لو أن الجهود كلها انصبت وتركزت خلال الفترة الماضية على إنجاز نظرية المربع لما حصل ما حصل.

هز الحكيم رأسه بلوعة، ونظر بطرف عينه إلى سمير ليقرأ في وجهه ما إذا كان يعني الكلمات التي قالها أم لا. لما وجده جاداً حازماً، قال بصوت مرتجف:

ـ أولاد الحرام ما تركوا لنا فرصة حتى نحكّ روسنا. كل يوم فتنة، وكل يوم مؤامرة، وتعال في مثل تلك الظروف فكر واشتغل.

وضحك بسخرية ثم أضاف:

ـ عند أهل موران مثل يقول: إذا جن قومك عقلك ما ينفعك، وهذا اللي صار معنا يا سمير.. قلنا لحالنا الأيام تعلمهم وتهديهم، فتركناهم شوية وصار اللي صار!

الاجتماعات لا تهدأ ولا تتوقف، في الليل والنهار. وزيد الهريدي الذي يرتب ويتصل ويشرف يحضر بعض هذه الاجتماعات، ولا يحضر الأخرى، لأنه لديه دائماً ما يفعله. أما السلطان الذي يتفجر غضباً في بعض الساعات، ويقرر أن «يركب ويمشي فوراً»، فلا يلبث أن يصاب بالهبوط،

إذ يطلب إلغاء الاجتماع أو تأجيله، ودائماً الحجة موجودة لدى زيد: «انحرفت صحة طويل العمر» ثم فجأة يعود ويطلب مجيء فلان وفلان من الذين رافقوه للتشاور. والحكيم الذي لا يقيم وزناً لهذه «العراضات» كما سمى الاجتماعات، «لأن مركز الثقل انتقل من الداخل إلى الخارج، ولأن الذي سيحسم الموقف القوى الكبرى وليست سوالف هؤلاء المفاليس الكسالى والعاجزين». ويعجب الحكيم كيف أنه لم يتوقف عند هذه الفكرة الذكية التي قالها غزوان من قبل، وكيف أنه انشغل بقضايا صغيرة وثانوية، مثل غرفة التجارة والعجرمي وأشباهه!

وحين تتبدى له من جديد صور هؤلاء الذين خدعوه أو تخلوا عنه، يخرج صوته كالصرير من بين أسنانه:

اعــلّـمــه الــرمــايــة كــل يــوم فــلــمــا اشــتــد ســاعــداه رمــانــي

وكــم عــلــمــتــه نــظــم الــقــوافــي فــلــمــا قــال قــافــيــة هــجــانــي

وتتمطى صورة حماد. تملأ مخيلته تماماً. يقول في نفسه: «ابن الزانية من نكرة لا يعرفه أحد إلى وزير داخلية عدو. من مجرد صعلوك ورجل ليل، وصاحب المهمات القذرة، ومعروف أن أذنه في يد النّخّاس دامية، إلى إنسان خلقناه وناسبناه، وبعدين هذا جزاك يا أبو غزوان؟ «خلال أربع وعشرين ساعة يجب أن تغادر موران. صارت موران مورانه، وطلعنا نحن الغرباء. أي والله الحق معك يا حماد، والله يكثر خيرك ويكثر من أمثالك، لأنك رددت الجميل بأحسن منه. كانت المياه جارية تحتنا، ونحن يا غافل لك الله، والبهايم اللي حوالينا لا من تمهم ولا من كمهم. ولا ابن حلال جاه وقال: انتبه يا أبو غزوان، الجماعة حواليك مالهم شغلة إلا يتآمروا عليك. وأنا من طيبة قلبي، من ثقتي بالناس، شغلتني أمور ثانية، لكن بسيطة، المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين، والله، والله لأصير معهم أقسى من الحجاج مع أهل العراق، ولأجعلهم عبرة للأحياء والأموات، بس الأول لازم أركب. إذا ركبت الله كريم، ونشوف».

ولا يقطع عليه أفكاره إلا هؤلاء البدو الذين يتدفقون على القصر، وإذا

كان قد استأذن السلطان أن لا يحضر بعض الاجتماعات، لأنه سينصرف إلى إعداد بيان قوي يذاع على العالم حول الأحداث الأخيرة في موران، فإن السلطان لم يلحّ عليه، إذ ترك له الحرية وبعض الأحيان كان يفضل ألا يكون موجوداً!

وتتوالى الاجتماعات في القصر وتتزايد معها الخلافات والتهديدات في الفندقين، وتعزل إدارة الفندقين، الواحدة بعد الأخرى، لكن بالتشاور والاتفاق بينهما بكل تأكيد «هؤلاء الرعاع القذرين» في المقهى الخلفي، القريب من البار، بدل الصالات الأمامية، «لأن الزبائن الآخرين ضاقوا من الأصوات العالية ومن إشارات المجانين، إضافة إلى القذارة» ويضيف المترجم الذي يرافق مندوب السفارة، وهما يحدثان زيد الهريدي:

ـ وإذا استمرت الأمور بهذا الشكل باكر يرمون هدوم الجماعة في الشوارع وتصير مشكلة.

فيرد زيد بحنق:

ـ يا عباد الله الواحد منهم بعمر أبوي فشنهو بلاهم يتصايحون ويتعاركون؟

ـ جماعتكم وأنتم أدرى بهم!

هكذا رد مندوب السفارة، وكان في كلامه تعريض لا يخفى. ابتسم زيد وقال:

ـ الحق حق، يا وليدي، جماعتنا وحنا أدرى بهم، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته، أصبحت ساخرة تماماً:

ـ وأنت يا وليدي، جماعتك ما يبوك؟ ما دزوا وراك؟

ـ تقصد السفارة؟

ـ كل واحد يدري بجماعته!

قال المترجم ليغير الجو:

ـ ومن رأيي أن تتدخلوا، أن تنبهوا عليهم، لأن الألمان ما لهم أمان ولا لهم صاحب!

ضحك زيد وقال:

ـ بهذي الأيام ما عاد، يا ابن أخي، أمان لا للالمان ولا للعربان!

وحين قلب المترجم شفته وهز كتفيه دلالة عدم الاهتمام، تابع زيد:

ـ بسيطة يا وليدي... نشوفهم ونوصيهم!

حين عرض زيد على الحكيم أن يزور الفندقين وأن يعمل على تهدئة الموقف، كان رد فعل الحكيم عصبياً وسريعاً:

ـ الله يخليك يا أبو راشد هذه الشغلة ما هي شغلتي. شوفهم أنت أو شوف واحد غيري، وتفاهموا معهم!

ـ ولكنك أدرى بالألمان يا أبو غزوان.

ـ المسألة مسألة جماعتنا، إذا جماعتنا تربوا وتأدبوا الألمان مالهم معهم شغل ولا في مشكلة.

ضحك زيد بغيظ، وبعد قليل قال وكأنه يحدث نفسه:

ـ بسيطة، على خيرة الله، حنا نشوفهم ونقول لهم صيروا عاقلين ومؤدبين يا جماعة الخير، ولا بد أن يفهموا ويسمعوا!

ويصل في اليوم التالي السكرتير الأول للسفارة حاملاً رسالة شفوية من السفير ينقلها إلى زيد الهريدي والحكيم معاً: «سعادة السفير يبلغكم تحياته واحترامه، وكان بوده أن يقوم بهذه الزيارة بنفسه، لكن تعليمات موران بهذا الخصوص واضحة، إذ يجب أن يبقى في بون، وقد كلفني أن أقوم نيابة عنه بزيارتكم واطلاعكم على بعض الأمور، ويبدأ يقرأ:

ـ «موران قلقة بل منزعجة من النشاطات المعادية والتحريضية التي تتم في بادن بادن، وتعتبر هذه النشاطات غير الودية بمثابة موقف عدائي تجاهها، الأمر يضطرها إلى اتخاذ موقف مقابل، وقد أُبلغت السفارة بضرورة موافاتها بجميع التحركات لكي تحدد الموقف على ضوئها.

وسعادة السفير الذي بلغته أخبار الاجتماعات التي تعقد هنا، والاتصالات التي تجري، شديد الحرج ولا يعرف كيف يتصرف، فهو من ناحية لا يمكن أن يتغاضى، لأن لديه قناعة أن هناك من يبلغ موران مباشرة، ولا يمكن السكوت، لأنه مضطر لإبلاغ موران بكل شيء، ولذلك يرجو أن تتوقف هذه النشاطات، وأن يسود التفاهم والاخاء بين الأطراف المعنيّة».

بهذه الطريقة المتقنة الموجزة، والمليئة بالاشارات أيضاً، نقل السكرتير الأول الرسالة، وإذا فاتت زيد دلالة الإشارات أو العبارات، فإنها لم تفت الحكيم، سأل الحكيم بمودّة مصطنعة:

ـ هل تلقت السفارة رسائل أخرى من موران؟

ـ لا أدري!

ـ وهل يطلب تبليغ السلطان برسائل أخرى غير هذه؟

ـ هذا ما أبلغني به السفير وطلب إليّ نقله.

ـ ومعلومات السفارة حول النشاطات المعادية.. من أين؟

ـ لا أدري.

قال زيد بسخرية مخاطباً الحكيم:

ـ عندهم واحد من جماعتهم يا أبو غزوان، وهذا يناظر ويرسّل!

وهز رأسه بأسف ثم أضاف:

ـ وهذول التراجمة، يا أبو غزوان، يترجمون على الوجهين!

عندما قام الحكيم وزيد الهريدي بإبلاغ السلطان، في المساء ذاته، برسالة موران والسفارة، وقد تعمد الاثنان أن يمهدا لذلك، وأن يخلقا جواً يجعل الأمر عادياً، استبدت بالسلطان ثورة عارمة، لم يماثلها إلا ثورة الليلة الأولى، حين أبلغه السفير بما حدث في موران. خرج عن طوره وأخذ يشتم ويتوعد، ولام الاثنين، وان كان يوجه كلامه في الغالب إلى زيد الهريدي، أن تركا الرجل يأتي ويذهب دون أن يبلغاه، «إذ لو مسكناه وبعد سطرتين والثالثة يطلع كل اللي ببطنه وما يقول أدري وما أدري».

وزيد الذي نظر إلى الحكيم بسرعة، لا يعرف كيف فاته هذا الأمر، إذ لو قبض على هذا الرسول وحبس يوماً أو اثنين فلا بد أن تؤخذ منه معلومات كاملة، ولا بد أن تتردد السفارة في القيام بأعمال التجسس. قال زيد في محاولة لتخفيف غضب السلطان:

ـ هذا ما هو أول أو آخر رسول، يا طويل العمر.

ـ ولكنه كان بأيدينا يا زيد!

ـ إذا أمرت يا طويل العمر حتى السفير نجرّه مثل الخروف!

قال الحكيم بلهجة فخمة:

ـ يا جماعة الخير. . نحن في ألمانيا. . .

وبعد قليل وبصوت منخفض:

ـ كل فرد في السفارة له حصانة، والحكومة الألمانية مسؤولة عن حمايته، ولسنا بحاجة إلى عداوة الدولة الألمانية، أو أن ندخل بمشاكل معها.

ـ حنا ما علينا بحكومة الزق، بالحكومة الألمانية أو غيرها، حنا علينا جماعتنا!

هكذا رد السلطان بغضب وهو يدور نصف دورة دلالة التعب أو الاحتجاج.

قال زيد ليغير الجو:

ـ ثارنا عند الجماعة هناك يا طويل العمر، والرسول مبلغ ما هو ملوم.

ـ صحيح يا ابن الحلال لكن البعرة تدل على البعير!

وانتهى الأمر بأن تحول الحديث إلى أمور أخرى.

تحديان

اثنان يواجهان الحكيم ويثقلان عليه: الأمير فنر ووداد. وإذا كان يواجه تحدي الأمير مع الآخرين، وبجوّ من الحماس والإصرار، ويمتلئ ثقة، في لحظات معينة، بإمكانية النصر، فإنه وحده يواجه وداد، أو بالأحرى لا يعرف كيف يواجهها. وإذا كانت هناك أنواع من المعارك يمكن كسبها مع الزمن، فإن الزمن لا يعمل لمصلحته، ولا يترك له فرصة للتفكير الهادئ المتوازن.

ووداد تلك الدجاجة الخائفة في السنوات الأولى من الزواج، والتي لم تكن تجرؤ على مواجهة نظرات الحكيم أو تعليقاته اللاذعة، وتغرق في صمتها كما تغرق السلحفاة في قوقعتها، أخذت بالتغير ولداً بعد آخر. فغزوان أنبت لها جذوراً، وحامد وكمال أنبتا لها جناحين، أما حين جاءت سلمى، خاتمة العنقود، فقد أصبحت ترفرف بالفرح، وكان يمتلئ البيت بضحكاتها الرنانة، ولما سافر الحكيم بدأت تطير وتحلّق، وعندما تدفقت الأموال أصبحت امرأة من نوع مختلف.

لم يلتفت الحكيم إلى التغير الذي كان يحصل ويتراكم سنة بعد أخرى، إذ كان مشغولاً، أكثر من ذلك، بمشاريعه ثم بأفكاره، ولأنه لم يكن يقضي إلا أوقاتاً قصيرة، وغالباً ما تمتلئ بالدعوات والبهجة وتوزيع الهدايا والوصايا، فلم يلاحظ، إلا متأخراً، المزاج الحاد المترافق مع الصداع والمرض، الذي يستبد بوداد بين فترة وأخرى. عزاه إلى الغربة، وكان على يقين أن الزمن وحده كفيل بمعالجته. وغرق مرة أخرى بهموم الحياة وركضها المجنون، فلم يفطن لوداد إلا كما يفطن الإنسان لنبتة بدأت تذوي، فيلجأ إلى أدويته أو إلى ذلك الدلال المبالغ فيه، فيغدق عليها من

الهدايا الكثير، ويقدم الوعود أن يكون صيف هذه السنة أفضل من كل الأصياف الماضية. وحين ترضى وداد وتؤخذ بالهدايا، أو حين يترافقان في سفرة، مثل تلك التي ذهبا خلالها إلى الولايات المتحدة لزيارة غزوان، فإنهما يتحولان من جديد إلى عاشقين لا يملّ الواحد منهما الآخر في الليل والنهار، بل أكثر من ذلك تتحول وداد إلى امرأة من نمط مختلف، فتعطي الكثير، وتصبح أكثر حناناً، وأقل عرضة للمرض أو لتعكر المزاج.

حتى في الفترة الأخيرة، سواء عندما دعا السلطان أول مرة إلى بيته، أو عندما دعاه للمليحة، وما تخلل الاستعداد للدعوتين من بكاء وداد ومرضها، فقد اعتبره نتيجة التعب أو القلق. وأثناء الاستعداد لزواج سلمى وما رافق ذلك من الحدة والمخاوف، فقد اعتبره نتيجة الرهبة ومداهمة الوقت، خاصة وأن شبح السلطان كان يخيّم مثل ظل كثيف لا يعرف أحد كيف يداريه أو يسترضيه. وكان الحكيم على ثقة أكيدة أن الراحة بعد التعب والانتظار، وفي ألمانيا بالذات، سوف تجعل ما سبقها ذكرى بعيدة، خاصة حين ينضم إليهم، ويقضي أسابيع طويلة في حالة من الاستجمام الكامل بعيداً عن موران ومتاعبها!

الخلافات الماضية كلها لا تعني شيئاً، ولا تستوقف الذاكرة إلا لحظات قليلة ثم تتوارى، ازاء ما بدأ يحصل في بادن بادن. فالسلطان الذي بدا أنيساً ودوداً خلال الأيام الأولى، وقدم لوداد وسلمى هدايا تفوق التصور والخيال، جعلتها تصرفاته تغبط نفسها على هذا الزواج، لكن ما لبث أن غرق في جو غامض، إذ سيطر عليه الصمت وتحول ليله إلى نهار ونهاره إلى ليل، كما عافت نفسه الأكل فجأة، وإذ استغربت وداد وسألت نفسها ثم تساءلت، فلم تستطع الوصول إلى أية إجابة. حتى وهي تحرّض سلمى على أن تسأله، أن تستغل لحظات الإشراق، وفي الفراش بالذات، فلم تجرؤ أي منهما على السؤال، وظلتا كذلك إلى أن جاء الحكيم!

لم تكد وداد ترى الحكيم حتى خافت. وعندما سمعت بعض ما حصل لم تفهم، أما حين فهمت فقد أصيبت بالذهول والصمت، ولما

استوعبت تماماً ما وقع غرقت في البكاء خلال اليوم الأول واليوم الثاني، ثم أصبحت بعد ذلك امرأة لا يعرف أحد كيف يعاملها أو كيف يتعامل معها، أكثر من ذلك تغير شكلها، خاصة العينين، أصبحت شاحبة، معادية، واتسع بياض العين مع تقلص البؤبؤين وبروزهما.

قالت للحكيم بعد أن خلّفت البكاء وراءها وقررت أن لا تبكي أكثر مما فعلت:

ـ هالدربكة كلها ما كانت لازمتنا!

وحين نظر إليها بتساؤل واصلت الهجوم:

ـ ونحن ما جينا لهون حتى ننحبس أو نموت طقيق.

ودون أن يفارقه هدوءه تساءل:

ـ خير.. خير يا أم غزوان؟

ـ لا تسوي حالك ما بتعرف.

رد بحدّة وكأنه يدافع عن نفسه:

ـ فهمينا أولاً ليس لابسة وجهك على المقلوب، وشو اللي صار في الدنيا؟

ـ مية مرة قلت لك: هالجيزة ما بتناسبنا وما هي إلْنا، لكن حضرتك اذن من طين واذن من عجين، ولازم تصاهر الملوك والسلاطين.

قالت الكلمات الأخيرة بسخرية لا تخفى، بل كانت أقرب إلى التعريض.

ردّ بحدّة:

ـ اسمعي يا وداد: احنا ربنا طاير، فالله يخليك لا تزيدي مصايبنا.

ـ أي والله الك حق تحكي!

ـ أي نعم يا ستي، الي حق ونص...

وبعد قليل:

ـ لحد امبارح كنت طايرة من الفرح، وما اعترضت بكلمة واحدة!

ـ أنا؟
ـ أي نعم، أنت يا ستي!
ـ غلطان.
ابتسم بسخرية في محاولة للدفاع، تابعت:
ـ لو سمعت كلامي كان ظلينا بعيدين، ولا كان شفنا ملوك وسلاطين!
ضحكت بتحدٍ وقالت برخاوة:
ـ ولا كان صاهرناهم ولا ناسبونا.
ـ أنت غلطانة يا وداد.
وتغيرت لهجته:
ـ لأن كل شيء كان بشورك وبالاتفاق معك.
وتغيرت اللهجة، أصبحت ساخرة متحدية:
ـ وكانت ضحكتك للسما، وما كنت عاطية فرحتك لحدا.
ـ دمعتي كانت قنطار وما كنت أنام لا في الليل ولا في النهار...
وبعد قليل:
ـ حاطة إيدي على خدي واسأل حالي: منين الله جاب لنا هالمصيبة؟ شو جابنا على الملوك والسلاطين؟ وشو بدنا بها الشغلة؟
ـ الحق معك يا أم غزوان، أنا الغلطان والحق عليّ!
ـ قول أنا اللي غلطانة؟
ـ ابداً.. استغفر الله، أنت ما غلطت أبداً!
ـ عم تتمألس؟ بدك تضحك عليّ!
ـ أعوذ بالله.

وانتهت الجولة الأولى دون انتصار لأحد الطرفين، لكن خيمت الكآبة على الجناح الغربي من القصر، حيث كان ينزل الحكيم وزوجته، أو حيث كانت تنزل وداد ثم جاء هو، وأصبح واضحاً تماماً للحكيم أن المعركة مع وداد لن تقل ضراوة وصعوبة عن المعركة مع فنر!

ما كادت أيام تمضي، وهي تحارب الجميع بنظراتها وصمتها، حتى انفجرت مرة أخرى، وكانت رغبتها عارمة هذه المرة لأن تغادر فوراً القصر. أكثر من ذلك فكرت أن تغادر بادن بادن عائدة إلى موران.

إذ ما كادت إحدى السهرات تنقضي مع السلطان، بعد اجتماع طويل بعدد من المرافقين، تقرر نتيجته أن يعود هؤلاء إلى موران لكي يبدأوا اتصالاتهم، وكي ينقلوا رسائل شفوية إلى آخرين، وأن يطلبوا منهم الاستعداد، «لأن المعركة الفاصلة ستكون قريبة»، بعد هذه السهرة، وما كاد الحكيم ينسل إلى الفراش، دون أن يحدث ضجة، ودون أن يشعل النور، مستعيناً بضوء الممر، ما كاد ينسل كقط إلى جانب وداد، وقبل أن يستقر في فراشه، حتى جاءه صوتها في الظلمة، ويبدو أنها راقبت هدوءه وحركاته واكتشفت رغبته في النوم:

ـ ضميرك مرتاح وجاي حتى تنام، ولا كأنه في مشكلة!

نظر إليها في الظلام وقد فوجئ بهذا الصوت الصافي الواضح، وكأنها كانت تنتظره لكي تقول له ما قالته.

هز رأسه في الظلمة أكثر من مرة بنوع من الأسف الحزين، وكأنه كان يتمنى أن يجدها نائمة أو منشغلة بقضية أخرى. تابعت دون أن تقيم وزناً لأفكاره وعواطفه:

ـ راح اقتل نفسي واسوي لك فضيحة.

ـ خير انشاء الله، قالها بسخرية، كل يوم لك قصة؟

ـ حضرتك سويتنا قصة، وما ضلّ أحد إلا وحامل قصتنا وداير، وتعالوا تحملوا وداروا.

ـ طيب، طيب، اجّلي كل شيء للصبح، والله كريم!

وجر اللحاف بقوة وغطى رأسه، في محاولة لأن يجبرها على النوم. وللحظة ظن أنه نجح في ذلك، لكن حركتها في الظلمة جعلته يتوجس، وإشعال النور جعله يتوجس أكثر، أما حين سحبت اللحاف بتلك الشراسة، وتلك الوقفة المتحفزة، وقد امتلأت عيناها بالشر، فقد أصبح على يقين أن

الأمور لن تنتهي على خير. ولذلك حاول أن يذيب غضبه بابتسامة حزينة، تكوم وسط السرير وسألها بطريقة أبوية:

ـ فهميني، يا حبيبتي، ليش معصّبة ومنرفزة؟

ـ وتسأل؟

ـ ما لي حق اسأل؟

ـ اي والله لك حق، تقتل القتيل وتمشي بجنازته!

ـ بس نوريني يا حبيبتي، يا عيني.

ـ لا تطولها ولا تقصّرها، هذي الساعة لازم اترك، لازم تلقى لي مكان غير هذا المكان.

ـ يا وداد، يا حبيبتي، نامي، اجلي الموضوع للصبح، وما بيصير إلا اللي يرضيك.

ـ أبداً، روحي طقت وراح أموت.

انزل رجليه، اقترب منها كثيراً، جذبها فقاومت، جذبها أكثر وأجلسها إلى جانبه، جلست بتثاقل وأخذت تبكي. بكت بحرقة وبصوت عالٍ. ضمها إلى صدره ليهدئها وليخفف من صوتها فلا يصل إلى الجناح الآخر من القصر. أحس أنه حزين كما لم يكن هكذا من قبل. ماذا يفعل من أجلها وكيف يتصرف؟ وهي، لماذا أصبحت بهذا الشكل؟ كان حائراً لا يعرف كيف يفسر ما يرى ولا يجد له سبباً. وكانت كلما هدأت قليلاً أو كلما تراجع صوتها، تجدد بكاءها وتجعل له جزساً حاداً وكأنها تتعمد أن يصل إلى الجناح الآخر، الشرقي، من القصر.

بكثير من الصعوبة، ومع حركات المداعبة، والوعود الكثيرة أن يفعل ما يرضيها، أخذت تهدأ تدريجياً، أصبح بكاؤها شهقات تعلو وتتراجع بين لحظة وأخرى. الدموع الصغيرة المنحدرة من العينين تمتزج بالكحل، بالعطر، وهو يحاول كقطة وبمسكنة أن يجفف الدموع، أن يعلقها، كانت مالحة ولزجة، وكانت تثير فيه رغبة التقيؤ.

لأول مرة، منذ وقت طويل، يشعر أن حياته منذ البداية وحتى هذه اللحظة تافهة، عديمة المعنى، وان ما فعله طوال عمره لا قيمة له أبداً، بل ويثير اشمئزازه وكراهيته. أكثر من ذلك يشعر أن خلافه مع وداد، أو اختلاف وداد عنه، وحده الشيء الصحيح. إنها امرأة شقية، وهو سبب شقائها. لم يمنحها الحياة التي تستحقها، لم يمنحها الحب الذي ملأ قلبه. كان يؤجل ذلك باستمرار، وكان يخاف أن يبوح بما يعتمل في قلبه. الآن يبدو له كل ما فعله، وكل ما عاشه مجرد خطأ كبير، وكان يكابر ويواصل الخطأ، كأنه سيجد الصواب في نهاية هذه السلسلة من الأخطاء.

حين تعبت ومالت عليه، شعر فجأة أنه يحبها أكثر مما يعترف لنفسه، وأنه يريد أن يكفّر عن أخطائه كلها.

مددها بهدوء في السرير، سحب اللحاف عن الأرض ووضعه فوقها، أطفأ النور وانزلق إلى جانبها.

كانت دافئة أكثر من أية مرة سابقة. للحظة ظن أنها مريضة، وأن المرض سبب ارتفاع حرارتها. استبعد الفكرة وجعل يده تنزلق تحت ظهرها، احتضنها برقة، تنبهت وتحركت قليلاً. اقترب منها ودفن وجهه في عنقها وزفر، تحركت أكثر من قبل، وكأنها بطريقة اختبارية تحاول الابتعاد. زفر مرة أخرى في أذنها مباشرة، أنّت وارتعشت، تأكد أنها تستجيب له. اقترب أكثر واحتضنها بقوة، تحركت لتعطي لجسدها وضعاً ملائماً. عضّ شحمة الأذن، هزّت رأسها وتلوّت. عضها مرة أخرى، قالت وهي تستدير نحوه:

ـ وجعتني، اخس عليك!

ـ راح آكلك، لسّه ما شفت شي!

ـ ما فيك، ما بتقدر!

ـ راح تشوفي بعينك.

حاولت أن تبتعد وتقترب، تحرّك، طوّقها، قالت بطريقة مغرية:

ـ الوقت متأخر، خليها لبكرة!

ـ اليوم وبكرة. . ضحك: وكل ليلة وكل يوم!

ولا يعرف هو كيف تعرّى وكيف عرّاها، فعل ذلك بطريقة أقرب إلى السحر؛ وكانت استجاباتها خجولة بطيئة أول الأمر، لكن ما ان دب الدفء، وما ان احتك الجسدان حتى تحولت بسرعة إلى جنون. كانت تنهشه، تعض كتفه، تنزلق ثم ترتفع كالدرفيل. كانت تبكي وتضحك كل لحظة، ولا تعرف كيف تعبر عن فرحها وغضبها. والحكيم الذي يصهل ويهمهم ويحرّض بوعي حاد خلاياه كلها لكي تستجيب، يجد نفسه كقط عجوز يقفز، يرتفع وينخفض، حتى إذا حانت تلك اللحظات المجنونة كانت وداد تموء وتتشبث بكتفيه مثل الغريق الموشك على الهلاك.

ويمتد صمت آخر الليل ليعمّ الجناح الغربي من القصر اليوم التالي كله، وينصرف الحكيم إلى الخصم الآخر. يقول لمناور المزعل الذي سيكون طليعة المسافرين العائدين:

«ومن يوم وصولك، يا شيخ مناور، تتصل بمطيع، ويجب أن يكون الحديث بينك وبينه على انفراد ومواجهة، وتبلغه رسالة قصيرة: الحكيم يريدك، ولازم تجي، والأفضل أن لا تكون وجهته ألمانيا مباشرة، يمكن أن يأتي إلى سويسرا ومنها إلى هنا. وقل له أن كل حجة غير مقبولة، وللأهمية».

ويهز مناور المزعل رأسه دلالة على فهم الرسالة واستعداده للقيام بإبلاغها فوراً. يلتفت الحكيم إلى السلطان الذي كان ساهماً وبعيداً، ويقول له:

ـ إذا جاء مطيع، يا صاحب الجلالة، يمكن أن نأخذ صورة كاملة ودقيقة عن الوضع، وعلى ضوئها نضع الخطة المناسبة.

وتخرج همهمة من فم السلطان، همهمة غير واضحة، أقرب ما تكون إلى صوت الحيوان، فيؤكد الحكيم بنبرة مختلفة:

ـ المهم، في المرحلة الأولى، أن نجمع المعلومات، لأن المعلومات الدقيقة تساعدنا في وضع الخطة. . .

يقول زيد بحزم:

ـ الحق اللي تقوله يا أبو غزوان. . .

يتطلع إليه السلطان ليكتشف مدى جديته، يضيف زيد:

ـ وإذا جا، بالخير والسلامة، نشوف ويش يلزم وشنهو اللي نسوي!

يهز السلطان رأسه حزناً، لأنه وحده يعرف ماذا تعني كلمات زيد.

يتابع الحكيم محذّراً مناور المزعل:

ـ ويلزم يا شيخ مناور أن حماد ما يدري!

يهدر صوت السلطان:

ـ اه على اللي يجيب لي حماد. . .

وتتغير اللهجة، تخرج من أعماق الصدر:

ـ والله. . . والله إذا ظفرت به، إذا مسكته يدي لأخليه يشتهي الموت ويتمناه، ويقول: ليتني لم أولد أو لو كنت نسياً منسياً.

ويخيم الصمت، تسيطر صورة حماد. تملأ مخيلة الجميع، يتذكر السلطان هذه الصورة، يقول لزيد، لكنه يعني الحكيم:

ـ تذكر، يا زيد، أول أيامه في القصر «يا وليدي أنت واحد منا، نعرف أبوك ونعرف عمك، أجاويد وما مثلهم، وأنت اللي الله يقدّرك عليه»، وراح يوم والثاني وخذ يا حماد، وموافقين على شورك يا حماد، واللي تقوله يا حماد، وبعدين هذا اللي طلع من حماد!

ويزفر بحرقة، يغلف وجهه حزن قاتم، يود لو يرى حماداً لحظة واحدة، لو رآه لشقه بنظرة إلى نصفين، لجعله يذوب كما يذوب الملح في الماء. قال يواصل تعريضه:

ـ وأنت، يا أبو غزوان، تذكر شلون كان حماد!

ـ اي والله اذكر يا طويل العمر.

ـ دنيا ما بها أمان!

ـ بس يجي يوم يتحاسب كل واحد عن أفعاله يا طويل العمر.

هكذا يرد زيد، فيفهم كل واحد أكثر من معنى. وحين يهمّ السلطان بالنهوض يقول لمناور، ويريد أن يفهم ما يعنيه:

ـ تعال معي يا مناور، عندي وياك كلمتين.

وحين يبتعد الجميع، تاركين للسلطان أن يتحدث مع مناور، يتطلع كل واحد إلى الآخر، ولا تفهم هذه النظرات أبداً، هل هي نظرات تساؤل؟ اتهام؟ انتظار؟ يقول زيد ليعطي للنظرات مساراً لا يخطئ:

ـ يجيء يوم يا جماعة وكل واحد وما قدّمت يداه.

وبعد قليل، وفي جو الصمت، يضيف بتحدٍّ ساخر:

ـ ويا ما روس راح تطير!

في أوائل حزيران، ولثلاثة أيام متوالية، بدأت تصل إلى القصر سلال ورد كبيرة، ومع كل سلة بطاقة صغيرة: «مع تحيات هانس أورلخت».

السلة الأولى لم تلفت النظر. أكثر من ذلك اعتبر زيد وصولها صدفة أو بطريق الخطأ. السلة الثانية تحدث زيد بشأنها مع السلطان، لأنها وصلت بنفس الطريقة وبنفس الساعة: سيارة سوداء كبيرة تقف في العاشرة، يهبط منها اثنان بملابس سوداء، أقرب ما تكون إلى ملابس الجنود، يتعاونان على إنزال سلة الورود، يقدمانها مع التحيات، ويغادران.

السلة الثالثة كان الجميع بانتظارها، ولم يبق أحد في القصر إلا توقع وانتظر، وحين وصلت في العاشرة تماماً قال الحكيم يحدث السلطان:

ـ المسألة أكثر من مجرد هدية!

قلب السلطان شفته دلالة عدم المعرفة، وظل ساهماً مفكراً. قال الحكيم:

ـ إذا كان للرجل علاقة بالحكومة أو الأجهزة، فلا بد أن تكون الحكومة الألمانية قد غيّرت موقفها مما حصل في موران، وتريد أن تشعرنا بذلك بطريقة غير مباشرة.

وتغيرت لهجته:

ـ في أوروبا، يا طويل العمر، يحمّلون الورود والأزهار معاني كثيرة، ويعتبرونها رسلاً بين الناس، ولكل مناسبة، ولكل حالة، ورود تعبر عنها، سواء بألوانها أو طريقة تقديمها أو. . .

سأل السلطان بفرح وسخرية معاً:

ـ وصاحبنا هذا ما عساه يريد يقول؟

ـ إذا لم أخطئ في فهم الرسالة، فإنه يعبّر عن المودة!

ـ ومنين عرفنا؟ ويش درّاه بنا؟

ـ يا صاحب الجلالة...

وضحك الحكيم قبل أن يضيف:

ـ انكم، يا صاحب الجلالة، معروفون في جميع أنحاء العالم...

قاطعه السلطان وهو يبتسم:

ـ وما تذكّرنا هو أو غيره إلا اليوم؟

ـ مثل ما ذكرت لك يا صاحب الجلالة: إذا كانت للرجل علاقة بالحكومة، فإن هذا هو موقف الحكومة، تريد أن تعبّر عنه قبل إجراء أية إتصالات، وربما للاعتذار أيضاً عن الموقف الذي بدر منها خلال الفترة السابقة.

وبعد قليل وبنبرة جديدة:

ـ ربما كانت المعلومات السابقة عند الحكومة الألمانية ناقصة أو خاطئة، وجاء من يقول لها كيف تتصرف لئلا يستمر الخطأ.

لأول مرة يمتلئ القصر بتوقع مرتاب، أن شيئاً ما على وشك الحصول، لا أحد يدري ما هو وما إذا كان إلى الأحسن أو إلى الأسوأ. أما اسم هانس أورلخت فقد أصبح مألوفاً جداً بالنسبة للحكيم. للحظات تصور أنه عرف هذا الشخص، أو بالأحرى عرف واحداً بهذا الاسم. حاول أن يتذكر متى كان ذلك، وما هي ملامح ذلك الشخص، لكنه لم يستطع أن يواصل، إذ اختلطت الأشياء والملامح والأسماء، اختلطت وتداخلت. قال في نفسه: «يبقى العالم صغيراً، وتبقى الأفعال الطيبة تذكر بأصحابها حتى لو مرّ الزمن!».

عصر اليوم الثالث رنّ الهاتف. كان المتكلم هانس أورلخت، وكان

الحكيم على الطرف الآخر. لأول وهلة بدا الصوت للحكيم مألوفاً، انه يعرف صاحبه تماماً، ولولا تلك اللهجة الشمالية المترفعة، رغم الود، لتصرف بشكل آخر، لكن في لحظة معينة تريث وفضل الانتظار.

بعد أن قدم هانس أورلخت تحياته واحتراماته، صمت قليلاً ثم طلب أن يحدّد له موعد للقاء السلطان. كاد الحكيم أن يطلب منه المجيء فوراً، لكنه تردد، ثم فكر أن يطلب منه المجيء في أي وقت يشاء، لكنه تردد أيضاً، فسأله عن صفته والغاية من الزيارة. كان السؤال شديد التهذيب، ومع ذلك أحسّ أنه يضع أمامه مجموعة من الحواجز، وللحظة ندم ولام نفسه أنه فعل ذلك. أما حين أجاب هانس أنه سيوضح أسبابه في اللقاء نفسه، فقد اعتبر الحكيم سؤاله حكيماً وضرورياً، وحين ألحّ يسأله من جديد ما إذا كان الأمر مهمّاً وعاجلاً أم أنه يحتمل التأجيل، فكان جواب هانس مع ضحكة لا تخلو من مغزى:

ـ حين نلتقي ستتوضح كل الأمور!

حدد له الحكيم، بعد تشاور قصير مع السلطان، الخامسة من عصر اليوم التالي.

أربع وعشرون ساعة من الانتظار والتقدير والقلق والاتصال مع السفارة في بون، ومع موران، دون أن تتضح إشارة يمكن أن تقود إلى فهم ما يحصل، ودون أن تعطي فكرة عن شخصية هانس أورلخت، أو الغاية من الزيارة. وإذا كانت العاشرة من صباح اليوم التالي جعلت جميع من في القصر ينتظر ويتوقع، فقد مرت دون أن يصل الورد، ودون أن يحدث خلالها شيء، ولقد ولد ذلك لدى الكثيرين القلق وجعلهم يتساءلون، ومع ذلك لم يقلق الحكيم ولم يتساءل، لأن الرجل ذاته سيكون هنا، أمامه، بعد بضع ساعات. وما لم يستطع فهمه من خلال سلال الورد سيفهمه من فم الرجل مباشرة، وسيعرف الأسباب التي دعته لأن يكون كريماً هكذا ولأن يتصرف بهذا الشكل.

قال السلطان، وهو يتناول الغداء مع الحكيم وزيد:

- جيّة صاحبنا اليوم، يا جماعة الخير، ما هي لله، لا بد يكون وراها شي.

رد زيد بسرعة وهو ينظر إلى الحكيم:

- حتى ورده ورياحينه ما هي لله يا طويل العمر!

ابتلع الحكيم اللقمة بسرعة ورد:

- أكيد المسألة ما هي طبيعية، ولازم يكون وراها شيء، واعتقد أن وراها الحكومة الألمانية، خاصة بعد الأخطاء التي ارتكبتها.

كاد يذكر، مرة أخرى، تأخرها في إعطائه سمة الدخول، وكاد يذكر زيارة ممثل وزارة الخارجية، لكنه آثر هذه الصيغة العامة! قال زيد وهو يهز رأسه بسخرية:

- لو كان عنده سالفة زينة كان جماعتنا خبرونا قبل ما يخبرنا الغريب!

قال السلطان في محاولة لأن يستبقي بعض الأمل:

- الغايب سالفته معه، يا زيد، إلى أن يحضر.

- ننتظر ونشوف!

هكذا رد زيد وهو يتطلع إلى الحكيم، ثم سأله:

- وشنهو قولك يا أبو غزوان؟

- مثل ما قال طويل العمر، الغايب سالفته معه.

وبين انتظار هانس أورلخت والاستعداد لهذه الزيارة، وتقدير ما يحتمل أن يترتب عليها، انقضت، الساعات المتبقية، وكانت طويلة، مشحونة بالقلق والترقب.

في الخامسة تماماً وصلت سيارتان: سيارة هانس أورلخت وسيارة الورد، ومثلما أنزلت سلال الورد في الأيام الماضية، أنزلت عصر هذا اليوم، ولم يعرف الحرس هل يتسلمون الورد قبل أن يدخلوا الضيف أم العكس، لأن لا أحد في القصر، ذلك اليوم، لم ينتظر ولم يتوقع.

حين أدخل هانس أورلخت إلى القصر، إلى غرفة الاستقبال في الطابق السفلي، كان السلطان وزيد والحكيم في غرفة مجاورة. كاد السلطان يعتذر

عن لقائه في آخر لحظة، لأنه لن يفهم منه شيئاً. لكن إصرار الحكيم على أن يتم اللقاء، ويمكن أن ينتقل هانس إلى حيث يجلس جلالته، على أن يلتقي به الحكيم قبل ذلك، جعله يوافق.

خلال الدقائق العشر، وهي الفترة التي بقي فيها الحكيم مع هانس على انفراد، لم يستطع أن يفهم بوضوح دوافع الاتصال ثم الزيارة، لكنه، بالمقابل، ارتاح للرجل: كان ودوداً مهذباً، ولم تفارق الابتسامة وجهه. وكان لبقاً حين سأله مجدداً عن هدف الزيارة. رد وقد اتسعت ابتسامته:

ـ لن أخفي عنك: قضايا تهم جلالته.

وبعد قليل وبمودة:

ـ وسوف تسمع كل شيء بنفسك!

وبعد قليل، وهانس أورلخت بين يدي السلطان، وبعد كلمات المجاملة، وقد سَرّ الحكيم أنه لم ينس الألمانية، إذ كان يترجم بين الطرفين براحة، قال هانس أورلخت:

ـ عرفت بزيارتكم، يا صاحب الجلالة، قبل وصولكم بأسابيع، وقد كان هذا مصدر سرور شخصي بالنسبة إليّ. ورأيت جلالتكم لحظة وصولكم إلى بادن بادن، وقد سررت بذلك أكثر من قبل، وكدت أطلب موعداً لزيارة جلالتكم خلال الأيام الأولى، لكن الأحداث التي وقعت في مملكتكم جعلتني أؤجل ذلك.

صمت قليلاً تعبيراً عن الحزن أو الحرج، ثم تابع:

ـ وقد يكون من المناسب أن أذكر لجلالتكم أن أجدادي، من ناحية والدتي، كانوا ملوكاً لبروسيا، ثم بعد الأحداث التي عصفت بألمانيا في القرن الماضي، وتغير الأوضاع والنظام في هذه البلاد، جعلت العائلة تتفرق، ولم يبق سواي في هذه المنطقة.

للحظة بدا للحكيم أن الحديث غير مناسب، إذ صدرت عنه إشارة أدركها هانس. تابع الرجل، بعد أن ابتسم استعداداً للدخول في الموضوع:

ـ في مثل الظروف التي تواجهون، يا صاحب الجلالة، أقدّر وأفهم أنكم قد تحتاجون إلى أشياء كثيرة، ولقد جئت لكي أضع نفسي بتصرف جلالتكم، ويمكن أن أفيد جلالتكم في عدة أمور.

تطلع السلطان إلى الحكيم وتطلع إلى زيد. كانت نظراته بين الارتياب والتساؤل. ماذا يريد الرجل؟ ولماذا جاء؟

خيم الصمت فترة غير قصيرة. لم يكن أحد يعرف ماذا يجب أن يقال. أكثر من ذلك شعر هانس بالحرج، إذ قدّر أنه لم يُفهم. تبادل مع الحكيم، بصوت منخفض، بضع كلمات، سأله ما إذا كان واضحاً ومفهوماً، أم يتطلب أن يشرح ويوضح أكثر. التفت الحكيم إلى السلطان وإلى زيد، سأل بحرج:

ـ هل ترغبون بتوضيح أي أمر يا صاحب الجلالة؟

ـ حنا ما رحنا يمّه ولا سألناه، هو اللي جا، وما فهمنا مقصده أو شنهو اللي يريده.

قال زيد بخبث:

ـ اللي يبيه بعد ما سولف به يا طويل العمر!

قال السلطان بارتياب:

ـ منهو اللي دزه علينا؟ وشنهي علاقته بالحكومة؟

ـ ومن هو اللي يثبت لنا أن أجداده ملوك وسلاطين؟

ومع كل كلمة جديدة يقولها واحد من الثلاثة ولا تترجم يزداد حرج هانس وارتباكه، ينقل عينيه في الوجوه، يستقرئها، يتابع انفعالاتها.

قال السلطان وهو يدق الأرض بعصاه:

ـ قل له، يا أبو غزوان، خله يعلمنا بمراده، وبعدها نشوف!

حين بدأ هانس أورلخت يشرح مرة أخرى، كان أكثر وضوحاً: أشار إلى أن لديه شركة كبرى، وهذه الشركة تتولى العلاقات العامة، وبيع وشراء العقارات، إضافة إلى فرع أساسي للاعلان وآخر للمجوهرات، كما أشار

إلى أن لشركته علاقات واسعة وقوية مع شركات في ألمانيا وخارجها، وهذه الشركات تتولى أعمالاً كثيرة، ويمكن أن تقدم خدمات لا حدود لها في ألمانيا وفي الخارج. كما أن لديه مجموعة مصارف تكفل أعماله وتغطيها، وأنه مستعد، عند الضرورة، وحين يتطلب الأمر ذلك، أن يقدم كفالات مصرفية، تضمن حسن تنفيذ الأعمال، وبالمواعيد اللازمة.

رغم أن الشرح الذي قدمه هانس أكثر وضوحاً، إلا أنه زاد الموقف غموضاً. قال زيد بسخرية:

ـ رأي تنشده يا أبو غزوان أخاف يريد غيرنا وتوهم وجانا.

قال السلطان بطريقة متآمرة:

ـ أثاري الرجال بياع شرا، وحنا ما عندنا اللي نبيعه أو اللي نشريه.

ـ وإذا كان لكل من يبيعه أو يشتري منه يدزّ ورد وريحان ظني أن ربحه يروح بخسارته، ويطلع مثل معايد القريتين!

هكذا علق زيد ولم يستطع أن يخفي ابتسامته.

قال الحكيم مخاطباً السلطان:

ـ مثل هذه الشركات موجود بكثرة في أوروبا يا طويل العمر، وهذه الشركات تعرض خدماتها على الحكومات والجمهور، ولا تلزم أحداً بشيء...

قال السلطان بسخرية ونفاد صبر.

ـ حنا بديرتنا يا أبو غزوان ما بعنا ولا شرينا، فخله يدوّر غيرنا!

رد الحكيم بطريقة فخمة:

ـ من رأيي يا طويل العمر أن نسأله إذا كانت لشركته علاقات بالصحف، لأن الاعلام أساسي جداً، ويمكن أن يساعدنا كثيراً.

كانت هزات رأس السلطان بين الحزن والموافقة. وحين تحدث الحكيم مع هانس أورلخت يسأله ما إذا كانت لشركته علاقات بالصحافة والنشر، ويمكن أن تساعد في نشر بعض البيانات السياسية، أجاب هانس

أن لشركته علاقات مثل هذه، ورغم صعوبة نشر بيانات سياسية، إلا بموافقة الحكومة، إلا أنه سيبذل جهده، وسوف يحصل على أفضل العروض.

رغم السخرية وخيبة الأمل فقد استطاع هانس أورلخت أن يبيع للسلطان خمس ساعات يدوية، اثنتين منها نسائية، وعقداً من الألماس، وعرض على السلطان أن يشتري له قصراً كان لأحد الملوك السابقين، كما أبدى استعداده لترتيب رحلة لجلالته يتجول خلالها في ألمانيا من أقصاها إلى أقصاها. وأكد أخيراً أنه سيكون حاضراً لتقديم خدماته لصاحب الجلالة حين يطلب منه ذلك، ولم ينس أن يلتقط لجلالته عدة صور، كانت احداها على الشرفة، وكان يقف إلى جانبه!

عند الباب الخارجي كان وداع هانس أورلخت لزيد والحكيم حاراً، وأكد مجدداً أنه سيقوم بزيارة القصر وتقديم الاحترام لصاحب الجلالة بين فترة وأخرى.

قال زيد للحكيم وهما يسيران في الحديقة باتجاه الشرفة التي يقف عليها السلطان:

ـ ظني يا أبو غزوان أن الرجال حصّل ثمن ورده وزود!

وضحك بسخرية ثم أضاف:

ـ وبعد اليوم ما راح يدز ورد وريحان!

عندما كانت سيارة هانس أورلخت تنعطف لتدخل إلى الشارع العريض، وكانت تُرى من شرفة القصر الأمامية، حيث وقف السلطان وإلى جانبه الحكيم وزيد، قال السلطان موجهاً الكلام إلى الحكيم، وبسخرية أقرب إلى المداعبة:

ـ أتاري صاحبك، يا أبو غزوان، بياع شرا، وما عنده سالفة غير البيع والشرا!

قال زيد وهو يقهقه:

ـ عمي يا بياع الورد.

شاركهما الحكيم الضحك، لكن بغيظ. وفي تلك الليلة، والأيام التالية، أصبح هانس أورلخت مادة للسخرية والتندر. فزيد لا يشير إليه إلا بعمي يا بياع الورد، والسلطان الذي سمع محاضرة الحكيم عن مغزى الورود ومعانيها، وفي اللحظات التي تمتلئ روحه بالأسى، لا يتردد في أن يشير إلى بعض ورود الحديقة ويقول: «هذا ورد الحكومة.. وهذا ورد القصابين» أو يقول: «هذا ورد الحكومة الألمانية وهذا ورد الانكريز». والحكيم الذي يضحك، ويبالغ بعض الأحيان، لكلمات السلطان ومداعباته، يبدو شديد الحنق، أقرب إلى الغيظ حين يسمع تعليقات زيد أو تعريضه، لكن مع ذلك يعض على جرحه، لا يريد أن تفلت منه كلمة تكون سبباً لخلاف أمام السلطان.

ما كادت بضعة أيام تنقضي حتى أصبح هانس أورلخت نفسه الشخص المطلوب، لأنه الوحيد القادر على المساعدة وحل المشاكل!

فقبل أن ينقضي الشهر على إقامة السلطان، وقعت أحداث عديدة: جاء صاحب القصر، وجاء مندوب عن بلدية بادن بادن. وجاء أيضاً عدد من الشرطة، إضافة إلى حصول مظاهرة أمام القصر.

فصاحب القصر أجّر قصره «للملك وعروسه ولم يؤجره إلى قبيلة من الغجر». هكذا قال، وأظهر، للحظة، عقد الإيجار. هزه في الهواء أكثر من مرة، وأعاده إلى جيبه، دون الإشارة إلى أية فقرة، كما لم يشر أن السفارة هي التي أبرمت العقد، وبالتالي عليه مراجعتها. كان يهدّد أن يقيم دعوى عاجلة لإخلاء القصر والتعويض عن الأضرار الجسيمة التي لحقت به.

لما حاول الحكيم الاستفسار عن أسباب غضبه، أو ماذا يريد، أجاب أنه لم يتصور أن يتحول القصر إلى هذا الشكل، وأنه، حتى هذه اللحظة، لا يفهم شيئاً مما يجري حوله، كما لا يقبل أن تستمر الأمور هكذا. وان المسألة تتجاوز كثيراً الجانب المادي لتطال سمعة القصر والمنطقة، وأنه محرج وحائر فيما يجب أن يفعله لإنقاذ الموقف أو وضع حد لشكاوى الجوار.

ويبذل الحكيم كل براعته ودهائه في أن يفهم المطالب أو الشكاوى، وصاحب القصر يهدأ لحظة ليثور في اللحظة الثانية. يرفض الإجابة عن الأسئلة الدقيقة التي يوجهها الحكيم. لا يطلب، بوضوح، زيادة الأجرة. لا يطلب إخلاء القصر تماماً. وبعد الكثير من الصخب والحدة يتلخص الأمر: بشراء القصر، أو إخلائه فوراً.

بعد جهد كبير، ويومين من المناقشات، تم الوصول إلى حل وسط: يعتبر عقد الإيجار مستمراً لشهر أو اثنين، على أن يرفع السعر من خمسة عشر ألف مارك شهرياً إلى مائة ألف، وينظر في وضع الأثاث بعد انتهاء العقد.

لقد اعتبر الحكيم هذا الحل المؤقت مقبولاً ومرضياً في الظروف الراهنة، لأنه الحل الوحيد الممكن عملياً، ولأنه من الصعب أو المستحيل الوصول إلى حلول أخرى في ظل الحصار والمصاعب، إضافة إلى الانشغال بأمور أكثر أهمية!

ما كادت هذه المشكلة تجد حلاً، حتى جاء مندوب البلدية، مع قائمة لا نهاية لها من الممنوعات، تحت طائلة العقوبة: يمنع بصورة قاطعة ذبح أية حيوانات في القصر. يمنع إيقاد النار. يمنع الجلوس في الشارع. يعاقب على الضجيج وإقلاق الراحة، كما يعاقب على التلصص وإزعاج الجوار.

والحكيم بكثير من الصبر والتهذيب، وهدوء الأعصاب مع الابتسامة، يحاول الاستفسار من مندوب البلدية فيما إذا بدرت من أحد مخالفات من هذا النوع، ويسأل ما إذا كان من الضروري التوقيع على الاستمارة التي قدمها إليه المندوب، فيكون الرد: ابتسامة ساخرة أقرب إلى الاهانة، مع كلمة قصيرة:

ـ أنتم الآن في المانيا وتخضعون للقوانين الالمانية.

وحين أراد الحكيم أن يعرف أكثر من ذلك كان الرد أقسى من قبل:

ـ دائماً أنتم الشرقيون تتظاهرون بالبساطة أو الغباء، لكي تتهربوا من القوانين.

وفجأة خطرت للحكيم العجوز فكرة، وتراءى له احتمال ترحيله مرة أخرى، وهذه المرة ليس وحده، وإنما معه السلطان والآخرون، عندها ستحدث فضيحة لا يعرف مداها أو نتائجها. تناول الورقة لكي يوقع. قال له مندوب البلدية:

ـ لا يمكن التسامح مرة أخرى، ولا يمكن السكوت!

وحين نظر إليه الحكيم مستوضحاً أضاف بحدة:

ـ لدينا من الشكاوي والوقائع ما يكفي لاحالتكم جميعاً إلى المحكمة، وهذه وحدها تجعلكم تقضون بقية حياتكم في ألمانيا، لكن نفضل لكم العودة إلى أوطانكم!

قال الكلمة الأخيرة بنوع من السخرية، وكأنها تعريض واضح يشير إلى معرفته بعزل السلطان وعدم إمكانية عودته. رد الحكيم بخشونة:

ـ يجب أن تعرف أنك أمام رجال يعرفون القوانين ويحترمون الأنظمة.

ـ المهم أن توقع الآن...

بنظرة خاطفة تطلع الحكيم، ووقع، وبعد أن سحب مندوب البلدية الورقة وطواها قال له وهو يبتسم:

ـ والمهم أيضاً أن تحترموا توقيعكم وأن تحترموا القوانين الألمانية!

وعصر اليوم ذاته تظاهر الجوار:

عشرات السيارات المليئة بالشبان والشابات، تمر أمام القصر، وكل من فيها يرتدي طرطوراً أو قناعاً، وقد خطط عدد منهم وجوههم بألوان سوداء أو حمراء، ومع أبواق السيارات يصرخ الشباب ويقومون بأداء إشارات الاستهزاء، ولم يتردد بعضهم في إلقاء زجاجات فارغة. لقد فعلوا ذلك مرات عديدة، بين العصر والغروب.

وإذا استطاع الحكيم وزيد أن يخفيا عن السلطان مجيء صاحب القصر، قبل يوم أو اثنين، ولم ينتبه أحد لوصول مندوب البلدية، وما دار من نقاش بينه وبين الحكيم، لأن الحديث كله جرى بالألمانية، وزيد الذي

حضر جزءاً من الحديث ما لبث أن غادر الغرفة دون اهتمام، أو حتى رغبة المعرفة. لم يستطع أحد إخفاء أمر المظاهرة التي جرت كما لم يستطع الحكيم أن يموهها أو أن يعطيها تفسيراً آخر.

في ذلك المساء قال الحكيم كل شيء:

ـ يا طويل العمر هذه الديرة ليست ديرتنا، نحن هنا ضيوف، ومن شروط الضيافة أن يكون الضيف مؤدباً. . .

وهذه الديرة، يا طويل العمر، لها قوانين، ومن شروط الإقامة فيها أن يلتزم الإنسان بقوانينها. . .

وهذه الديرة، يا طويل العمر، لها أخلاقها، ومن شروط قبول الأجنبي أن يتخلق بأخلاق أهلها. . .

وكاد يستمر بهذه الطريقة، لكن السلطان قاطعه بنزق:

ـ لكنا ما سرقنا ولا نهبنا يا أبو غزوان!

وضحك بسخرية وأضاف:

ـ وما تعدينا على أحد!

كاد الحكيم أن يتكلم، لكن السلطان قاطعه مرة أخرى:

ـ لكن إذا طاح كبير القوم، يا أبو غزوان، طفيت نارهم، وعلم الله أن نارنا طفيت، والجماعة هنا يجربون سلاحهم بروسنا.

ضحك بسخرية أقرب إلى الحزن، وقال بحدة:

ـ لكن يا أولاد الحلال، يا عباد الله، الواحد ما يجرّب سلاحه بميت، ولا يمد يده إلى مال اليتيم.

وهز رأسه بلوعة وأضاف كأنه ينتقم من نفسه:

ـ صحيح أننا طحنا، لكن مثل ما قالوا جماعتنا: لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة، وهذه الدنيا مالها أمان ولا لها صاحب، مثل ما كانت لنا صارت علينا، وباكر ما أحد يعرف ويش يصير!

حاول الحكيم أن يشرح، من جديد، الأمور. قال ان الاخطاء، فيما

إذا كانت هناك أخطاء، من الحرس والمرافقين، ولذلك يجب أن يراقب زيد الأمور، وأن يحرص على عدم مخالفة القوانين والتعليمات، وذكر أن مندوب البلدية أشار إلى مجموعة من المخالفات التي وقعت، بما في ذلك نقف الحرس لبعض النساء بالحصى، أو التعرض لهن.

بعد الكثير من الحديث المتنوع والمتشعب طلب السلطان من زيد أن يكون حازماً، وأنه ينبّه على الحرس والمرافقين، وأن يعاقب المعتدين فيما إذا حصلت اعتداءات من أي نوع، ووافق السلطان على استدعاء هانس أورلخت، لكي يستعان به من أجل شراء القصر، أو من أجل البحث عن مكان آخر للسكن.

وتم الاتفاق أيضاً على الاستعانة بالمحامي الذي اقترحه هانس، لمعرفة حقوق صاحب الجلالة، مقابل الالتزامات والواجبات التي ترتبت عليه، ولتحديد إمكانية التحرك في ألمانيا والاستفادة من الرأي العام. ورغم أن زيداً بدا مغيظاً أقرب إلى الحنق، فقد اعترف أنه سمح لرجاله بحرية كبيرة، الأمر الذي خلق بعض الاعتراضات وردود الفعل. لكن اعتبر أن الاستعانة «بعمي يا بياع الورد وربعه» كما درجت التسمية، «كمن يتقي الرمضاء بالنار» وطالب أن يذهب الحكيم إلى بون، وأين يأتي بالسفير، أو بأحد المسؤولين في السفارة، من أجل ترتيب الموضوع. أما أن نكون «مطبّة للطالع والنازل، للي يسوي واللي ما يسوي، وأن نسكت، فالجماعة ياكلون وما يستوكلون، يحللون وما يحرمون، وإذا جماعتنا أخطوا فخطاهم أكبر، وباكر تشوفون».

لم تُجْدِ اعتراضات زيد، إذ لم تمض بضعة أيام، حتى أصبح هانس اورلخت شخصاً لا يفارق القصر، وإليه يرجع في الكبيرة والصغيرة، فقد عُيّن وكيلاً عاماً لصاحب الجلالة، مقابل راتب شهري تم الاتفاق عليه، تضاف إليه نسبة عن كل عملية يتولى القيام بها!

كل يوم جديد ينقضي دون أن تظهر نتائج يتعكر مزاج السلطان أكثر من اليوم الذي سبقه. لا أحد يعرف كيف يتعامل معه، أو كيف يتصرف. والسلطان نفسه شديد التقلب والتغير: يسهر في بعض الليالي إلى أن يرى شمس النهار تبزغ. ويأوي إلى فراشه، في ليالٍ أخرى، عند الغروب. يبدو في بعض اللحظات راغباً أن يكون الجميع حوله. وفي حالات غيرها لا يطيق حتى زيد الهريدي. وينطبق الأمر ذاته على الأكل والحديث، عدا رغبة المضاجعة، فقد تحوّل خلال هذه الفترة إلى «حصان شبابه» كما قال زيد، إذ كثيراً ما ترك الآخرين وصعد إلى الطابق العلوي، وكثيراً ما سمعت وداد الصهيل والصخب. كانت تشعر أن جسدها يضطرب، فتحاول إشغال نفسها أو الابتعاد، لكن مشاعر اللذة لا تفارقها، وبمرور الأيام أصبحت تخاف على سلمى، بعد أن أصبحت مثل خرقة مبلولة، إذ علاها الشحوب، وبدت متعبة، والهالات الزرق حول عينيها. أما السلطان، رغم الهرم والتعب، فقد ظل مثل دب مسّن، ولم يتردد في أن يطلب من الحكيم المقويات، كما لم يتردد في أن يطلب من شايع السحيمي استخراج كتبه لكي يقرأ له فيها أخبار النساء!

ومع هذا المزاج المتقلب تتغير الحياة أيضاً. فبعد أيام دافئة منعشة في أواخر مايس، جاءت في نهاية حزيران أيام المطر. فجأة تتلبد السماء بالغيوم السوداء، وتبدأ عربدة الطبيعة بالبروق والرعود الصاخبة، ثم ينهمر المطر غزيراً سريعاً، ومع انهماره تتولد في الصدور مشاعر الضيق والحزن، فيصبح كل واحد من مرافقي السلطان في حالة من التوتر أقرب إلى النزق.

وبتعكر أمزجة الرجال يصبحون أكثر استعداداً للحدة أو للصخب. فنزلاء الفندقين، الذين كانوا يكتفون بالأسئلة أول الأمر، ثم بدأوا يتساءلون ويتناقشون، ولا يفعلون أكثر من الانتظار، تحولوا إلى نوع آخر من البشر: عيون مليئة بالتحدي والسخرية، خلافات لا تنتهي مع إدارتي الفندقين، ثم تبدأ المعارك فيما بينهم. وحين نقل الجميع إلى القسم الخلفي من المقهى قريباً من البار، تجرأ عدد منهم وشارك المترجمين بشرب البيرة أول الأمر، ثم أصبح بعضهم لا يفيق من حالة السكر.

وعندما سافرت الأفواج الأولى عائدة إلى موران، بدا وكأن الأمور أخذت مساراً يمكن التحكم به، إذ بالإضافة إلى جمع من تبقى من المرافقين في فندق واحد، ونقل عدد منهم إلى القصر، بناء لمشورة الحكيم، بعد أن سحبت الحكومة الألمانية عدداً من الحرس الذين وضعتهم في البداية، فإن حالة الترقب سيطرت على الجميع، إذ لا بد أن تصل الأخبار التي طالما انتظرها الجميع، خاصة وأنه أشيع عن قرب وصول عدد من الموفدين، بمن فيهم مطيع. أما الذين تسببوا بمتاعب نتيجة السكر، فقد نُبّه عليهم بشدة بلغت حد القسوة، أن من يقبض عليه سكران فسوف يؤتى به إلى القصر ويجلد، الأمر الذي حدا بهؤلاء، أو ببعضهم، أن يشتروا المشروبات من البار، أو من المخازن الكبرى، ويحملوها إلى غرفهم، وهناك يشربون ويسمرون، بحيث أصبحت غرف كثيرة بارات، أو حانات.

أما الحكيم الذي بدا متفائلاً، أو هكذا تظاهر، خلال الأيام الأولى، فقد تغير. حصل ذلك، أول الأمر، بسبب وداد، فحين «روضها» كما يقول لنفسه، أو حين استرضاها مع وعود كثيرة، كما تقول هي، فإن سميراً «عنفص وتغير». فبعد أن طلب مبلغاً من المال، لكي يرسله إلى القاهرة، لأن لديه التزامات، كما قال، ودفع إليه الحكيم بسرعة مع ابتسامة متفهمة، ما لبث أن بدأ يعترض على الكثير من الأفكار والاقتراحات التي يتقدم بها الحكيم، إضافة إلى التلكؤ في إنجاز الأعمال التي تم الاتفاق

عليها، وأخيراً، وقبل أن ينقضي شهر حزيران اختفى، ولم يعرف ما إذا عاد إلى موران، أو رجع إلى القاهرة!

حتى بدري المدلل، الذي وُجد له مكان في المحرس، وأفردت له غرفة خاصة، بدأ يتذمر، ويرفض، في حالات كثيرة، أن يقص شعر الحرس والمرافقين، بحجة أن أدوات الحلاقة مخصصة لجلالته، «وأنه حلاق السلطان، وما هو حلاق التنكة أو السحّارة في سوق الحلال». وبدا أيضاً شديد السهوم واضح القلق، إلى أن اتصل به موظف من السفارة، عن طريق أحد المترجمين، وطلب منه أن يستعد للعودة إلى موران!

وإذا كان الحكيم افترض منذ البداية أن الزمن سيتولى حل بعض المشاكل، فإن مشاكل أخرى أخذت تظهر، وأخرى تتعقد بمرور الزمن. فالاعتراض العابر الذي بدر منه في معالجة مشاكل المرافقين مع إدارتي الفندقين، «لأن همنا أكبر من هذي الولدنات، يا زيد»، ما كان يتصور أن هذا الاعتذار بداية حرب بينه وبين زيد الهريدي. فالعلاقات بين الرجلين، أو بالأحرى مواقف زيد، بدأت تأخذ منحى جديداً. أصبح يتجنب الحكيم، أو يغرق في الصمت إذا جمعهما مجلس واحد. وبدأ يشير أمام السلطان بطريقة واضحة إلى دور حماد فيما حصل، وكيف أصبح شخصاً مهماً في موران، واسمه يتردد على كل شفة ولسان. وهو حين يذكر حماداً بالذات فلكي يحمّل الحكيم مسؤولية اختياره وتعيينه. أما عندما أخذت تصل جرائد موران، وقد تعمدت السفارة إيصالها، وكانت تمتلئ بالإشادة والتقدير للعهد الجديد، وكانت صور رجال العهد وتحركاتهم تملأ هذه الجرائد، فقد توافرت مادة جديدة للتعريض بالحكيم، خاصة من قبل زيد وشايع السحيمي ثم للتحريض عليه.

ولم يكن السلطان بحاجة إلى التحريض، لأن كل شيء حوله يثيره ويحرضه. فتأخر وصول الأخبار، مثلاً، أو مجرد نشر صورة لمطيع إلى جانب فنر، بعد أن عُيّن مستشاراً في القصر، أو صورة حماد، وهو يمنح الأوسمة لدفعة جديدة من ضباط الشرطة، تقديراً للخدمات الجليلة التي

قدموها للسلطنة والحفاظ على الأمن. إن إياً من هذه الأمور كفيل بأن يجعل ذلك اليوم جحيماً لكل من في القصر. فإذا جاءت تعريضات زيد أو سخرية شايع، فعندئذٍ يضطر الحكيم للانسحاب، متذرعاً بالمرض، أو ضرورة تناول الدواء، أو بحجة مواصلة العمل على البيان الذي يعده «لينشر في جميع أنحاء العالم» كما كان يقول! وحين تبدو مثل هذه الذرائع واهية، أو تتكرر مرة بعد أخرى، يخفض رأسه، ويزرع عينيه في مكان، أو ينشغل بسبحته، في محاولة لأن يهرب من كل ما حوله. فيهمس زيد في أذن شايع، وهو لا يخفي ابتسامته: «سبت ابن الحرام».

الاتصالات بين بادن وموران صعبة، ويتخللها الكثير من المنغصات، فهي مع القصر غير ممكنة، أو تنقطع خلال اللحظات الأولى. ومع الآخرين مشوشة ومراقبة، وكثيراً ما تدخل الرقيب مشعراً أو منبهاً الطرفين أنه ينصت ويسجل كل كلمة. والسلطان الذي افترض، أول الأمر، أن مجرد إمكانية الاتصال مع موران سيحل المشاكل وينهي هذا الكابوس، ما لبث أن تأكد من خطأ هذا الافتراض. وحين تجنب الاتصال بنفسه، طالباً من الآخرين أن يتصلوا، كان مجرد انتظار مثل هذه الاتصالات عذاباً لا يطاق، إذ بعد ساعات من الانتظار، والتأكيد مرة بعد أخرى على الطلبات، كان يأتي الجواب: «الخطوط مقطوعة» أو «الرقم الذي تطلبونه لا يجيب».

والسفير الذي كان يردّ بعض المرات على اتصالات زيد أو الحكيم، ويبدو، في حالات كثيرة، مهذباً وراغباً في التفهم والمساعدة، ما لبث أن أخذ يتهرب، فيجيب مرة ولا يجيب أخرى، أو يرفع صوته مدعياً أنه لا يسمع، ثم فجأة ينقطع الاتصال! وفي وقت لم يتأخر أصبحت إجابة عامل المقسم تتكرر: «سعادة السفير غير موجود» دون رغبة في أن يضيف كلمة أخرى، حول ساعة عودته. وحين سافر بعض الذين رافقوا السلطان، عائدين إلى موران، سافر هو أيضاً للتشاور، وطال بقاؤه في موران، دون أن يعرف أحد متى يعود، ودون أن يكون أحد مسؤولاً في السفارة أثناء غيابه!

وعشرات المنغصات اليومية تحدث في حدود هذه المساحة المسورة من بادن بادن، فلا يعرف أحد كيف يواجهها أو كيف يتغلب عليها.

قبل أن ينقضي الشهر، وفي هذا الجو من الانقطاع والارتباك والحيرة والمرض، جمع السلطان عدداً من الرجال لكي يتشاور معهم، ويتخذ قراراً.

كان في حالة من الضعف أقرب إلى الانهيار. لم يخف ذلك، وما كان ليستطيع حتى لو أراد. كان بادي المرض، وقد اضطر إلى حمل عصا، اشتريت له على عجل، «لأن الأدراج تتعب والركب ما تحمل». وترك لحيته تطول أكثر من السابق، دون رغبة في أن تقصّ أو تهذب، كما فعل في المرة الأولى. أما وجنته فأصبحت ترتجف بوتيرة أسرع، ومن يرها لا يتمالك نفسه من الضحك لهذا الرقص الرتيب المنتظم.

في هذا الاجتماع الذي خيم عليه الحزن، تكلم السلطان، عكس المرة السابقة. تحدث عن الزمان وخياناته؛ عن الأصحاب وتخليهم؛ عن الأخوة وكيف تغيروا. وتحدث عن الناس، قال أنهم يقفون مع القوي الذي يخافونه، ومع مصالحهم. كما أشار بحزن، بلغ درجة المرارة، إلى أن الحياة تغيرت كثيراً عن السابق، ويعتبر نفسه أحد الذين تسببوا في هذا التغير، نتيجة التساهل والسماح بوصول الأجانب. وقال أخيراً:

ـ وإذا الوجدان ما صحي، والناس ما رجعوا إلى حليبهم، فالأيام الجاية أصعب من اللي راحت.

وقال أشياء أخرى أيضاً. وفي لحظة معينة سقطت دموعه دون إرادة، وخيّر كل واحد من الذين رافقوه بين البقاء أو الرحيل، «لأن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها» وأقسم أنه لن يلوم أحداً على أي قرار يتخذه.

حاول أكثر من واحد أن يتدخل، أن يهدد. دق السلطان الأرض بعصاه، ورفع يده وهو يقول بحزن:

ـ يا جماعة الخير. . . حنا اليوم بديار غريبة، بعيدين ومقطوعين، ولو كنا بديرتنا، بين أهلنا وعشيرتنا، كانت الأمور اختلفت. ومثل ما قلت

لكم: ان الله لا يكلف النفس إلا وسعها. وشوري عليكم أن تكونوا هناك، لأنكم هناك تفيدون، وعسى أن الله يقدّرنا ويرجعنا، وعندها الله كريم، ما ننسى لأحد افضاله.

قال الحكيم، في محاولة لأن يعطي المناقشة عمقاً إضافياً:

ـ يجب أن يتم العمل على خطين، يا طويل العمر، خط الداخل وخط الخارج، واقتراحكم أن يعود معظم الأخوة اقتراح صائب، وأرى تنفيذه دون إبطاء، لأن الموجودين في الداخل سيكونون عدة لنا وذخراً، وسوف يقومون بالاتصالات التي تكلفونهم بها، كما أن مجرد وجودهم هناك سوف يؤثر نفسياً.

تلفت أكثر من مرة ليرى أثر كلماته، فلما وجدهم صامتين تابع:

ـ والزمن الذي نعيش فيه، يا طويل العمر، أوجد ارتباطاً وثيقاً بين العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية، بين موران والدول الأخرى، خاصة الولايات المتحدة، ولذلك يجب أن نعمل على هذا الخط، وأنا واثق أن النتائج ستكون إيجابية وقريبة.

رد السلطان، وكأنه يكلم نفسه:

ـ أي بالله، والواحد معهم كأنه بحضن أمه وأبوه!

قال زيد الهريدي:

ـ أمّن البزّون شحمة...

والتفت إلى شايع السحيمي، وقال له بسخرية:

ـ ترى حقنا وصلنا يا أبو عاهد!

لكي يخفف الحكيم من وقع خيبة الأمل بعد تأخر مطيع ثم اعتذاره عن المجيء، تذكر الكلمات التي قالها غزوان في إحدى المناقشات: «تزايد أهمية السلطنة للاقتصاد العالمي يترافق مع انتقال القرار من الداخل إلى الخارج، إذ كلما أصبحت موران أكثر أهمية أصبحت أقل قدرة على اتخاذ القرار». ويتذكر أن غزوان لامه على انشغاله بالموضوعات الصغيرة، كانتخاب غرفة التجارة أو انصرافه إلى الكتابة وما شابه ذلك.

الآن تتكشف أمامه الحلول المناسبة: يطلب من غزوان المجيء إلى بادن. بادن، يفهم منه رأي الدوائر المسؤولة، ويتفق معه على ترتيب زيارة لصاحب الجلالة إلى الولايات المتحدة، والالتقاء فيها بالمسؤولين، ويتفق مع هؤلاء على كيفية العودة. هذه المرة يجب أن يكون الشخص الأساسي، كل شيء، في المفاوضات، في الاتفاقات. يجب أن يبحث الصغيرة والكبيرة، أن يدقق في تقرير صيغة السلطنة التي يجب أن تكون. لم يعد يثق بالآخرين، أو أن يكلفهم بمهام كبيرة، عليه أن يتولى الأمور بنفسه، لأنه لا يريد أن يكرر الأخطاء السابقة.

أحس بالراحة والانتعاش. كان يجب أن يفكر هكذا منذ اللحظة الأولى، لام نفسه أنه لم يفعل. قال، وكانت الكلمات صارمة ليخفف شعوره بالخطأ: «الآن يمكن أن نملي شروطنا، خاصة بعد أن جربوا غيرنا واكتشفوا عدم جدارتهم».

بكثير من الانفعال، وقد تخيّر وقتاً مناسباً، شرح للسلطان خطته، وعرج بثقة، وان يكن بإشارة سريعة، على ما سمعه من غزوان، وكيف أنه

أخطأ إذ لم يول هذه الفكرة ما تستحقه من الاهتمام. ثم ذكر مزايا غزوان وما اكتسبه من خبرات، إضافة إلى العلاقات الواسعة التي نشأت له في الولايات المتحدة. وكيف أنها ستفتح الأبواب وتغير المعادلات كلها.

استغرب أن السلطان لم يشاركه الانفعال. كان يكتفي بالاستماع ويهز رأسه بين فترة وأخرى. وحين عرض عليه أن يستدعي غزوان فوراً، وأن يتم التداول معه بهذه الخطة، قال السلطان، وخرج صوته مسكيناً:

ـ تذكر يا حكيم: قلنا لغزوان أن يكون قريباً منا ويشور علينا، لكن الله يسلمه، ظل بعيد.

ـ اشغاله ما سمحت له يا طويل العمر!

ـ أدري... أدري يا أبو غزوان!

هكذا رد السلطان، وكان لا يخفي تعريضه، وحتى سخريته. قال الحكيم في محاولة للدفاع:

ـ تتذكر مسألة تسليح الجيش يا طويل العمر.. وتتذكر...

ـ أتذكر كل شيء يا أبو غزوان!

ـ أنا من رأيي أن نستدعيه وأن نتشاور معه.

ـ يا حكيم غزوان مثل ما هو ولدك هو ولد لنا، ونحب نشوفه بكل وقت...

وبعد قليل وبحزن:

ـ لكن ظني أن وقت التكليم راح وانتهى!

رد الحكيم بانفعال:

ـ اترك المسألة عليّ يا طويل العمر، أنا أتابعها، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

ـ لا تتعب روحك يا أبو غزوان، تراك تعبت وشقيت أكثر من اللازم.

ـ التعب ما له قيمة، يا صاحب الجلالة، المهم أن نصل إلى نتيجة.

ـ على خيرة الله.

في تلك الليلة، وفي اليوم التالي، ذهبت محاولات الحكيم للاتصال بغزوان عبثاً، ولقد لعن في سره كروية الأرض وفرق التوقيت مئات المرات، لأن هذه الأميركا يبدأ يومها حين ينتهي يوم الآخرين، ويبدأ ليلها حين يُغرق النور باقي أجزاء الأرض. لا يعرف متى يبدأ غزوان عمله ومتى ينتهي منه، ولا يعرف هل هو في سان فرانسيسكو أم خارجها. وماذا لو كان مسافراً، مثل سفراته السابقة، إلى البرازيل أو اليابان أو إلى أماكن أخرى؟

وعنّ له لو يسافر إلى هناك بنفسه، أن يصطحب وداداً مثلما اصطحبها قبل بضع سنين ويسافر. سوف ترتاح قليلاً، وسوق يتغير مزاجها، ولا بد أن يلتقي غزوان هناك على انفراد، ويتباحث معه، دون ازعاج الآخرين أو تدخلهم. سوف يبحث معه كل شيء، ويطلب منه أن يمهّد للاتصالات التي سيجريها السلطان. إن ذلك لو جرى سيختصر الكثير. ومن هناك أيضاً يمكن الاتصال بموران. سيتحدث إلى مطيع وحماد وآخرين. لن يقول لهم أنه في الولايات المتحدة، ولن يقدروا، وربما وجد الكثيرين هناك من معارفه أو مرؤوسيه السابقين..

وفي اليوم الثالث، عند الفجر، استطاع الاتصال بغزوان. كانت لحظات متفجرة على الهاتف. صحيح أنه ظل متماسكاً حين تحدث إليه وحين سمع صوته، أكثر من ذلك طمأنه أنه وجميع أفراد العائلة بخير. لكن لم يستطع أن يتماسك حين بدأت دموع وداد تنهمر وهي تتحدث مع غزوان. أحس أنهما تعيسان أكثر من الآخرين، وأنهما بدّدا حياتهما في أشياء وأماكن لا طائل من ورائها. وعنّت للحكيم الرغبة أن يوقظ السلطان وسلمى، وأن يطلب منهما التحدث مع غزوان، لكن الفكرة تراجعت حين نظر إلى ساعته ووجدها الثالثة والنصف.

تسلّم سماعة الهاتف من جديد، كانت مبتلة من العرق والدموع. قال لغزوان بلهجة حنونة، لكن لا تخلو من حزم إنه يريد منه المجيء إلى بادن بادن، وأن يكون ذلك اليوم قبل الغد. قال هذه الكلمات وشعر أن غزوان،

في الطرف الآخر، قد ارتبك. إذ تنحنح أكثر من مرة، وطال الصمت الفاصل بين كلمة وأخرى. وحين أكد عليه من جديد أن الأمر يتجاوز الاشتياق والرغبة في اللقاء إلى أمور أخرى، وأن السلطان يريد أن يراه أيضاً، فقد رد غزوان باعتذار حانق، أن لديه مجموعة هامة جداً من المواعيد خلال الأيام القادمة، ولا يستطيع، بأي شكل من الأشكال، إلغاءها أو تأجيلها. ولما سأل من جديد متى يستطيع أن يأتي ومتى تنتهي مواعيده رد بأنه لا يستطيع إعطاء أي جواب الآن، لكنه سيبقى على اتصال.

انتهت المكالمة بعد نصف ساعة. تبادل الحكيم السماعة مع زوجته عدة مرات، وتغيرت لهجة الحديث عدة مرات، لكن لم يستطع الوصول إلى نتيجة محددة. أما عندما اقترح عليه أن يقوم هو وأمه بزيارته، فقد كان رد غزوان أوضح:

ـ هذه الفكرة أحسن، وأميركا كبيرة، إذا ما التقينا بسان فرانسيسكو يمكن أن نلتقي في نيويورك أو في مكان آخر.

لم يستطع أن ينام بعد هذه المكالمة، كان منفعلاً حانقاً، وكان أقرب إلى التشوش، «فهذا الغزوان يزداد بعداً واختلافاً كل يوم، بل ويزداد غموضاً أيضاً. كيف يفكر وماذا يريد؟ صحيح أنني لا أفهم أفكاره، لكنه، كما يبدو لي، شديد الذكاء. قد تختلف أفكارنا، ربما نتيجة فارق العمر واختلاف الأجيال، وقد لا يفهم أحدنا الآخر بسرعة أو بسهولة، بسبب تباين التربية أو الدراسة، ومع ذلك يجب أن أبذل جهداً إضافياً من أجل أن اقترب منه، لكي أفهم ما يقوله وما يعنيه. والكرة في ملعبي الآن، كما يقولون، ولذلك عليّ أن أعرف كيف أتصرف».

لما سأله السلطان، عرضا، بعد بضعة أيام، ما إذا اتصل بغزوان أم لا فوجئ بالسؤال وارتبك، إذ رغم أنه هيأ نفسه لهذا، وهيأ الإجابة، فقد ظل محرجاً. راودته نفسه أن يكذب، أن يموه الإجابة فيجعلها غامضة، لكنه وجد نفسه يقول:

ـ اتفقنا، يا طويل العمر، أن أسافر أنا وأم غزوان إلى هناك!

فوجئ السلطان، إذ لم يقدر احتمالاً مثل هذا. تابع الحكيم موضحاً:

ـ وهناك يمكن أن تجري مجموعة من الاتصالات تمهد لزيارتكم يا صاحب الجلالة.

قال السلطان وكأنه يحدّث نفسه:

ـ ترى اللي يروح بدون دعوة يقعد على غير بساط يا أبو غزوان!

وتطلع إلى عيني الحكيم بتركيز وأضاف:

ـ لما كنا بحيلنا وقوتنا، يا أبو غزوان، ما قالوا لنا تفضلوا، ما قالوا تعالوا يا جماعة الخير، تريدهم هالحين ينتخون ويقولون: تعالوا؟

وأضاف بعد قليل، مع تنهيدة طويلة:

ـ بلادي وان جارت عليّ عزيزة وأهلي وان ضنوا عليّ كرام

وهز رأسه عدة مرات:

ـ لكن الظاهر أنه ما ظل لنا بلاد أو عباد، يا أبو غزوان. البلاد بعيدة أو راحت، والأهل ما عادوا أهل.

وبأسىً كاوٍ يخفض صوته وهو يردد:

ـ وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

الحسام المهند

المهند

ولم يتأخر الحكيم، أبلغ وداد بالسفر، وطلب منها أن تستعد. امتلأ يقيناً أنه سيتوصل إلى نتائج حاسمة خلال فترة قصيرة. سيبلغ السلطان بهذه النتائج، لكن يجب أن يفعل ذلك بطريقة ذكية، لئلا تنكشف الأمور. يتفق معه على مجموعة من المصطلحات والرموز، لكي يتبادلا الأخبار والتقديرات دونما إحساس بالخطر أو بالمراقبة. وسوف يتفق مع غزوان على طريقة لمواصلة الاتصالات في المستقبل أيضاً!

حين ارتسمت له الصورة كاملة بدا أكثر راحة وتفاؤلاً. المهم أن يلتقي بالمسؤولين الأميركيين لكي يبحث معهم كامل التفاصيل. يتذكر كيف كانوا

يتبادلون النظرات وهو يتكلم، وهو يجيب عن أسئلتهم أثناء زيارته، كانوا لا يخفون إعجابهم. الآن يمكن أن يتوصل معهم إلى النتائج المرغوبة دون جهد، سوف يقنعهم بكل تأكيد. وسوف يعود إلى موران منتصراً.

عندما بدأ الحكيم بالاجراءات العملية واجه صعوبات لا حدود لها ولم يتوقعها: القنصلية الأميركية في شتوتغارت لن تستطيع مساعدته بأكثر من إرسال طلبه إلى السفارة في بون، والأفضل أن يقدمه بنفسه هناك. والسفارة في بون لا تمنح السمات إلا للألمان أو المقيمين بصورة دائمة، ولا بد من استشارة واشنطن في جميع الحالات. وواشنطن تجيب «على طالب السمة أن يحصل عليها من موران، أو أن يحصل على موافقة حكومته!».

بعد انتظار وشروح لا نهاية لها، وبعد اتصالات عديدة بغزوان، والذي أوضح أنه لا يستطيع مخالفة القوانين الأميركية، وافقت السفارة على منح وداد سمة لزيارة ابنها، وأبلغت الحكيم أن طلبه «قيد الدرس»، وحالما تتلقى جواباً من واشنطن سوف تقوم بإبلاغه الجواب.

بعد عشرة أيام من سفر وداد، وبعد محاولات عديدة، في الليل والنهار، لقط غزوان:

ـ الله يصلحك، نطّفت قلبي يا غزوان. كل يوم عشر اتصالات، عشرين اتصال، وحضرتك غير موجود.

كان جواب غزوان، في الجهة المقابلة، ضحكة رنانة فرحة. واستشاط الحكيم:

ـ اي والله الحق معك، شو على بالك، اضحك كمان.

ولا يتردد غزوان في مواصلة الضحك. يزمجر الحكيم:

ـ مالك حق يا ابني، وأنا زعلان منك ومن الخانم، أمك، كتير.

وبعد أن يستمع إلى شرح غزوان كيف انتظر أمه في نيويورك، وأنه تجول معها في عدة مدن أميركية قبل أن يصلوا أول أمس إلى سان فرانسيسكو، يرد الحكيم بحزم:

ـ يا حبيبي، يا عيني، كان لازم من أي مكان أنت فيه تتصل، تقول: أنا بالمدينة الفلانية، يا جماعة الخير، أنا مبسوط، والوالدة وصلت. . .

وبعد قليل وقد عاد لصوته شيء من الغضب:

ـ تخسر شي لو فتحت تلفون وقلت كلمة، كلمتين؟

وبعد أن يطيب غزوان خاطره، ويعد بالاتصال، يسأله الحكيم من جديد:

ـ وأمك، يا غزوان، كيف صحتها وأحوالها؟

وقبل أن يستمع إلى كامل إجابته يقول له:

ـ وإذا كانت قريبة خليها تحكي معي.

حين يسمع صوت ضحكتها الرنانة، وكلماتها المتداخلة بين الاعتذار وعدم معرفتها الاتصال وانشغالها، يصرخ:

ـ وينك يا بنت الحلال؟ هيك اتفقنا؟

وتضحك. ترتخي أعصابه، يصبح مستعداً للتسامح والنسيان. يقول لها وكأنه يهمس:

ـ كيف اقتنع معك؟ وافق؟

تجيب عن سؤال آخر. يهز رأسه بحزن ويتابع:

ـ مثل ما اتفقنا يا حبيبتي. ابذلي كل جهدك، ولازم ترجعوا بسرعة.

وحين توضح له أنها لم تسترح بعد من عناء السفر، وعليه الصبر والانتظار ينفعل:

ـ يا حبيبتي يا عيني: لاحقين على السفر وشمات الهوا. بس الآن في قضايا أكبر واهم، ولازم تساعديني، فهمانة؟

وتؤكد له أنها فهمت، لكن القضية ليست بالسهولة التي يفترضها. يصرخ بحدة:

ـ أعطيني غزوان.

وتتغير اللهجة، تصبح صارمة:

ـ ها يا غزوان، شو صار بسمة الدخول؟

ويفهم منه أن القضية تتطلب وقتاً، وربما وقتاً طويلاً، فيهدر صوته:

ـ لك يا حبيبي، المرة الماضية أعطوها على الحارك. ساعة ما تحملت، بدون أسئلة وبدون مراجعات، شو صار بالدنيا؟ ليش هالعرقلة والتعقيدات؟

وجلس على طرف السرير، بعد أن تعب من الوقوف والحركة، وتغيرت اللهجة:

ـ اسمع يا غزوان: لازم نلتقي، وأنا لو أعطوني السمة لكنت ثاني يوم عندك، لكن ما دام تأخروا فأنت أحمل حالك وتعال. الموضوع هام ولا يحتمل التأخير.

وينقطع الخط فجأة. ويبذل الحكيم جهوداً خلال ساعة أو أكثر ليعاود الاتصال، لكن لا يوفق، فيأوي إلى فراشه وخيوط النور تتسرب عبر النافذة. يحاول أن ينام فلا يستطيع. يتخيل وداد، ترن ضحكاتها في أذنيه. يحس أنهما سعداء. يقول لنفسه: «طبيعي، الصياد يتقلى والعصفور يتفلى. الجماعة مبسوطين، مروقين، وحضرتي ملعون سنسفيل أجدادي وآكل خرا».

يتقلب في الفراش، لكن النوم لا يأتيه. يسمع جلبة تبديل الحرس، يقول في نفسه: «المرة الماضية بدون طلب: تفضل يا دكتور، ونحن سعداء بزيارتك. ولازم تقوم بجولة على جميع الولايات، ولازم تكون ضيف الحكومة الأميركية. هذه المرة: يا جماعة الخير أريد زيارة ابني. ابني غزوان، والكل يعرفه، لكن: متأسفين. يجب أن تقدم طلباً وتنتظر. ويجب أن يتضمن الطلب معلومات حتى الجد السابع، وأن تذكر فيه جميع الأمراض التي أصيبت بها العائلة، خاصة البلهارسيا والتراخوما، وكأن الواحد مصاب بالجذام ويخافون منه، أو لا يريدونه».

وماذا يقول للسلطان؟ وكيف يرد على نظرات زيد الساخرة؟ ويتذكر كلمات زيد عندما بدأ يستعد للسفر:

ـ يا أبو غزوان: شوري عليك أن تبقى، لأن طويل العمر يتونس بوجودك، وما يقدر على فراقك!

ولما أوضح له الحكيم أن السفرة ضرورية إلى أقصى حد، وتتوقف عليها نتائج كبيرة ردّ زيد بسخرية:

ـ من مغرب، يا أبو غزوان، ما جتنا إلا البلايا، من حماد وجماعة حماد، وأمثالهم، والأَخْيَر أن نتركهم.

حاول الحكيم تغيير الموضوع:

ـ مجرد زيارة لغزوان.

ـ وعلامة ما يجينا؟ ما يسأل عنا؟ وإلا الدنيا صارت بالعكس: الكبار يروحون للصغار؟

وتتحول المسألة في ذهن الحكيم إلى تحدٍ، أو ما يشبه عناد الأطفال: «يجب أن يأتي، ومهما كانت أشغاله يمكن أن تؤجل». ولا يصبح لديه همّ إلا أن يتصل به، لكن معظم محاولاته تصطدم بالصمت. وترن في أذنيه ضحكات وداد «قادرة تطلّع الحية من جحرها، ولا بد أن تقنعه».

ومع كل محاولة جديدة للاتصال تطول قائمة الأسئلة التي دوّنها لكي لا تفوته أية قضية. لكن التلفون، هذه الآلة اللئيمة، لا يجيب، أو أنه مشغول في الغالب «هؤلاء الألمان لا يعرفون شيئاً سوى الثرثرة. أنهم يقضون حياتهم يثرثرون في مشارب البيرة أو بالتلفون». ثم يفترض أن تلفون غزوان هو المشغول «الا يستريح؟ وهل لديه كل هذه الأشغال والعلاقات التي تجعل تلفونه مشغولاً بصورة دائمة؟» ويعاود، من جديد، حساب فرق التوقيت بين ألمانيا والولايات المتحدة، خاصة الساحل الغربي، هذه المسألة تقلقه تماماً، أو بالأحرى لا يستوعبها بالمقدار الكافي، ومع ذلك لا يكف عن المحاولة.

ذات مرة، بعد الغداء مباشرة وبعد ذلك السؤال اللئيم من زيد عن موعد سفره، وربما عرف أن السفارة الأميركية رفضت منحه السمة، بدأ يحاول الاتصال. بعد عدة محاولات رن التلفون في الجهة الأخرى. امتلأ

فرحاً. نسي كل تعبه السابق، وقدر أن الوقت مهما كان متأخراً لا بد أن يجري حديثاً هادئاً وحاسماً.

للحظة سمع صوتاً في الجهة الأخرى. قدر أنه صوت غزوان. كان الصوت بين النوم والغضب. قال بضع كلمات بالانكليزية، وخبط سماعة التلفون.

لم يصدق. لا يمكن أن يحصل هذا، لا بد أن يكون خطأ من نوع ما، فغزوان شديد الأدب ولا يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة!

ولم يستطع أن يهدأ إلا بعدما أقنع نفسه أن الصوت الذي سمعه لشخص آخر، غير غزوان، ولا بد أن يكون قد أيقظ ذلك الشخص من النوم في هذه الساعة المتأخرة من الليل. ولم ينم في تلك الليلة إلا بعد أن ابتلع حبة ڤاليوم.

وزيد لا يتركه، لا يسهو عنه يوماً واحداً، فإذا لم يطلب منه تلك الطلبات «المتعلقة بالمعيشة» كما يسميها، والخاصة بالمعاملات والاتصالات والأوراق، فلا بد أن يسأله، وبطريقة ساخرة، عن مطيع أو سمير أو غزوان. فإذا تجنب هؤلاء، يسأله عن الأخبار. وهو بأسئلته، والتي ترافقها الابتسامات، يعرّض به، يتهمه. وتكون إجابات الحكيم سريعة مختصرة، حادة، فيهز زيد رأسه دلالة الفهم والاقتناع، لكنه وهو يفعل ذلك، يثير الحكيم أكثر من قبل!

لو اقتصر الأمر على هذه الواجبات والأسئلة لاحتمل الحكيم، لكن نزلاء الفندق أصبحوا هماً مستمرّا، فهم لا يفعلون شيئاً سوى العراك، وعلى مرأى من الناس. كما لا يتردد عدد منهم في شرب الخمر علناً، وما يستتبع ذلك من تعديات على الآخرين، أو النوم في ممرات الفندق، رغم تدخل الشرطة والعقوبات التي توقع على الكثيرين في ساحة القصر.

الأيام التي خلت من المعارك لم تخل من الأخبار. فإذا خلت من الاثنين معاً، فلا بد أن تمتلئ بالأمطار والأحزان والانتظار.

كل شيء في القصر ثقيل خانق، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى

الصمت، ودفعهم لأن يأووا إلى فراشهم مبكرين. وفي وقت لاحق دفعهم إلى العزلة، لأن كل كلمة تسبب اختلافاً، وأية نظرة تولد شقاقاً وسوء فهم.

وليالي بادن بادن ليست مثل أية ليالٍ غيرها، فهنا الصمت قوي فضّاح، والظلمة لها بريق يُغشي البصر، فإذا امتلأت بالرعود والأمطار، فعندئذٍ يحس الإنسان أنه محاصر بآلاف الأعداء، وعندها يغادره النوم، وتستيقظ فيه المخاوف، فلا يعرف هل يبقى حيث هو أم يهرب إلى أي مكان آخر لعل فيه تكون النجاة.

الحكيم يمتلىء تصميماً، مطلع كل نهار، أن يكون أكثر حكمة وأكثر صبراً، وأن يستفيد من وقته كله، لكن مع ارتفاع الشمس وتقدم النهار لا بد أن تقع عشرات المنغصات التي تجعله ينسى. فإذا لم يأت هانس أورلخت، فلا بد أن يتصل تلفونياً. وبوجوده، أو باتصاله، تنبع المشاكل الصغيرة: كتابة مذكرات لوزارة الداخلية من أجل تمديد إقامة الحرس والمرافقين؛ مذكرات للمشافي، تأمين المؤونة والأسفار، إضافة إلى رسائل المصارف والتحويلات. ان هذه الأعباء تقع على كاهله في الغالب، لأنه الوحيد الذي يحسن الألمانية، بعد أن سُحب أغلب المترجمين، واضطر من بقي منهم إلى ملازمة نزلاء الفندق.

إذا انتهت هذه المشاكل، وغالباً ما يتخللها الكثير من الاختلاف والتصحيح وإعادة الكتابة، وزيد دائماً المتسبب بهذه «المنغصات» كما يسميها الحكيم، فلا بد أن تكون الأخبار الواصلة من موران، أو التي لم تصل، سبباً لمزيد من المشاحنات والاختلافات، خاصة حين يدعو السلطان إلى اجتماع من أجل التشاور. فغالباً ما يتسمم الجو بسرعة في هذه الاجتماعات، لأن كل كلمة، ونظرة، وحتى الابتسامة الصغيرة، تفهم على أنها تحدٍّ أو تعريض، وكل تصرف يمكن أن يفسر تبعاً للعلاقة، وعمن يصدر.

من أكثر الشخصيات التي تثير استغراب الحكيم وتساؤله: الأمير مجحم. إذ رغم السنوات الطويلة التي قضاها في موران، وتعرّف خلالها على كل شيء، ولم يبق أحد، تقريباً، إلا وعرفه أو عرف عنه شيئاً، فإن الأمير مجحم ظل بالنسبة إليه محيراً، فهو بالإضافة إلى غموضه، مرهوب ومحبوب من جميع الأخوة، وان كان مختلفاً عنهم. وهو قدر ما كان موجوداً كان غائباً، لأن الفترات التي يقضيها في البادية، ومن أجل القنص، أطول من الفترات التي يقضيها في أي مكان آخر.

التقى به الحكيم مرات قليلة، أو على التحديد لا تتجاوز الثلاث عدّاً، ولا تتجاوز الساعة الواحدة في مجموعها. أول مرة جاء الأمير لإلقاء نظرة على الحصان الذي قدمه الحكيم للسلطان في عيد الجلوس. المرة الثانية التقى به في البادية، ولم يعرفه أو لم يميزه من رجاله لأول وهلة، كما لم يطل الأمير وقوفه لأنه كان مشغولاً بصقوره، وبرغبة متابعة القنص.

المرة الثالثة كانت في حضرة السلطان، وكانت أطول المرات. ففي إحدى زيارات الأمير إلى موران، جاء للسلام على أخيه السلطان، وكان الحكيم موجوداً، وقد انقضى الوقت في الحديث عن الرحيبة. كان الآخرون يتحدثون وكان يستمع. لم يتكلم الأمير ولم يعلق. وما لفت نظر الحكيم الضحكة العالية المجلجلة التي كانت تميز الأمير، حتى ليظن من لا يعرفه أنه لا يحسن الكلام، أو يكتفي بيده وعينيه وسيلة للتعبير.

ولأن الأمير مجحم كثير الغياب، ويختلف عن الأخوة الآخرين، فلم يرد ذكره إلا نادراً، أو حين يجري الحديث عن الصيد.

والآن، بعد مكالمة هاتفية مضطربة وسريعة من السفارة في بون، انتشر خبر وصول شخصية كبيرة من موران، وان هذه الشخصية ستصل لمقابلة السلطان بين لحظة وأخرى.

قال الحكيم، ولم يستطع أن يخفي اضطرابه:

ـ الزائر الذي سيصل هو الأمير فنر... بكل تأكيد.

رد زيد، وهو يتطلع إلى السلطان:

ـ الأخير أن ننتظر ونشوف، يا طويل العمر.

ـ طويل العمر لا يتباحث إلا مع أهل الحل والعقد، ويجب أن يعرفوا ذلك.

هكذا قال الحكيم، في محاولة لأن يضغط على السلطان. رد زيد بحنق:

ـ وكل الله يا أبو غزوان، والأمر أمر جلالته.

قال السلطان بحزن:

ـ خلنا أول مرة نشوف الرسول، وبعدها الله كريم.

وفكر الحكيم أن توضع مذكرة تتضمن شروط صاحب الجلالة، لكن جو الصمت الذي خيم، الذي كان أقرب إلى الحزن والهم، جعله يصرف النظر. ومع ذلك بدأ يرتب الأمور في ذهنه، وكان مستعداً لأن يهمس في أذن جلالته بهذه الشروط أثناء المباحثات!

كان الزائر الأمير مجحم، وصل والسفير. وخلال الدقائق القليلة التي استغرقها الاستقبال والسلام، تحرك الحكيم كثيراً، وبدا في حالة من التفاؤل أقرب إلى التألق، خاصة وأن طريقة سلام الأمير كانت حارة، وأيضاً شديدة الود، أقرب إلى الاعتذار. للحظات بدا السلطان شخصاً آخر، إذ عاد لعينيه البريق وابتسم ابتسامات واسعة، انعكست بالرضا على وجوه الجميع، بمن فيهم السفير الذي كان شديد الحرج خلال اللحظات الأولى.

بعد ذلك، وبطريقة أقرب إلى التآمر، انسحب السلطان وأخوه إلى غرفة مجاورة، وظلا وحدهما ساعات عديدة.

كانت صدمة كبيرة للحكيم، فهو الآن أكثر من مجرد مستشار لجلالته، كما كان الضحية الأولى للمؤامرة، لذلك لا يمكن ولا يوافق أن يكون بعيداً، أو أن يعود كنتيجة لاتفاق الأخوة. يجب أن يعتذروا له، وأن يكون ذلك علناً، ويجب أن يُردّ اعتباره، بعزل الذين تسببوا بهذه الإساءة ومحاكمتهم. أما أن تنتهي الخلافات والاساءات ببوس اللحى وعفا الله عما مضى، فلن يوافق. أكثر من ذلك قد يضطر إلى عدم العودة نهائياً إلى موران.

بعد أن فكر ملياً بالأمر، قدر أن ما يجري بين الأخوين هو العتاب، وأنهما يفضلان أن يكون بينهما وحدهما، والعادة أن يجري على انفراد، ولذلك سيتغاضى عن الأمر، ولن يتوقف عنده طويلاً.

انشغل مع السفير بأحاديث جانبية عن الطقس والأمور العامة، وتعمّد أن لا يسأله عن موضوع سمة الدخول إلى الولايات المتحدة، لكي لا يلفت نظره، ويثير شكوكه. عندما حُمل العشاء إلى غرفة السلطان، أحس الحكيم بالإهانة، إذ يمكن أن يفهم بعض المواقف المحرجة ويتسامح فيها، وقد تطول خلوة العتاب، أما أن لا يُحسّ بوجوده، أن يعامل كالآخرين، وما عليه سوى الانتظار، فأكثر مما يحتمل. وحين انسحب السفير إلى فندقه، ومعه بعض مرافقي الأمير، بدا واضحاً أن المباحثات الجدية سترجأ إلى الغد، ولذلك لم يتردد في أن ينسحب إلى جناحه!

وحتى ساعة متأخرة ظل يسمع تحت شباك غرفته جلبة، كان يتميز فيها صوت زيد وهو يعطي أوامره أو يطلب نقل بعض الأمتعة. وقدر، دون أن يكون متأكداً، أن الأمير مجحم تمشى في الحديقة قبل أن يأوي إلى فراشه.

في اليوم التالي تعمد الحكيم النزول مبكراً إلى الحديقة، كان متأكداً أن السلطان سيصطحب ضيفه وبزهو واضح، ليطلعه على الزهور والرياحين، وليجعله يقارن، ضمناً، بين موران وبادن بادن. فإذا كان

موجوداً، فلا بدّ أن يتقدما نحوه، وفي ذلك معنى من معاني الاعتذار، ثم ستجري الأحاديث على رسلها، وسوف يثبت للأمير مقدرته وكفاءاته حين ينتقل من موضوع إلى آخر، وبعدها يواصلان اجتماعاتهم، وسوف يكون هو الأول والأخير في صياغة الأفكار والاقتراحات!

ومثلما اجتمع الاخوان أول مرة واصلا اجتماعهما في صباح اليوم التالي، فلم يحضر أحد معهما. وربما قدّر السفير ذلك فتأخر في الوصول إلى القصر ومعه مرافقو الأمير. أما حفلة الغداء التي أقامها السلطان فقد حضرها معظم الأشخاص، الأمر الذي لم يشعر الحكيم بأية ميزة أن يكون موجوداً، ولم يحرضه على المشاركة بأي حديث، خاصة نتيجة التجهّم أو الانشغال الذي بدا على السلطان وأخيه.

خلال فترة بعض الظهر خرج السلطان وأخوه في جولة حول المدينة، وقد رافقهما زيد بنفس السيارة، وفضل الحكيم البقاء في القصر، ليعطي لنفسه تميزاً يجعله مختلفاً عن الآخرين، ولكي يشعرهم، أكثر من قبل، أنهم بدونه لا يستطيعون شيئاً، إذ لا بد أن يحتاجوا بشكل أو بآخر إلى معلوماته أو إلى لغته، وسوف يتساءلون!

كل ذلك غير مهم إزاء ما حصل بعده، إذ ما كاد الموكب يعود، وربما نتيجة اتفاق تم خلال الجولة، حتى بدأ اجتماع حضره معهما اثنان من مرافقي الأمير، وحضره السفير وزيد الهريدي. وقد تم بتعمد تجاهل أو نسيان الحكيم فلم يدع للاجتماع، وظل هو يتمشى في الحديقة الخلفية، وقد لمحه الكثيرون، لكن زيادة في الترفع، تظاهر بمراقبة الحديقة، وأنه لم يلحظ أو يفطن لعودتهم.

انتظر لعدة دقائق، إذ ربما وقع سهو أو انشغلوا ببعض الأمور الطارئة. تقدم إلى الحديقة الأمامية، إذ يحتمل أن يكونوا بحثوا عنه ولم يجدوه. صرخ على أحد الحرس، خلافاً لعادته، وكان تحت شباك الغرفة التي اجتمعوا فيها، وسأل إن عاد السلطان، فلما أكد له عودة جلالته، سأله من جديد إن كان متأكداً أم لا.

كان يتوقع في كل لحظة أن تنفتح الأبواب ويهرع أكثر من واحد معتذراً وطالباً إليه أن يسرع في المجيء، لأن الجميع بانتظاره، لكن الدقائق تمر ثقيلة معادية إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل. هل نسوه؟ هل تعمدوا نسيانه؟ الا يريدون أن يكون بينهم؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يوافق السلطان؟ هل هو شرط الأمير أم شرط موران؟ وهو... هل يلبد كقط ويسكت منتظراً اللحظة التي ينادى فيها عليه أم يثور ويقلب الأشياء فوق رؤوسهم؟ وإذا لم يكن منذ البداية، وبكل ثقله، صانعاً وشاهداً، هل يقبل أن يؤتى به، في اللحظات الأخيرة فقط، استكمالاً للشكليات؟

كل ما مر عليه من مصاعب وإهانات لا تعادل لحظة من لحظات الانتظار هذه. مرت عليه مصاعب كثيرة، وواجه لحظات قاسية، لكنه كان يقاوم، كان يحتمل. الآن يشعر أنه مهزوم، مهزوم وذليل. لا أحد إلى جانبه، لا أحد يريده. الجميع يهربون منه وينكرونه. وهؤلاء الناس ليسوا أعداءه، انهم الأصدقاء، أو هكذا كان يفترض.

كيف يتصرف إزاء الذين منحهم أحسن أيام حياته وأعز ما عنده؟ لم يكتف بأن يحبهم ويخدمهم، أعطاهم جزءاً من لحمه الحيّ، أعطاهم ابنته الوحيدة، وها هم الآن يتخلون عنه، لا يعترفون به، بل ولا يحسون بوجوده!

دارت به الدنيا، غامت ثم اسودت، اضطربت ثم عصفت، أصبح صغيراً مسحوقاً، ذرة رمل في ريح، شيئاً لا وزن له ولا قيمة. أحس أنه وحيد تماماً ومتروك. ماذا يفعل... هل يبقى منتظراً كالمتسول لا يفعل شيئاً سوى انتظار حسناتهم وعطفهم؟ وإلى متى يبقى هكذا؟ وكيف سينظرون إليه بعد أن تنتهي الاجتماعات ويتفقون وضحكاتهم تملأ وجوههم؟ هل سيقولون له؟ ولماذا؟ ومن هو؟

فكر أن يمرّ على سلمى في جناحها، أن يقضي معها فترة من الزمن، أن يسألها عن حياتها أو عن سعادتها، لكن لم يجد في نفسه القوة أو

الرغبة. بالتأكيد ستصمت، أو ربما سألته عن السلطان، ماذا.. أيقول لها أنه لم يدع إلى الاجتماع وأنه لا يعرف شيئاً؟ أيكذب ويدعي أنه لم يحضر الاجتماع لانحراف صحته؟

دون تردد، بل بطريقة أقرب إلى الحزم، توجه إلى جناحه.

أية ليلة كانت تلك الليلة من حزيران؟ أية أحزان وأية أفكار مرت في تلك الليلة؟ شعر بالاختناق إلى درجة المرض، وشعر بالقهر إلى درجة الألم.

حتى لو أراد أن يستعيد ويتذكر فإنه لا يستطيع. يتذكر أنه بكى مثل طفل، ويتذكر أنه ضرب رأسه بالجدار، ويتذكر أنه دفن وجهه في الفراش، لكن ما حصل أكثر من ذلك وأكبر، لأنه في اليوم التالي وهو يتذكر اختلطت الوقائع إلى درجة لا يعرف أي شيء حصل قبل الآخر.

فغزوان وهو يرد عليه، أكد له، بطريقة معينة، أنه سيبذل جهده لكي يجيء أو أن يؤمن له سمة الدخول في أقرب وقت ممكن.

ووداد، وهي ترد عليه، أقسمت أنها حزمت حقائبها وستعود، سواء عاد معها غزوان أو لم يعد.

وسلمى جاءته، لا يتذكر إن جاءت قبل المكالمة الهاتفية أو بعد ذلك، لكن بدت له حزينة إلى درجة لا تصدق، ويتذكر أنه بكى وإياها. كانا يبكيان كطفلين، وضعت رأسها على كتفه وظلت تبكي وتنشج فترة طويلة من الزمن. عادت تبكي مثلما كانت تفعل قبل فترة طويلة، كانت تريد أن تبقى معه، أن لا يتركها، وظلت تبكي حتى بعد أو أوصلها إلى غرفتها. ويتذكر أنه كان يسمع الضحكات والتعليقات في الحديقة الخلفية. ويتذكر أنه شم رائحة الشواء. كان الدخان يعلو حتى يصل إلى غرفته، مما اضطره إلى فتح النافذة الثانية، لكي يبدّد الهواء الرائحة الخانقة، رائحة الدهن المحترق.

أما وهو يستمع إلى ضحكات زيد الهريدي وأوامره فقد كان يحس أن سكيناً تنغرز في خاصرته. كان زيد يفعل ذلك بلذة وسادية، وبتعمد فجّ.

كاد أن ينزل إلى الحديقة، أن يمسك زيداً من كتفه ويصرخ في وجهه: «أنا أكبر من هذه الأشياء الصغيرة يا زيد، ولا تلعب معي هذه اللعبة!» وفكر أن يلبس ثيابه ويقابل السلطان: «يا أبو مشعل: أنا رجل صاحب مبادئ ولي رؤيا فيما يجب أن تكون عليه الأوضاع، ولقد جئت بهذا الدافع ولهذا الهدف، حاولت، لكن الظروف لم تكن مواتية، وها أنذا أتركك، لكن ليس كما تركك الآخرون، ليس عن جبن أو رغبة في الأحسن، وإنما لأن الزمن لم يساعدنا، أو بالأحرى لأن القضايا لم تتوافق ضمن التصور الذي افترضته، ولذلك فإني أعلن فشلي وأعلن خيبتي، وسوف أتفرغ من جديد إلى الكتابة»، وأيضاً لا بد أن يوجه كلمة واضحة إلى الأمير مجحم، «وأنت، يا صاحب السمو، يجب أن تعرف بوضوح من هو صبحي المحملجي، وأية أفكار دفعته إلى موران. لا يهم ماذا تفكرون أو كيف تنظرون إليّ، المهم أن تفهموا بوضوح أي إنسان كنت، وماذا أردت أن تكون موران. ولا يعنيني بعد ذلك أن تبقوا ضمن قناعاتكم وأفكاركم، أو أن تفهموا الحقيقة».

لا يعرف كيف نام أو متى، ولا يعرف من جاءه أو ماذا قال له. يتذكر آخر كلمة سمعها من وداد. قالت له وهي تحاول أن تضحك وتعطي ضحكتها نوعاً من الفرح:

ـ يا أبو غزوان أنا معك، ولو كنت قريب كان عرفت، لكن لازم تطول بالك.

وحاول أن ينام، ابتلع حبتين من الڤاليوم، ولم يكن الفارق بين الحبة والأخرى أكثر من نصف ساعة، وهذا ما يفعله أول مرة في حياته.

وعندما نام حلم أنه يتعارك مع غزوان. ويتذكر أنه طلب من وداد عدم التدخل، وأنه قال للسلطان أنه سيسافر. ويتذكر أنه قبّل سلمى، وقال لها: يجب أن تصبري يا حبيبتي، لأنه لا بد لنا أن ننتهي من هذه المحنة.

أسبوع وحالته تراوح بين الانهيار الكامل، نتيجة الحمى والبرودة اللتين تتناوبان عليه كل ساعة، وفترات الصحو القصيرة التي تفصل نوبة عن أخرى.

لا يعرف متى رحل الأمير ومرافقوه، ولا يتذكر أنه رأى وجوهاً يعرفها. صحيح أن الأطياف كانت تحوم حوله، وكان يسمع أصواتاً تخاطبه، لكنه لم يستطع أن يميز شيئاً أو أحداً. حتى في لحظات الصحو القصيرة، حين يفتح عينيه، وينظر حوله، كان أقرب إلى الاعياء والتلاشي، فلا يقوى على التقاط الصور والكلمات، إذ سرعان ما تتبدد وتذوب، ويغرق في الحمى من جديد.

عندما بدأ يستعيد وعيه وشيئاً من قوته لم ير سوى سلمى إلى جانبه. كانت تتحرك بخوف واضطراب، وكانت عيناها حمراوين، تحيط بهما هالات زرق، وللحظات بدت له امرأة أخرى: أكبر سناً وأكثر شحوباً، وكأنها لم تعرف طعم النوم لعدة ليالٍ متوالية.

أخفت عنه دموعها وهي تحدثه. قالت ان أمها وغزوان اتصلا عدة مرات، وأن الطبيب الذي عالجه أكد أنها حالة عابرة سوف تزول بسرعة، وهي من نتائج ملاريا قديمة.

كان يستمع بصمت. يجيل نظراته في الغرفة. ينظر إلى الطاولة الصغيرة بجانب سريره وقد امتلأت بالأدوية. يحاول أن يتذكر كيف حصلت الأمور، أو كم مر عليه وهو مريض، فلا يصل إلى نتيجة. تختلط الوقائع وتفقد ترابطها وتسلسلها، ولا يجد في نفسه الرغبة لأن يسأل، أو لأن يعيد ترتيب الوقائع.

في الأيام اللاحقة زاره السلطان وزيد. زاراه أول مرة معاً، ثم بدأ كل منهما يزوره بمفرده. وبدأت الزيارات أيضاً تتباعد. زاره هانس أورلخت، وأكد له أن الطبيب مطمئن، وتأكد من تشخيصه للحالة باعتبارها ملاريا مزمنة. كان الحكيم لا يفعل شيئاً للرد على الاستفسارات والنظرات إلا محاولة ابتسامة، وغالباً لا يطاوعه فكاه، فيكتفي بهزات رأسه شاكراً وموافقاً.

ولأن لديه وقتاً طويلاً، ولكي لا يشغل نفسه «بالأفكار السوداء»، كما سمى ذكرياته حول حياته الماضية، أخذ يشغل نفسه بمراقبة الحمام أو انتظار أصوات البلابل. كانت هذه المخلوقات الصغيرة الرائعة تملأ حديقة القصر.

ولأول مرة في حياته يكتشف أنه ينتظر أشياء يحبها، وان هذه الأشياء دائماً تلبيه ولا تخيب أمله.

فما يكاد بلبل في جانب من الحديقة يصدح حتى يجيب آخر، بعد لحظات، من الجانب الثاني. كانت هذه الطيور تتبارى في التغريد والإطالة، وكان هو ينتظرها بكثير من اللهفة والشوق. أصبحت تملأ ساعاته الطويلة، وأصبح ينتظرها. وبالغ فتصور أنه يعرفها واحداً واحداً، واسف لأنه لم يحب الحيوانات طوال حياته. أما البشر الذين أحبهم، الذين مدّ لهم يد المساعدة، فلم يبادلوه الحب، بل أكثر من ذلك تخلوا عنه وأساءوا إليه عندما واتتهم الفرصة!

حتى الحصان الذي أهداه للسلطان قبل سنين كان مجرد مقدار من المال، أكثر مما كان شيئاً يحبه ويعتز به. وتذكر بدري المدلل وعصافيره، وكيف غضب وسخر عندما انشغل بها قصر الغدير، وندم أنه قال كلمات قاسية لمحمد عيد.

الآن، خلال الساعات الطويلة، وهو مستلق على سريره، لا يفعل شيئاً سوى تحريك رأسه في هذا الاتجاه أو ذاك، انتظاراً لرؤية زوج من الحمام، أو لسماع صوت بلبل، ثم الرد على الصوت الأول.

عملية فاتنة تعطي للحياة معنى، وللانتظار قيمة، بل أكثر من ذلك تعطي للوقت جدوى، إذ لولا الانتظار الممض الممتع للصوت الذي يحبه لما احتمل الدقائق التي يزوره خلالها زيد. كانت دقائق ثقيلة كثيفة، تشبه الرصاص المصهور، أو حالة الغرق، لا يقوى على احتمالها ولا يعرف إلى متى تستمر. حتى الوقت الذي يقضيه السلطان إلى جانبه كان أقرب إلى المجاملة الساخرة، إذ لا يجدان ما يقوله الواحد منهما للآخر. فما عدا السؤال عن الصحة، ويكون الرد عليه همهمة أو هزة رأس، فإن الصمت يغرق الرجلين.

وسلمى... تلك العصفورة الصغيرة الوحيدة الحائرة، والضعيفة أيضاً، لشد ما تغيرت خلال هذه الفترة. كانت، في فترة سابقة، تملأ حياته بزقزقاتها وأناشيدها. كانت تعرف كيف تتسلل إلى قلبه، ومتى تتشبث برقبته. الآن، وهي تدور حوله، وهي تحمل صينية الطعام أو كوب العصير، حزينة، مملوءة بالخوف. فإذا تبادل معها بعض الكلمات ترتبك، وكأنها لا تفهم ما يقوله، أو تخشى من الخطأ. حالة من الشعور العميق بالاثم، واللحظة اللاحقة لحظة العقاب.

قال لنفسه، وقد تعجب من الفكرة التي خطرت له: «ربما لم يطل نهار الصيف بهذا القدر إلا ليمنح الطيور فرصة أطول للتمتع بالحياة». واستهوته الفكرة، وبدأ يفكر فيها: «الطيور، وكل الحيوانات، تعبد النور، تستحم فيه، تلاحقه من مكان إلى آخر؛ وفي النور تأكل، تطير، تمارس الحب، وتتفلى في ضوئه. فإذا جاء الظلام، أو جاءت الأيام الشتائية القصيرة، خلدت إلى الراحة أو بدأت هجراتها. أما الإنسان فإنه يفعل العكس: ينتظر الظلمة لكي يمارس ما يعتبره جميلاً ولذيذاً، وفي الظلمة أيضاً تتم المؤامرات، وتتغير الدول، وتحضّر الاغتيالات والفتن، بحيث لا يبقى للنهار إلا تلك الأقنعة التي يضعها الناس لكي يخفوا وجوههم وقناعاتهم، والعواطف التي تملأ قلوبهم».

ويسمع صوت البلبل فيمتلئ فرحاً، صوت لا يصدر من حنجرة، ولا

يقوله اللسان، أنه يقال بكل الجسد، بالخلايا ورعشات الدم وصهيل الريش، فيمتلئ الهواء بذلك الفرح اللذيذ الذي ينتقل إلى حبات التراب وأوراق الشجر ورائحة الورد، فيبدو جليلاً كثيفاً، وكأنه يصدر من الطبيعة كلها، وليس فقط من هذه اللهاة لذلك الطير الصغير.

ما كادت بضعة أيام أخرى تمضي حتى أصبح الحكيم قادراً على النهوض من الفراش والتمشي في الغرفة. قال لنفسه، في اليوم الأول، بعد أن أحس بالإعياء: «جسد الإنسان شديد العطب، يحتاج إلى سنين لكي يُبنى، ولا يتطلب أكثر من أيام لكي ينهار».

في الأيام التالية أصبح يقضي وقتاً إلى جانب النافذة، وخلال ذلك الوقت، وبالإضافة إلى متابعة «نشيد الحياة» كما أصبح يطلق على تغريد البلابل، أخذ يفتّ على الحافة البارزة للنافذة قطع الخبز، لعله يغري الطيور بزيارته، ولم يخب أمله، ولم تتأخر عليه في الزيارة! كان الحمام يملأ الحافة ويتدافع فوقها. أصبحت هذه تسلية جديدة: أن يراقب الطيور، أن يتابعها. ود في أعماقه لو أنه لم يبدّد حياته في ذلك الركض من مكان إلى آخر، إلى أن انتهى في تلك الظهيرة البائسة وبذلك الشكل المذل. لو أنه صرف حياته، عوضاً عن الركض البائس من مكان إلى آخر، إلى مراقبة الطيور، والعناية بها، لكان ذلك أجدى له وأنفع. لكن كل شيء يبدو الآن متأخراً، ودون جدوى. قال لنفسه، وهو يرتفع قليلاً في الفراش: لكي يرقب زوجاً من الحمام، وكان متأكداً أنهما ذكر وأنثى، وكانا، من خلال الركض والمداعبة، يستعدان لفعل شيء ما، وفي الهواء الطلق، تحت أشعة الشمس: «أكبر أحمق في هذا الكون هو الإنسان، وأنا أكبر الحمقى في البشرية، لأني لم أفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب». أما عندما رأى الذكر يعتلي الأنثى، ويمسك مؤخرة رأسها بمنقاره، ويتمرجح بتلك الطريقة اللذيذة الأخاذة، فقد أحس بالنشوة والألم، وحينما نفضا جسديهما وطارا، هبط الحكيم في سريره شيئاً فشيئاً، وقد سيطر عليه الألم وحده!

هكذا كان يقضي أيام النقاهة، ولم يكن مستعجلاً انتهاءها. بل كان على يقين أن وداد وغزوان سيأتيان قبل أن تنتهي. وعلى الرغم من تصميمه أن لا يسمم دمه في تذكر الأشياء التي حصلت، فقد كان عازماً على أن لا يفكر بالمستقبل أيضاً «ليتحملوا مسؤولياتهم، وليقرر كل إنسان ما يعتبره أكثر ملاءمة له» هكذا يقول ليقنع نفسه، فإذا تذكر السلطان بالذات، أو سمع جلبة تبديل الحرس، مع صوت زيد الهريدي الآمر، فكان يقول: «لينتزعوا أشواكهم بأصابعهم، ولنرقب لنعرف النتائج».

سلمى، بين يوم وآخر، تبلغه أن أمها وغزوان اتصلا، وأنهما يسألان عنه ويسلمان عليه، ولا تضيف شيئاً. وفي المقابل يسمع ولا يرد، كما لا يسأل. يهز رأسه وينتظر، مع ابتسامة صغيرة تشي بالحزن، لكن إزاء حزنها وحيرتها لا يستطيع أن يواصل حزنه أو أن يعبر عنه.

في أوائل تموز، وقد تماثل للشفاء، إذ نزل إلى الحديقة عدة مرات، وأخذ يتمشى فيها خلال الأوقات التي يقدر أن الآخرين في غرفهم، أو غائبون أو مشغولون بأمورهم الخاصة، في هذا الوقت، وبشكل مفاجئ، وصل خمسة من أبناء السلطان خزعل، ووصلت عدلة أيضاً، إضافة إلى عدد من الرجال والنسوة. ومثلما فوجئ بوصولهم، فوجئت سلمى أيضاً، وقد أجريت عدة تبدلات في القصر، من أجل استقبال الضيوف، ولم يعرف ما إذا كان هؤلاء جاءوا بزيارة قصيرة، أو جاءوا ليبقوا.

قال الحكيم ليهدئ من مخاوف سلمى:

ـ زيارة كم يوم، مثل زيارة الأمير.

وحين قلبت شفتها دلالة عدم المعرفة، قال بنبرة جديدة:

ـ وأمك، الله يصلحها، راحت وغابت، ولا كأن ورانا ألف مشكلة.

ومثلما تغير القصر بزيارة الأمير مجحم فقد تغير هذه المرة أيضاً. ومثلما قضى السلطان خلوات طويلة مع أخيه، فقد فعل أيضاً مع أولاده. وإذا كان الحكيم توقع دوراً في الزيارة السابقة، وانتظر، ثم سقط مريضاً، فإن سلمى لازمت غرفتها لا تغادرها، ولا تعرف هل تفرح أم تغضب أم

تبكي. كانت أقرب إلى الارتباك والحزن، وإن شعرت بالراحة لأن أحداً لم ينشغل بها ولم يسأل عنها!

بعد ليلة طويلة لم ينم الحكيم خلالها إلا كما ينام الذئب، وقرر أن يتعافى بسرعة، لأن عليه مسؤولية «الطفلة» كما أصبح يسمي سلمى بينه وبين نفسه، قرر أنه يستدعي وداداً. قال لنفسه بحزم: «يجب أن تأتي، جاء غزوان أو لم يجئ، لأنها وحدها التي تستطيع أن تقف إلى جانب الطفلة وتساعدها وتحميها».

ومع أضواء الفجر بدأ يحاول الاتصال. بعد عدة محاولات، لم ينقصها الإصرار والمثابرة، تحدث إلى غزوان. فوجئ غزوان بصوته، أو هكذا قدر الحكيم. وبعد لحظة المفاجأة، حاول أن يعبر عن فرحه واعتذاره في آن واحد، فرحه بشفائه، واعتذاره أنه فضّل الحديث مع سلمى، إذ أبلغتهم أن ذلك أنسب. والحكيم الذي بدا متماسكاً، وتقبل الاعتذار، كان مشغولاً بأمر آخر: بعودة وداد. في لحظة مناسبة طلب أن يكلمها.

كانت وداد، على الطرف الآخر، شديدة اللهفة. أكدت أنها مرضت بمجرد سماعها بمرضه. وقالت ان قلبها عنده في الليل والنهار. وسألت باهتمام ما إذا شفي تماماً أو يشكو من شيء. وأكدت أنها كانت قلقة، وقد عافت الأكل والنوم، إلى أن طمأنتها سلمى، وأقسمت لها «أن البابا بألف خير»!

استمع إليها ومشاعره بين الحزن والفرح. حزن لأنه كان في هذا الوضع، وفرح لأن في الدنيا ما يزال من يسأل عنه ويقلق لمرضه. تمنى لو كانت إلى جانبه أثناء المرض، لو أنها موجودة لشفي في وقت أقصر. وتذكر كيف ظل يردد على مسامعها، حين تتعرض لتلك الحالات المرضية في موران، أن الصحة والمرض يتعلقان بالإرادة أكثر مما يتعلقان بالجسد.

ما كادت تنتهي حتى قال لها بطريقة أقرب إلى الهمس:

ـ لازم ترجعي بسرعة يا وداد، لأن رجعتك ضرورية، فهمانة؟

سألت باضطراب:

ـ خير إنشاء الله؟ في شي؟

وبعد قليل، وبنفس الاضطراب:

ـ أنت.. بعدك مرضان؟ في حدا مريض؟

ـ لا يا وداد، الصحة ماشي الحال، لكن في أشياء ثانية.

ـ خير؟ خير إنشاء الله؟

ـ الله يجعلك بخير، بس تصلي بنحكي.

ـ خبرني يا أبو غزوان، شوشت بالي.

قال بنفاد صبر:

ـ المهم وجودك، يا وداد، لازم تجي بسرعة.

ردت في محاولة لئلا تلتزم بشيء:

ـ احكِ مع غزوان يا أبو غزوان.

كان غزوان واضحاً وحازماً:

ـ أنا مقدر ظروفك، يا بابا، وكانت رغبتي أن تكون معنا حتى نحكي، وإذا كان هذا الشي ما حصل حتى الآن، إنشاء الله يحصل في أقرب وقت.

توقف لحظة، ربما نظر إلى أمه أو تشاور معها. هكذا قدر الحكيم، ثم تابع:

ـ أنا يا بابا مسافر بعد بكرة إلى موران. عندي هناك أشغال ضرورية، والحكومة طلبت مجيئي بسرعة للتشاور، وأنت تعرف القضايا اللي ارتبطنا بها، ولازم ننفذها، وهذا امتحان لي وللشركة، ولازم ننجح.

وضحك بطريقة معينة وأضاف، وبدا صوته مختلفاً:

ـ وسمحت لنفسي، يا بابا، أن أتخذ قراراً نيابة عنك: سترافقني الوالدة إلى موران، لأنك تعرف أن غيبتنا كلنا، ولفترة طويلة، مضرة، ويمكن أن تُفسّر وتستغل، فلازم نشوف كيف نرتب أمورنا هناك.

ورغم أنه تحدث مع وداد مرة أخرى، وأشار إلى وصول عدلة، ولا

يعرف ما إذا جاءت بزيارة أو للإقامة، وبالتالي من الضروري مجيئها، ويمكن أن تؤجل زيارة موران إلى وقت آخر، فقد أكدت أن ذهابها إلى موران ضروري «لأن غزوان من رأيه أن أروح معه، وهو مو كل يوم رايح» وسوف لن تتأخر. وتركت لغزوان أن يحاول إقناعه، أو التغلب على ممانعته.

قال له غزوان بمرح:

ـ الأحسن، للكل، أن تسافر الوالدة معي يا بابا، خاصة وأني سأقابل السلطان فنر، ويمكن أن نحكي بموضوعك وننهيه.

اختلطت مشاعر الحكيم واضطربت. لأول مرة يسمع اسم فنر مسبوقاً بلقب السلطان، ولأل مرة يبدو صغيراً بنظر نفسه. قال لغزوان بحدة:

ـ اسمع يا غزوان: إذا رحت لموران فاترك موضوعي، لا تبحثه مع أحد، لأني قادر بنفسي على معالجته.

ضحك غزوان في محاولة لأن يطوق غضب أبيه، ثم تابع:

ـ بسيطة يا بابا، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير.

أصيب الحكيم بالانهاك، ووجد أنه عاجز عن الاستمرار في المناقشة. ولما لم يجد شيئاً يقوله، فقد رد بحزن:

ـ طيب.. طيب يا غزوان.

ولكي لا يترك غزوان لأبيه فجوة، فقد قال بلهجة مرحة:

ـ راح ابعث لك يا بابا مساعدي ومعه رسالة، وراح تفهم منه كل شيء.

طلب الحكيم أن يكلم وداد من جديد.

ـ وإذا سافرت متى راح ترجعي؟

ـ ما راح أطول يا أبو غزوان.

ضحكت بطريقتها، وسألته:

ـ توصيني على شيء، يا أبو غزوان؟

ـ أبداً.. أبداً، يا وداد، بس ديري بالك على حالك ولا تطولي!

وصول الأميرة عدلة، زوجة السلطان، وعدد من أولاده، إلى بادن بادن غيّر الكثير.

الأيام الأولى لهفة وشوق، وشكر لله أن الجميع ما زالوا أحياء، وأنهم استطاعوا النجاة، «وكل شيء، ما دام الإنسان حي، سهل» والحمد «لأن طويل العمر بالصحة والسلامة، والأشياء الثانية يجي وقتها».

بدا السلطان خلال هذه الأيام أقوى وأكثر ثقة، أما الأسئلة التي وجهها للقادمين فكانت بمثابة اختبارات حذرة، إذ لم تتعد معرفة كيف وقعت الأحداث، وكيف عرفوا بها، وأين كانوا، وماذا كان رد الفعل، وكيف استقبل الناس هذه التغيرات.

في الأيام التالية كان حريصاً على معرفة أدق التفاصيل، وحريصاً أكثر على معرفة موقف كل فرد. سأل عن موقف حامية القصر، وعن الضباط، وجهاز الأمن والسلامة التابع للقصر. ولم ينس السؤال عن موقف الحرس الخاص، وعدد من المرافقين والخدم. ومن اتصل بالقصر ومن زاره.

الأميرة عدلة والأولاد، واشترك أيضاً بعض المرافقين، أجابوا عن الأسئلة بدقة كبيرة، وأوردوا تفاصيل لا نهاية لها، كما أجابوا أيضاً عن أسئلة افترضوا أنها تهم السلطان. ورغم الاختلافات والمقاطعات، وما تخللها من طرائف أو ردود فعل، كتخزين المياه والطحين، وإغلاق الأبواب الداخلية بمفاتيح وأقفال، ونوبات الحراسة التي باشرها الجميع خلال الأيام الثلاثة الأولى، بما في ذلك النسوة، وعلى مدار ساعات الليل والنهار. . . هذه التفاصيل التي عرضت رافق بعضها ابتسامات أو نظرات

أقرب إلى التحذير واللوم، خاصة من الأخوة الكبار، أو من المسنين، لمن هم دونهم!

بعد أن أصبح السلطان ملماً بكل هذه التفاصيل، وأخرى غيرها، وعلى دراية بمواقف معظم الذين كانوا يحيطون به، أو بالآخرين، وفي الليلة الرابعة أو الخامسة لوصول هؤلاء، وفي الصالة الكبيرة، في الطابق العلوي من القصر، وكان أغلب الذين وصلوا يتحلقون حوله، قال السلطان بصوت عميق:

ـ من الآن، وبعد اللي صار، وبعد اللي شفناه، يلزم الواحد يفتّح عينه، ويلزم يعرف كيف يختار رجاله، ولمن يعطي سره!

وزفر مثل جمل وأكمل:

ـ وإذا الله ردنا بالخير والسلامة، يلزم نتذكر كل شيء، لأن مثل هذا الدرس يعلّم اللي ما يتعلم.

وحين خيم الصمت، ولا أحد يعرف كيف يواصل الحديث، وقد مرت صور كثيرة في ذاكرة السلطان، أضاف بلهجة حانقة أقرب إلى الغضب:

ـ يا جماعة الخير.. ما تركنا أحد منهم إلا ونشدناه: شلون تشوف الأحوال يا فلان؟ شلون رضا الناس وراحتهم؟ وكلهم يحمدون ويشكرون، وإذا زادوا يقولون: أحسن من كذا أبد ما تلقى يا طويل العمر.

وبعد قليل وهو يهز رأسه بلوعة:

ـ حتى فنر لما نشدناه، وفتح حلقه، قال: «الأمور بخير، والدنيا بخير، وحنا شاكرين، وما نريد أي شيء». وأنا، بكل نية طيبة. أسأل: أخاف تكونون محتاجين شي يا جماعة الخير؟ أخاف تريدون شي؟ ويقولون «سلامتك يا طويل العمر، وإنشاء الله دايم فوق روسنا يا طويل العمر». وراح يوم، وجا الثاني، ويا غافل لك ربك، أثاريهم من ورا ظهري يدبرون ويتآمرون. وبعدني ما ركبت وطرت إلا ودق الطوب، وصار اللي صار!

وزفر، وخرج صوته خشناً، لكنه بطيء:

ـ ما يخالف، الواحد يتعلم، ويجي يوم ونتحاسب. يجي يوم ونتواجه، وإذا بيهم حيل ومرجلة خلهم يبيّنون!

قالت روفة، خادمة الأميرة عدلة، بصوت خافت، لم يسمعه إلا من كان حولها:

ـ أخاف ما يجي هذا اليوم!

التفت السلطان ناحية الصوت، وسأل:

ـ شنهو اللي قلتيه؟

ـ سلامتك، طال عمرك، ادردم ويّا نفسي!

هكذا ردت روفة، وقد تملكها الخوف. قال زيد الهريدي، وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ جماعتنا، اللي أمناهم، يا طويل العمر، هم اللي خانونا، نكثوا بنا.

قال شايع السحيمي بعصبية:

ـ يا زيد، هذي ما هي سالفة يوم واثنين، هذي تدبير سنين. والجماعة هناك كانوا ينتظرون طويل العمر يمشي حتى يسووا فعلتهم. ومن المؤكد أنهم رابطينها من مشرّق لمغرّب، وإلا ما نجحت وصار اللي صار.

ـ وجماعتنا، يا شايع؟ وين جماعتنا؟

ـ جماعتنا، يا زيد، بين اللي شروه، وبين اللي سحروه ودوخوه. واللي ما انشرى وما داخ تنبل ما يدري كوعه من بوعه، أو نايم نومة أهل الكهف.

تلفت زيد في أكثر من اتجاه، يريد مؤيداً أو حليفاً. تابع شايع السحيمي دون أن يأبه لنظرات زيد:

ـ ويلزم نعترف، يا زيد، ومثل ما قال طويل العمر: حنا كنا نايمين على حرير، فصدقنا كل اللي ينقال لنا، كل اللي نسمعه، ولا هو ببالنا أن

فنر وغير فنر يغزلون بالليل والنهار، ويركضون من هنا لهنا يدبرون ويتآمرون.

ـ حطينا كل ثقتنا بحماد، يا شايع، بحماد وأمثال حماد، وأثاري هذول اللي جانا منهم البلا، هذول اللي يقولون الدنيا بخير والناس راضية. كانوا يريدونا نصدقهم، وصدقناهم. وبعدها تدردبت المصايب فوق روسنا.

قال السلطان بحقد:

ـ والله. . . والله إذا ظفرت بابن هالحرام حماد، لا خليه يشتهي الموت وما يحصلّه!

وبعد لحظات صمت طويلة:

ـ كل يوم والثاني يجيني: «تقارير الجهاز، يا طويل العمر: الناس شبعانة وراضية، والدنيا بألف خير». وأنا أقول له: يا حماد، فتّح قلبك قبل ما تفتح عينك، لأن هذي موران ما ينحزر عليها، وناس موران ضحكتهم شبر، والخنجر تحت البشت، فإذا سهيت عنهم دقيقة غدروا بك. ويجاوب حماد ويقول: «حنا تحرينا وتأكدنا يا طويل العمر، وما يكون لك فكر» ولما وقعت الواقعة أثاري حماد براس القايمة، وهو، بعد فنر، أبوها وأمها!

ووقف السلطان بعصبية. مشى خطوتين، وكان بادي الانفعال، ثم عاد بسرعة وكأنه لام نفسه، وبعد أن هدأ قليلاً، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ القضية، يا جماعة الخير، أكبر من حماد، وأكبر من فنر. . .

وبعد قليل:

ـ لكن بسيطة، تهون، والله كريم.

قالت عدلة بصوت رخو، أقرب إلى التشفي:

ـ حنا ثارنا عند اللي خانونا، عند فنر وحماد. . .

وأضافت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ وأمثالهم!

والأميرة عدلة حين تتحدث بهذه الطريقة، فإن دلالة كلماتها لا تخفى، أكثر من ذلك تحرض الجميع لأن يلتفتوا إلى العدو القريب، العدو الذي يستطيعون أن ينتقموا منه، بدل الالتفات إلى موران البعيدة.

سأل مجلي، أكبر الأبناء الذين وصلوا:

ـ من تقصدين؟

ـ ردت بنفس اللهجة الرخوة:

ـ يا وليدي.. من هو حماد، بليا اللي جابوا حماد، اللي حموا حماد؟

رد السلطان بغضب:

ـ أنت يا عدلة مالك شغل بهذي السوالف، خلي الرجال يتكلمون!

قالت وكأنها لم تسمع:

ـ والخوف ما هو بس من اللي صار وجرى، الخوف، هالحين، من اللي حايفين حولنا، وإذا نام الناس ما ينامون!

ولم يتأخر السلطان في أن ينهض، إيذاناً أن الحديث انتهى، قال وهو يمشي:

ـ ما هو كل اللي ينعرف ينقال، وحرام أن الواحد يجرب سلاحه بميت.

كان السلطان واضحاً في رده على الذين يفترضون أن الحكيم وراء كل ما حصل. لم يرد أن يسميه، لأنه يعرف أن لا أحد معه أو يمكن أن يدافع عنه.

في الليل المتأخر، وقد ترك السلطان جناحه وجاء ليقضي باقي ليلته عند عدلة، قالت له، وكانت أكثر وضوحاً وحزماً:

ـ كل البلاوي، يا طويل العمر، جتنا من هذا خويك، الحكيم. هو اللي يفتي وهو اللي يحكي. مهفهف ومحفحف، وما يندري يفتي لإبليس أو لرب العالمين، وما ينعرف شنهو اللي بباله وشنهو اللي يريده.

ولأن السلطان كان متعباً، ومستعداً لأن يسمع كل شيء، دون قدرة أو رغبة في الرد، تركها تتكلم:

ـ وإذا لنا أمل، والحظ ساعدنا، يا طويل العمر، ورجعنا؛ وإذا الناس بعدها تحبنا وتريدنا، فأول شي تسويه أن هالإبن الحرام يتركنا، يكفينا شره، لأنه من يوم ما شفناه، ما شفنا الخير، ومن يوم ما عرفنا، وقال: أنا خوي السلطان، الناس تحكي وتقول. فشوري عليك، يا بعد قلبي وعيني، وشرهتي منك، أن تتركه، وأن تقول له: هذا حدّك ويانا، وبعدها تشوف شلون الخير يجيك!

رد السلطان برخاوة:

ـ أنت ما تعرفين الناس، يا بنت الحلال!

ماءت بضحكتها مثل قطة، وتساءلت:

ـ أنا ما أعرف الناس؟

ـ أنت ما تعرفين شي!

اقتربت منه كثيراً، أطفأت النور، وهمست:

ـ ما يخالف، أنا ما أعرف، بس أنت، بروحك، راح تشوف!

ويزداد القصر في بادن بادن اضطراباً. فأولاد السلطان، الذين كانوا صغاراً في موران كبروا فجأة. كبروا من الهزيمة ورغبة الانتقام، ولأنهم حملوا مقداراً كبيراً من المال، خاصة من الذهب والمجوهرات، ولأن الأميرة عدلة، أيضاً، أصبحت امرأة أخرى!

فما كادوا يتأقلمون مع الجو الجديد، حتى أصبحوا أكثر جرأة، وأكثر وضوحاً.

قال مجلي، وهو الابن الرابع للسلطان، والثاني لعدلة، قال لأبيه:

ـ لي كلمة معك، يا طويل العمر، وأريدك ما تزعل مني.

فوجئ السلطان، فقد كان يعتبر مجلي خجولاً، قال وهو يضحك:

ـ أي يا وليدي، أريدك تسولف، لأن موران وناس موران نسّوا الواحد صلاته، وما خلونا نشوف بعضنا زين، ولا سولفنا.

خجل مجلي وكاد يتوقف أو يعتذر، لأن ما لديه ليس الحديث الذي يفرح، أو يقيم حواراً أو علاقة، إلا أن نظرات السلطان المستطلعة، المشجعة والدافقة، جعلته يواصل:

ـ يجوز كلامي، يا طويل العمر، ما يعجب، بس يلزم أقوله، ويلزم تعرفه.

ـ قل يا وليدي، ولا تخف.

ـ ما ظل أحد بموران إلا وقال لي: بعد ما تبلغ طويل العمر السلام، تقول له هذا خويه، نسيبه الجديد، إذا تركه اليوم قبل باكر أخير له وأحسن.

ـ شلون يا وليدي؟

ـ ما أدري، طال عمرك، بس الناس تقول أنه أصل المصايب.

رد السلطان بهدوء، وهو يكظم غيظه:

ـ يا وليدي المصايب من الله، ما هي من العبد، وكلام الناس واجد، وما أريدك تصدق كل ما تسمعه.

ـ موران ما عندها سالفة إلا الحكيم، يا طويل العمر، والناس يقولون: كل اللي صار لأن السلطان ناسب الحكيم.

ـ اللؤم ذابح الناس، يا وليدي، والحسد عامي عيونهم وقلوبهم، ويلزمك تعرف: لا أحد يرضي الناس، حتى لو شعلت لهم أصابعك شموع.

قال مجلي بانفعال:

ـ حتى أعمامنا يقولون: لو أن السلطان ما حط يده بيد الحكيم، لو ما ناسبه، كانت الأمور ما وصلت هالمواصيل.

ـ أعمامك، يا مجلي، يا وليدي، يدورون حجة، ولأنهم ما لقوا، حطوها براس هالمسخوط...

وبعد قليل وبحنق:

ـ بنفسي لو واحد منهم جاني، واجهني وقال لي: ما نريد فلان، حنا ما براضين عن فلان. لكن أبد. الكل يحمدون ويشكرون، والكل يقولون: الحكيم، أبو غزوان، ما مثله لا بالهند ولا بالسند. لكن بعد ما سووا سوايتهم يريدون حجة وسبب، فقالوا: الحكيم!

وزفر فخرج صوته حاراً مديداً:

ـ يا وليدي القضية أكبر وأكبر من الحكيم. ولو ما كان هو لقوا غيره. المهم: ان يخلصوا من أبوك يا مجلي. هذول طالبين ملك وحكم، وهذا اللي يريدونه، والحجة دايماً موجودة وسهلة.

ـ لكن حنا، يا طويل العمر، عطيناهم السكين اللي ذبحونا بها.

ـ مثل الذيب والعنز، يا وليدي، إذا شربت العنز من راس النبع أو من

حدر السيل عكّرت الماء على الذيب ويلزمها تنذبح، هذي هي سالفتنا مع أعمامك يا مجلي، وكل كلام غير هذا لا تصدقه، لا تشيله من أرضه، لأنه ما هو بصحيح.

وانتهى الحديث مع السلطان، هذه المرة، عند هذا الحد. أما مع آخرين فقد أخذ شكلاً مختلفاً.

ولأن مجلي الأخ الأكبر بين الذين وصلوا من أولاد السلطان، ولأن المال ظل معه، وقد تم الاتفاق على ذلك بينه وبين أمه، فقد أصبح يوماً بعد آخر، بعد أن تعود على الجو وطرق المواصلات، وعرف الذين يحيطون بالسلطان، أقوى الأشخاص، والذي يقرر في أمور كثيرة.

كان مجلي طويلاً مثل أبيه، وماكراً مثل أمه، أما حدة الطبع التي كانت تميز بعض مواقفه، فتعزوها الأم إلى داء المرارة الذي ورثه عن عمه فنر! كان خجولاً أقرب إلى الانطواء، لكنه يمتلك تأثيراً خفياً على الآخرين، وقد لاحظ ذلك أبوه منذ وقت مبكر، ثم جاء من أكد له ذلك. وإذا كان قد أهمله، أو انشغل عنه في موران، فقد أصبح الآن شيئاً مختلفاً. ولذلك بذل معه جهداً كبيراً. قضى وإياه ساعات طويلة، كانا يتمشيان ساعات في الحديقة الخلفية كل يوم، صباحاً وعند الغروب. كما أسر لعدلة أن تبذل معه جهداً خاصاً. ومجلي الذي يدرك جزءاً من اللعبة، ويحس أن معاملته اختلفت عن السابق، بدأ يشعر بالثقة والقوة معاً، تخلى عن خجله، أو عن جزء منه على الأقل، وأصبح يهيّئ نفسه أن يكون الأقوى في قصر بادن بادن.

قال لزيد الهريدي في اليوم الثالث، بعد ذاك الحديث مع أبيه:

ـ وأنت، يا عم زيد، طويل العمر يسرّك ويسمع منك...

فتح زيد عينيه وابتسم، وقد تقدم بوجهه وبجزء من جسده ليعرف بقية الحديث:

ـ والجماعة بموران وصوني وقالوا لي: ما دام الحكيم هو اللي يفتي ويشور ترى السلطان ما يرجع!

دمدم زيد بكلمات غير واضحة، لكن لا تخفى دلالتها كشتيمة. ولو لم يكن يريد أن يعرف أكثر، فلا ينساق لعواطفه، لواصل شتائمه. لكنه كتم غيظه، نظر بتحديد إلى مجلي، وسأل:

ـ وشنهو بعد اللي قالوه بموران؟

ـ السوالف كثيرة يا شيخ، بس الكل يقولون أن الحكيم أصل المصايب، وأول شيء يلزم يصير ويتسوى، أنه يمشي، يفارق.

ـ هذا الكلام ما يوكل خبز، الله يسلمك، إلا إذا كان كلام فنر أو واحد مثله.

وبعد قليل وبمكر:

ـ من هو اللي قاله؟

ـ قاله لي الدريعي، وأنت تعرف علاقته بعمي فنر. قاله لي قبل السفر بيوم.

ـ وبعد شنهو اللي قاله؟

ـ هذا اللي قاله.

ـ وهذا رأيه أو رأي صاحب قصر السعد؟

ـ ما أدري يا شيخ زيد، بس هذا الكلام من راسه لراسي.

قال زيد، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هذا الخرندعي، الحكيم، سالفته هينة، الله يسلمك، نقدر نهججه، إذا ما هو اليوم اللي عقبه، نخوّفه، نسلّط عليه الجماعة...

ابتسم، وتطلع بتحديد إلى مجلي، ثم أضاف:

ـ بس اللي ما يندري عنه علاقة طويل العمر ببنته...

وابتسم أكثر، وكأنه اكتشف الحل. قالت ذلك تعابير وجهه كلها:

ـ إلا إذا الوالدة ساعدتنا!

التفت إلى أكثر من جهة، وبعد قليل بهمس متآمر:

ـ ومثل ما زوّجته من قبل، ومثل ما كانت تجاوبه: أطلب وتمنى، إذا قال: حنّيت واشتهيت، وواحدة تجي وواحدة تروح، فإذا طال عمرها بعثت على فلانة وفلانة، وواحدة بعد الثانية، وهي تعرف من، ترى تصير سالفتنا سهلة! يوم والثاني ما تشوف الحكيم إلا حمّل ومشى!

قال مجلي بانفعال:

ـ أترك هذي القضية عليّ.

ـ إذن سالفتنا، الله يسلمك، خالصة.

لم تكن عدلة تحتاج إلى من يطلب منها، أو من يحرضها على أداء مهمة من هذا النوع، فقد بدأت المهمة قبل أن تبدأ. وإذا كانت قد خبرت السلطان طوال السنين السابقة، وعرفت مزاجه، كما قامت بتزويجه المرة بعد الأخرى، فقد كانت هذه المرة غير متأكدة، ولا تعرف لماذا يبدو السلطان ضعيفاً مأخوذاً هكذا.

قدّرت أن لا غنى له عن الحكيم، لأن الأدوية التي تزداد وتتنوع بين فترة وأخرى، هي التي تجعل السلطان يشعر باستمرار الشباب، لكن لا يفسر هذا السبب شدة تعلق السلطان به، لأن مل هذه المهمة، وهذه العلاقة، ليس جديداً. واستعادت عدلة، في ذاكرتها، الدعوات التي وجهت للسلطان، والزيارات التي قام بها لبيت الحكيم أو في المليحة، وتساءلت ما إذا وضع له سحراً في الأكل الذي تناوله فغيّره؟ وشكّت في أن يكون سحر وداد لهذه الدرجة من القوة والاستمرار. وهذه الفتاة الصغيرة، الأقرب إلى اللعبة، هل تملك من البراعة والمعرفة ما يجعلها تؤثر عليه إلى هذه الدرجة؟ تتذكر كيف ابتسمت وداد حين نبهتها لليلة الدخلة، كانت الابتسامة الساخرة تقول: لا عليك، نعرف كل شيء، وسلمى مستعدة لكل شيء!

والآن، في بادن بادن، وبعد أن انقضى شهران على الزواج، وحين تتطلع عدلة إلى الاثنين، تجدهما مثل الحبال المبلولة: رخوين، مأخوذين، ولا يملاّن.

تريد الأميرة عدلة أن تكتشف هذه الفتاة ـ اللعبة، من جديد، ومدى تعلق السلطان بها، إذا جاءت غيرها.

بدت سلمى مثل طالبات المدارس الداخلية: خجولة، مؤدبة، وبعض الأحيان شديدة الارتباك؛ أو كأنها ابنة الجيران التي جيء بها للاختبار، دون أن تدري ودون أن تستعد. كانت تتحرك بخفة، تبتسم للجميع، وفي بعض اللحظات تحتار وتكاد تبكي لأنها لا تعرف ما يقال، أو لا تعرف هل هذا الذي يقال هو سؤال أم ثناء أم شيء لا يقع تحت أي من هذه التسميات!

قالت عدلة لنفسها، وقد سيطرت عليها الحيرة: «الرجال يعرفون أشياء كثيرة في هذه الحياة، ولكنهم لا يعرفون المرأة. أنهم يتصورونها كما يتمنون أو كما يحلمون، والغريب أنهم غير قادرين على أن يروها على حقيقتها، رغم أنها تكون عارية بين أيديهم». توصلت إلى هذه القناعة، وهي تنعم النظر بهذه الطفلة الغرة، والتي لا تملك إلا مقداراً ضئيلاً من اللحم على ردفيها.

سألت خادمتها روفة بسخرية:

ـ ما تقولي لي يا مسخوطة: هذي لعابة أو آدمية؟

ورغم أن روفة تعرف عمن تسأل سيدتها، فقد تساءلت ببلاهة:

ـ عمن تسأليني، يا عمتي؟

ـ عن المصّبغة المعظّمة، اللي البس ياكل عشاها وهي تناظره وما تقول له: بس.

ـ تلحق وتصير، يا عمتي، ويصير عليها لحم ما دام عظمها زين.

ـ عظمها زين؟ الله لا يخلي فيك عظم سالم!

تضحك روفة، وبعد قليل:

ـ حزري عليها، يا عمتي، أنها آدمية وبنت حلال.

ـ وبعد؟

ـ ضحكتها تشفع وخدها يلمع، ويا أسنانها نظم اللولو. . .
ـ وبعد، يا بنت الحرام؟
ـ إذا هذا الكلام ما يعجب ستي، عندي غيره كلام!

كانت روفة امرأة ضخمة، ثقيلة الحركة، أقرب إلى البطة إذا مشت، وأقرب إلى الحصان إذا فتحت حلقها. تعرف كيف تسخر، وكيف تضايق، ولولا خفة دمها، وتحملها للشتائم، وبعض الأحيان للمقالب، لما استمرت.

ما كادت بضعة أيام تمر، وعندما تأكدت أن سيدتها تريد التخلص من هذه الوافدة، حتى بدأت:

ـ راح أدبي عليها، يا ستي، ومنها كلمة ومني كلمة ونشوف!

ومن خلال الأسئلة والاستفسارات، أو وهي تنظر إليها تقيسها، مع الابتسامة، التي تقع عند الحد الفاصل بين السخرية والطيبة، تبدأ رحلتها اليومية مع سلمى.

وفي إطار الاختبار اليومي، والذي لم يطل، وبعد أن سألتها بطريقة لا تخلو من عهر، كيف تستلقي، وكيف يأتيها السلطان، وعن أعضائها وأعضائه، وهل تستمتع ومتى، ومن قبل الآخر، وهذه الفتاة المرتبكة الخائفة لا تعرف هل تجيب أم تبكي أم تهرب. بعد هذه الجولة من الاكتشاف والاستطلاع توصلت إلى الطريقة المناسبة للتعامل.

بدأت عشرات النظرات الساخرة تطاردها، وبدأت همسات الخدم تلاحقها. ومهما حاولت أن تهرب، أن ترابط في غرفتها، فقد كانت أصوات «الجيش» الذي وصل من موران تصلها، تقطع عليها الطريق، تقتحم غرفتها، وبعض الأحيان، بحجة الخطأ أو السؤال عن شيء من الأشياء!

وسلمى التي كانت ترتبك أصبحت الآن تعيش في حالة من الفزع الدائم. كانت تغلق على نفسها الغرفة من الداخل. فإذا دعيت لتناول الطعام توافق مرة وترفض مرات، فإذا جاءها السلطان ووجد الباب مغلقاً،

وترفض الاستجابة للدقات، إلا إذا عرفته وتأكدت بعد أن أصبح الباب يدقّ بعدد أرباع الساعات فقد توتر الجو، ووصل إلى حد الخطر.

وعدلة المرأة التي لا يمكن أن يحزر أحد عمرها، ولا يعرف إن كانت أماً للأولاد الذين حولها أم أختاً كبيرة، استطاعت خلال أيام قليلة أن تتغير تماماً، وربما بتأثير الجو والرطوبة. فالوجه القاسي الذي رافقها من موران، وزادته الزرقة، خاصة حول العينين، نتيجة التعب وقلة النوم في الأيام التالية، ما لبث أن استراح وتغير، بعد أن استخرجت من حقائبها مجموعة من النباتات، فاغتسلت ببعضها، وصبغت شعرها ببعضها الآخر، وتبخرت بقسم ثالث، فبدت امرأة مختلفة تماماً، حتى بنظر السلطان! ورافق ذلك أيضاً نوع من المرح والأحاديث خلقتها الحالة النفسية بهدف نسيان وتجاوز المصاعب التي كانت تواجه الجميع.

بهذه الطريقة البدائية الماكرة تولد جو أنعش السلطان، أصبح أكثر استعداداً لأن يصدق ما يقال له عن الحكيم أولاً، ثم عن «اللعابة» «أم وزنة ونص» كما أصبح يطلق على سلمى. أما حين نقل إليه ما قالته روفة، وقد استدعتها عدلة، لتقول له بلسانها ما سمعته منها عن رائحته وقسوته وثقل جسده، وكيف أنه يستعمل أسنانه ولسانه، وأنها تتأذى من ذلك ولا تتحمله، ثم امتناعها عن فتح الباب له متعمدة، رغم أنها تعرف دقاته، فقد تأكد أن أيامها معه أوشكت أن تنتهي.

صفاء الشلبي ليس مجرد مساعد لغزوان، انه أخ شقيق: الشبه، المرح، التعلق بالحياة، إضافة إلى اللياقة الاجتماعية. يعرف أدق التفاصيل المتعلقة بعائلة المحملجي، وكأنه أحد أفراد هذه العائلة. أما الذكاء والنباهة وإمكانية إقامة علاقات مع الآخرين، فإنها صفات أصيلة وليست مكتسبة «تماماً مثلما هي عند غزوان» هكذا قال الحكيم لنفسه بعد جولتين من المناقشة.

وصل صفاء بعد ثلاثة أيام من المكالمة التلفونية مع غزوان، أو كما قال للحكيم:

ـ بعد أن أقلعت الطائرة بالأستاذ غزوان والوالدة إلى لندن، في طريقها إلى موران، بخمس وأربعين دقيقة أقلعت طائرتي إلى هامبورغ. قضيت الليلة الفائتة في هامبورغ، وها أنذا الآن بين يديكم!

وقبل أن يقدم رسالة غزوان قدم الهدايا. كانت كبيرة ومتنوعة، وأغلبها لسلمى. أما الرسالة التي تسلمها الحكيم، ووضعها في جيبه، على أن يقرأها في وقت لاحق، وبمفرده، فقد كانت تقلقه. أو بالأحرى كانت مثل جمرة في جيبه. حاول أن يستفسر من صفاء لماذا لم يجئ غزوان، وما إذا كانت رحلته إلى موران، وفي هذا الوقت بالذات، ضرورية أم لا، وأيضاً رحلة أم غزوان. أجاب صفاء عن الأسئلة بالكثير من التهذيب والمعرفة، وأباح لنفسه نوعاً من الجرأة خاصة بعد أن روى بعض الملابسات الضاحكة التي وقعت لأم غزوان في مطار نيويورك. كان لا يكف عن الإشارة بقدرة الحكيم وحكمته في أنه يتفهم الأسباب التي منعت غزوان من المجيء.

لم يقرأ الحكيم الرسالة إلا بعد أن قام بجميع مراسيمه: تمدد في الفراش، رفع يديه في الهواء وجرّ نفسين عميقين، كما كان يفعل، ثم فض الرسالة بعد أن تمعن بالعنوان، كانت الرسالة كما يلي:

والدي العزيز

أقبل يدك الكريمة، وأقبل وجنتيك الطاهرتين، وبعد:

الوالدة العزيزة بصحة جيدة، وقد سررت بلقائها، وتنسمت فيها رائحتكم الزكية، وقد أبلغتني بأخبار الجميع...

إذا سألت عني، يا والدي العزيز، فأنا، برضاك ورضا الوالدة، في صحة جيدة، وأحوالي في العمل تسير من حسن إلى أحسن.

والدي العزيز، أنا مشتاق لسلمى كثيراً، ولقد فرحت وحزنت للأخبار الأخيرة، ومع ذلك أتمنى لها التوفيق في حياتها.

والدي العزيز

أبعث إليك بهذه الرسالة لكي أوضح لك وجهة نظري بالنسبة لأمور أساسية حدثت في الفترة الأخيرة، وأرجو أن أسمع منك رداً.

مثلما علمتني، وكما تعلمت منك، وأخيراً مثلما تعلمت في الولايات المتحدة: يجب على الإنسان أن يحدد لنفسه هدفاً في الحياة، وهذا الهدف هو الذي يقود خطواته، ويحدد مواقفه وعلاقاته. وأنا، يا والدي العزيز، منذ أن عملت في ميدان الأعمال الحرة، اعتبرت أن الثروة، والثروة وحدها، هي الهدف، ولذلك فإن السؤال الأساسي الذي أطرحه على نفسي صباح مساء هو: كيف أستطيع أن أصل إلى الثروة، وكيف أصبح ثرياً.

أشعر بعجز أو بصعوبة لتفسير أفكاري، خاصة في مجال العلاقات بالسلطة، فأنا أعتبر أن موران الدولة هي الأساس، وهي التي يجب أن أتوجه إليها وأن أتعامل معها، لأن موران ليست السلطان خزعل أو غيره. موران هي الكيان، هي الثروة، وهذا ما يجب أن أفكر فيه باستمرار.

لا أنكر أن السلطان خزعل ابتعثني وأنفق على دراستي، وكان يحبني.

أكثر من ذلك تزوج أختي، ولكن إذا أردت أن أصل إلى هدفي فلا بد أن أميز بين أمور كثيرة، لأن الخطأ، في مثل هذه الحالات، قاتل ومدمر. وإذا كنت في السابق قد تعاملت مع السلطان خزعل، وكنت قريباً منه، فلأنه كان يمثل موران، ولأنه كان قادراً على تقريبي من هدفي، فإذا اختلفت المعادلة الآن فلا بد أن أعيد النظر، وأن آخذ بعين الاعتبار الظروف الجديدة.

لا زلت أتذكر بوضوح تلك العبارة التي كان البروفسور ماكنلي لا يمل من ترديدها على مسامعنا في الجامعة: يجب أن نميز دائماً بين الرأسمال والإدارة. الرأسمال باق، وهو الأساس، وهو الذي يشكل القوة والهدف، أما الإدارة فإنها قابلة للتغير باستمرار، وقابلة للتطور، تبعاً لما تمليه حاجات الرأسمال وضروراته.

هذا المثل، يا والدي العزيز، ينطبق على ما نحن فيه، وبالتالي يحدد طريقة التعامل. فالحكومة، أية حكومة، هي الإدارة، وهذه الإدارة قابلة للتغير باستمرار، أما الدول فهي وحدها الباقية والمستمرة، ولذلك فإن ما يعنينا هو الدول وليس الحكومات، إلا بمقدار ما يحصل التطابق.

واسمح لي، يا والدي العزيز، أن أعبر عن قضية شديدة الحساسية، وهي أن الإدارة السابقة لموران انتهت، ولذلك لا حاجة للتشبت أو الوهم، خاصة من قبل عائلة المحملجي. ولا أخطئ إذا قلت العكس. فالمهم الآن أن نقيم علاقات جديدة، لكي نزيل من أذهان البعض أننا محسوبون على الإدارة السابقة، وهذا ما أحاول أن أفعله الآن، سواء من حيث تنفيذ العقود السابقة، أو من حيث إبرام عقود جديدة. بهذه الطريقة يمكن أن نفرض وجودنا مرة أخرى، ويمكن أن تسمح بعودتك من جديد.

ومن هذه الزاوية يجب أن تفهم عدم وجود مصلحة أو ضرورة لزيارتي ألمانيا. وحتى لو أردت زيارتها يجب ألا تقبل، لأن الحساسية الموجودة في الوقت الحاضر يمكن أن تؤثر على أوضاعنا لفترة غير قصيرة.

ومن هذه الزاوية ارتأينا أنا والوالدة ضرورة قيامها بزيارة موران، إذ

علينا أن نميز بين الأمور الشخصية والعاطفية وبين المصالح المادية والمستقبل. وأنت تعرف أن الرزق الذي تركته في موران إذا نسي، أو لم يتابع، يمكن أن يتناهبه الطامعون، وهم كثيرون، ونحن حريصون عليه، ليس فقط كقيمة مادية، وإنما كقيمة معنوية أيضاً، خاصة أنك تعبت وشقيت وأفنيت عمرك من أجله. وهذا الموضوع الذي قررته أنا والوالدة فيه اعتراف بالجميل وتقدير للجهد الذي بذلته.

والدي العزيز

هذا ما أردت توضيحه في هذه الرسالة، وفي حال وجود استفسارات يمكن أن تستوضح بشأنها السيد صفاء، وهو موضع ثقتي، ويعرف الكثير من التفاصيل. وسوف أتصل بك بعد عودتي من موران وأطلعك على الموقف، وسأبذل جهدي لكي نلتقي في مكان ملائم.

وتقبل في الختام مودتي واحترامي، كما أقبّل يدك الكريمة، ووجنتيك الطاهرتين، راجياً أن تبلغ الشقيقة سلمى تحياتي.

ولدك المحب والمخلص

غزوان

قرأ الحكيم الرسالة مرة أخرى وثالثة، وأشّر على بعض العبارات، ورغم أنه كان موافقاً، بصورة عامة، على الموقف، إلا أنه يحس بعدم قدرته على استيعابه. ولكي لا يقع في أخطاء، كما حصل في حالات سابقة مماثلة، قرر أن يتريث وأن يستوضح صفاء بعض النقاط. أما مسألة أن يكتب أو لا يكتب لغزوان فلن يقررها إلا في المرحلة الأخيرة، بعد أن يمعن النظر والتفكير فيما يجب أن يُعمل، وبعد أن يستكمل جميع التفاصيل. وإذا كتب، ولن تكون كتابته رداً على هذه الرسالة، وإنما ستتعداها إلى تلخيص فلسفته في الحياة، وربما من الأفضل إلا يفعل ذلك الآن، في ظل الظروف النفسية التي يعيشها، إذ قد تظهر من خلال الكلمات أو ظلالها، وربما أثرت على غزوان وعلى مشاريعه.

وفكر أن يستعيض عن الرسالة بمجموعة من الأفكار يدوّنها تحت

عنوان: «أوراق الغربة» أو «ذاكرة الأيام» ويضمنها تحليلاً وتقييماً لما حصل، ويمكن أن تكون موسعة ودقيقة، لعلها تصبح درساً وعظة للأجيال اللاحقة، خاصة لأبنائه. ولام نفسه أنه لم يسجل يومياته، لو أنه فعل لأصبحت له الآن ذخراً، إذ من خلالها يستطيع أن يستعيد الوقائع واحدة واحدة، دون سهو أو خطأ، وربما كتب تاريخاً لمرحلة مهمة.

وشعر بالانقباض لأن أموراً أساسية كان يجب أن ينجزها في فترات سابقة، لكن مشاغل الحياة اليومية منعته من ذلك. كان يفكر على وجه محدد بالنظرية. انها الأساس وكل ما عداها فروع وتفاصيل. وها هو الآن، بعد سنوات من الاستعداد والتحضير، يراوح في مكانه. لم ينجز شيئاً يعتز به. وحتى الأشياء المادية التي حققها تبدو له الآن عرضة لمخاطر لا نهاية لها، إذ ربما يطمع بها، ومن الشركاء بشكل خاص، وعلى التحديد بعض الأمراء، وقد يستغلون غضب فنر عليه، ويضعون أيديهم على الأراضي والعقارات التي له. أنهم قادرون، وضمائرهم لا تمنعهم. وتذكر وقائع معينة حصلت بمعرفته، لكن اعتبر نفسه غير مسؤول.

وتأكد تلك اللحظة أن سفر غزوان ووداد يمثل منتهى الحكمة والنضوج. يجب أن تحمى الممتلكات، لأن لا فائدة من ندب الماضي. وشعر بالاعتزاز لأنه احتاط منذ وقت مبكر وسجل أكثر هذه الممتلكات بأسماء وداد والأولاد. وشعر باعتزاز مماثل لأنه استطاع غرس بعض العادات والتقاليد في العائلة. وها هو غزوان يدرك ويعترف فيقول له في الرسالة: إن قيمة الرزق لا تحدد بمقابل مادي فقط وإنما بمقابل معنوي أيضاً، كونه يمثل تعبه والارتباط به.

وكاد يكتب رسالة قصيرة قبل أن ينام يشير فيها إلى هذه النقطة بالذات، لكن شعر أنه غير متحمس بالمقدار الكافي. أكثر من ذلك اعتبر القضايا كلاً واحداً غير قابل للتجزئة، فأما أن يكتب أو لا يكتب.

نام تلك الليلة دون أن يقرر. نام على جنبه الأيمن، لأن ذلك أكثر بركة وأكثر صحة!

أما في اليوم التالي، وأثناء جولة العمل مع صفاء، فقد استفسر عن العقود السابقة، كيف نفذت، ومدى رضا غزوان عن النتائج. وتعمد إلا يسأل صفاء عن الأرقام، فقد قدّر أنه لا يعرف، أو بالأحرى يجب ألا يعرف. وسأله عن العقود التي يحتمل أن يبرمها غزوان وما هي توقعاته بالنسبة لها. وصفاء الذي حفظ الدرس جيداً، ربما بتكليف من غزوان، تلاه بطلاقة وفرح، وأشار، بسرعة، إلى أن الأمور تسير سيراً جيداً للغاية، وأن المستقبل سيكون أفضل بكثير. ولم ينس ذكر الأصدقاء الكثيرين من موران وغيرها الذين يزورون الأستاذ غزوان، أو يتصلون به، للاستعانة به أو لتكليفه بعدد من المشاريع الكبيرة، وكيف أن الأمور لم تتغير، نتيجة ما حصل في موران، بل ويستطيع أن يقول العكس.

كان الحكيم يستمع بكثير من الاهتمام والشغف. وكان يفترض أرقاماً ونتائج معينة للعقود والمشاريع. وتمنى لو كان قريباً من غزوان، إذن لأشار عليه بأفكار ومشاريع جديدة يمكن أن توسع أعماله وتسرّع بها، لكن ما لبث أن صرف النظر. قال لنفسه: «غزوان ملم وواعٍ ويعرف ما يجب أن يعمل» وضحك وهو يتذكر المثل: لا توص الحريصَ. وتذكر مقطعاً من الرسالة، وقد أشار فيه غزوان إلى أن سفر وداد جاء باقتراح منه، فسأل صفاء عن الموعد المحتمل لعودتهما. تعمد أن يسأل بهذه الطريقة العامة، فأجابه أن البطاقات كانت بالدرجة الأولى، وأنها من سان فرانسيسكو ذهاباً وإياباً، وصالحة لمدة سنة قابلة للتجديد بالنسبة لأم غزوان. أما طريق العودة فإنها مرنة، إذ يمكن أن تعود عن طريق لندن أو باريس، أو أي طريق آخر تختاره.

تركت الإجابة بعض الظلال بالنسبة لعودة وداد، وقد أقلقه هذا الأمر، فسأل صفاء، عرضاً، عن العلاقات مع الإدارة الأميركية، وحول تأخر السفارة في منحه سمة الدخول، وقال ان ذلك يسيء إلى الولايات المتحدة ويضعف الثقة بها، فأكد له صفاء أنه سيتولى الأمر بنفسه، حتى لو اضطر إلى الرشوة، ودفع مبالغ معينة إلى بعض الأشخاص الذين يعرفهم ولهم

علاقة، وقد يكلف محامياً لمتابعة الموضوع، وهو متأكد أن النتائج ستكون إيجابية وسريعة. سر الحكيم كثيراً، وأكد عليه أن يفعل ما بوسعه وبسرعة، وختم الحديث حول هذه النقطة، وهو يطبطب على ركبته ويضحك:

ـ تابع الأمر، يا ابني، بهمة، وحسب ما تشوفه مناسب، بس بدون ما يعرف غزوان!

وبعد قليل، ولئلا يترك ظلالاً من الشك:

ـ لأن غزوان، الله يسلّمه، مشغول، وكثير النسيان.

أثناء اللقاء جاء هانس أورلخت لزيارة الحكيم. جاء بصحبة مترجم عينته السفارة. وخلال اللقاء تم التعارف بينه وبين صفاء، وبسرعة تبادلا بطاقات الزيارة وتحدثا حول فرص العمل. وقبل أن ينتهي هذا اللقاء اتفقا على أن يسافرا معاً في اليوم التالي إلى بون، لأن صفاء يجب أن يلتقي هناك بالمستشار الأول للسفارة، والذي زارهما في سان فرانسيسكو وقضى أسبوعاً في ضيافة غزوان وبرفقة صفاء، وكان على هانس أن يحصل على كتاب من السفارة من أجل شراء قصرين للسلطان، أحدهما قررت موران شراءه له، والآخر قرر السلطان أن يشتريه.

تبين للحكيم، من خلال الحديث، أن أموراً كثيرة جرت في الفترة الأخيرة دون معرفته، ورغم ذلك تظاهر أنه يعرف، وأنه ملم بأدق التفاصيل، لكن ظروفه الصحية لم تمكنه من المشاركة!

في ختام اللقاء، أشار صفاء، بكثير من التهذيب، إلى أنه سيمر في اليوم التالي، «للسلام والاستئذان بالسفر»، وأشار، أيضاً، أنه جاهز لحمل أية رسالة أو توصية. أما ما تبقى من النهار فسوف يقضيه في جولة داخل المدينة وحولها وأنه استأجر سيارة لذلك.

ظل الحكيم حائراً متردداً: هل يكتب جواباً لرسالة غزوان أم لا. وفيما إذا كتب هل يبقى في إطار الرسالة نفسها أم يتحدث في الأمور الأخرى؟ وغزوان لماذا يبدي هذه التحفظات والمخاوف، ألم يكن بمستطاعه أن يقترح مكاناً لكي يلتقيا فيه دون أن يعرف أحد؟

ووداد، إذا ذهبت إلى موران، متى تعود، وماذا تستطيع أن تفعل هناك؟ انه يعرف أهل موران، يعرف كيف ينظرون إلى المرأة وكيف يتعاملون معها. كان يجب أن ينبه غزوان لئلا يصبح مضغة في أفواه الصغار والكبار، في أفواه الذين يحبونه والذين يكرهونه. صحيح أن ما تركه في موران كثير وعزيز، لكن لا أحد يستطيع أن يتابعه مثله، أو على الأقل يجب أن يتابعه رجل يتمتع بالمعرفة والعلاقات. وشعر بالندم لأنه لم يطلع أحداً على الكثير من المعلومات التي لديه، كما لم يزودهم بالأوراق التي بحوزته.

لم يقل له صفاء أن يهيّئ رسالة، كما لم يعد. قال كلمة عامة تحتمل أكثر من معنى. انها طريقة غزوان ذاتها، فهو يحب أن يترك لنفسه وللآخرين أكثر من خيار. انها طريقة ذكية، هذا الشيء الذي لم يعرفه، كان حاداً، وكان يرى الأشياء بلون واحد، وتذكر العلاقات التي قامت له بالكثيرين، وكيف انتهت بالعداء أو بسوء الفهم. أغلب أصدقائه تحولوا إلى خصوم لماذا؟ ألم يحسن إليهم؟ ألم يساعدهم؟ لماذا أصبح البشر هكذا؟

وإذا لم يكتب، هل يكتفي بمجموعة من التوصيات؟ وهل سينقلها صفاء بدقة؟ ماذا لو أضاف إليها استنتاجاته وأفكاره، وربما أكاذيبه؟

انه يشعر بحالة من الضياع، لا يعرف كيف يتعامل مع البشر. حتى أقرب الناس إليه، زوجته، لا يعرف كيف يتعامل معها. كل واحد من الناس جزيرة منفردة عن الأخرى، يفكر وحده، يتصرف وحده. لماذا أصبحوا هكذا؟

كان مساءً كابياً أقرب إلى القهر. مرت الوجوه والذكريات مثل موكب حزين. حاول أن يبعد الكتابة. قال لنفسه: «الوحيدة التي تستحق الاهتمام هي الطفلة، أما نحن فقد عشنا حياتنا كلها». وحاول أن يستعيد ملامح سلمى منذ البداية. تذكرها طفلة صغيرة تحاول أن تقول أولى الكلمات، ثم بعد ذلك كيف بدأت تمشي. كانت بإصرار تحاول لكن في الغالب لا تستطيع. كان يحبها أكثر من أخوتها الذكور، كان يعتني بها بشكل خاص،

لم يكن قصده بريئاً، كان يريدها مادة لدراسته. أخضع نفسه لمنهج صارم في الدراسة خلال الشهور الأولى. كان يكوّر فمه بطريقة معينة، ويقول «بابا». ويكوره بطريقة أخرى ويقول: «دادا». راقب كيف تسير، كيف تتصرف، وكيف تتعامل مع الآخرين. بدت له، منذ اللحظة الأولى، أقرب إلى الدمية، وكاد يواصل الدراسة لولا أن شغلته أمور الحياة، ثم سافر!

لماذا تركها وسافر؟ أمن أجل المال؟ لقد كان عنده مال يكفيه. ولماذا زوجها للسلطان؟ أمن أجل الجاه؟ لقد أصبح معروفاً ومرموقاً وقوياً بحيث لا يحتاج إلى جاه أو إلى موقع جديد.

في مستشفاه الذي بناه في حران، كان يتمنى لو أن سلمى طبيبة إلى جانبه. كان يتصورها تحضر معه العمليات، تساعده، تقف دائماً إلى جانبه. وتخيلها تضع على وجهها القناع، ودون كلمات، من النظرة، من الالتفاتة، تفعل ما يجب أن يُفعل، تستجيب لكل ما يريد، تلبي طلباته، تقوم ببعض الأعمال نيابة عنه. هكذا كان يتصورها، وهكذا كان يتمنى ان تكون.

الآن لا يعرف ماذا تفعل، أو في أية حالة نفسية هي، وأيضاً دون أن يحقق لها، أو لنفسه، ما كان يتمنى. لماذا كان أنانياً وسمح لنفسه أن يفعل ما فعله؟ وهي، هل تسامحه؟ هل تغفر له؟

لولا البلابل، هذا المساء، لشعر بالأسى، أنها لا تتوقف عن التغريد، إذ ترتفع إلى أقصى مكان في القصر، أو تهبط إلى جانب سيقان الأشجار، وتتخاطب بتلك الطريقة الفذة، تفعل ذلك وهي تطير وتحط، وحيت ترقّص أذيالها أيضاً بلذة. شعر أن لا فائدة في كل ما عاشه وما فعله، لكن تلك المخلوقات الصغيرة الراكضة تشعره بنوع من التوازن مع ما يحيط بها. ينسى لحظة، يغيب، لكن مع ذلك يحس أن حياته ذهبت دون معنى. حتى غزوان، وهو يحصل على المال يعرف كيف يتصرف به. أما هو فقد جمد كل طموحاته وحياته في مساحات من الأرض. وحتى هذه الأرض تبدو بعيدة ومستحيلة، ولا تتيح له حتى قبراً فيها. لقد أخرجوه، طردوه مثل

كلب، لم يمهلوه سوى عشرين ساعة «يجب أن تخرج، لا يهم إلى أين، المهم أن تخرج». لم يستطع أن يفعل شيئاً. انتزعوه كما تنتزع الحشرة السامة، ورموا به بعيداً.

وعاد إلى سلمى الصغيرة، عود النعنع، التي لا تعرف الحياة. لقد انتزعها من ألعابها، ومن عالمها الوردي لكي يلقي بها في أشداق ذلك الوحش. قال لنفسه: «حتى المصريون القدامى كانوا أحسن منا وأرحم».

وعادت لذهنه وداد: امرأة مختلفة، امرأة تريد كل شيء. لم تحاول في يوم من الأيام أن تتفاهم معه. التحدي هو الطابع الوحيد لحياتها: إما أن يذلها أو أن تذله. قال لنفسه بحزن «لم تحاول أن تفهم دوافعي وأفكاري، ولم تتعاون معي».

رغم الغضب، كانت أصوات البلابل تعيده إلى الهدوء، فيشعر بالضآلة وما يشبه التوازن. يقول لنفسه: «الطيور والحيوانات أفضل من الإنسان، لأنها تعرف كيف تعيش. أما الإنسان فيعرف شيئاً واحداً: كيف يقضي على الآخر. ومن أجل القضاء على الآخر يبدد حياته كلها، ثم ينتحر».

وعنّت له فكرة أن يكتب كتاباً للمقارنة بين الإنسان والحيوان. كان متأكداً أنه منحاز إلى الحيوان، وأنه سيدافع عنه بكل قوته، وبكل ما يملك من معلومات، لكن شعر أن معلوماته قليلة إلى درجة لا يستطيع معها أن يقول شيئاً هاماً أو ذا معنى ودلالة. قال لنفسه بحدة: «متى يستطيع الإنسان الطيران؟».

وسيطرت عليه فكرة ساخرة: لا يتحرر الإنسان إلا بالطيران. ضحك وقال لنفسه: «الإنسان يفني حياته من أجل أن يمتلك جناحين، وبعد أن يمتلكهما يغرسهما في التراب على شكل أسمنت وحديد».

ومع تغريد آخر بلبل، وقد هبط الظلام، قرر أن لا يكتب. سوف يكتفي بكلمات يبعث بها مع صفاء، وسوف يتحدث مع غزوان بالتلفون، أما ما يريد أن يقوله للآخرين، عبر غزوان، فسوف يكتبه في وقت آخر.

منذ أن وطئت قدما الحكيم أرض موران، قبل سنوات طويلة، لم يتخل عن الشك الذي ظل يلازمه حول طبيعة الناس وسلوكهم.
صحيح أنه واجه بعض الصعوبات الناشئة عن الطقس في البداية، لكن تعود عليها بمرور الوقت. وواجه صعوبات مماثلة في تعلّم اللهجة، ورغم أنه بذل جهداً كبيراً لكي يتكلم مثل أهل موران، إلا أنه لم يستمر في المحاولة، لأن ذلك الإبليس، مالك الفريح «قعد لي ركبة ونص» كما يقول الحكيم، فإذا لم يسخر من لهجته بشكل مباشر، فلا بد أن يلفت نظر الآخرين، الأمر الذي جعله في وقت مبكر يعزف عن الاستمرار في هذه المحاولة البائسة. قال لنفسه بكثير من الثقة: «ما داموا يفهمون ما أقوله وأفهم ما يقولون فإن كل شيء عدا ذلك نافلة».

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن صعوبات الأكل واللباس والعادات، لكن استطاع بالمثابرة والإصرار أن يتعود على الكثير منها، وأقنع نفسه بعدم جدوى التعود على الأشياء الأخرى، وانتهى إلى صيغة ارتضاها لنفسه وألفها منه الآخرون.

حين يتذكر الحكيم الأيام الأولى، ويتذكر الفترة الأخيرة، يعترف بثقة أنه قطع مشواراً طويلاً. فإذا سئل عن المدة التي قضاها، وكيف توافرت له كل تلك المعلومات عن موران، يشعر بالغبطة حين يرى الدهشة على وجوه سامعيه، فيبالغ في استعراض ما يعرف، وتزداد دهشة الذين يتابعون ويسمعون.

رغم هذه الحصيلة من الخبرة والمعرفة، فإنه يعترف لنفسه، في لحظات معينة، أو على التحديد في لحظات الخيبة، أنه لا يفهم بالمقدار

الكافي طبيعة الناس: كيف يفكرون، لماذا يسلكون بهذا الشكل، ما هي حقيقة عواطفهم ومواقفهم. فهم بمقدار البساطة التي تميز سلوكهم وأقوالهم وردود أفعالهم، فإنهم شديدو المكر، أقرب إلى الغموض. أو مثلما قال في وقت مبكر: انهم مثل الصحراء التي يعيشون فوقها، إذ بقدر ما تبدو الصحراء بسيطة، مكشوفة، متشابهة، فهي خادعة، غدارة، ولا يمكن للإنسان أن يستحوذ عليها. ويتذكر الهدوء المخاتل الذي ميز بعض رحلاته، وكيف انقلب فجأة إلى هوج ماحق. بل ويستغرب كيف قدّرت له النجاة. ورغم أنه متعلم، وسافر وتجول وقرأ الكثير عن الصحارى، إلا أنه لا يعرف إلا مقداراً بسيطاً قياساً لأولئك البدو الصامتين الضامرين، الذين كانوا يرافقونه في رحلاته، ويبدون وكأنهم خرس، أو فقدوا القدرة على الكلام، لكنهم في الوقت ذاته يملكون فراسة ملعونة أقرب إلى غريزة الحيوان، ولولا تلك الفراسة التي تميزهم لهلكوا، فهي التي جعلتهم قادرين على البقاء كل تلك السنين، ومكنتهم من الاحتيال على هذه الصحراء القاسية الغادرة.

هذا الشك الذي سيطر على الحكيم وميز علاقاته ونظرته هو الذي جعله قليل الثقة بالآخرين، فقد حرص، منذ البداية، على أن يبقى بعيداً «لأن البدو إذا أخذوا وجهاً طمعوا» وكان يضحك ويضيف: «لا تدل الشحاد على باب دارك».

الآن وهو يستعرض الوجوه والتجارب، ثم النتائج التي توصل إليها، يزداد اقتناعاً وتأكداً، إذ لو لم يكن على هذه الدرجة من اليقظة والحذر لهلك منذ وقت طويل.

إن ذلك جزء من تاريخه الذي يحاول أن ينساه، أو يهرب منه، لذلك لا يتردد في الاعتراف لنفسه على الأقل، أنه وضع ثقته بأناس أثبتت الأيام أن تلك الثقة لم تكن في مكانها، وهذا ما جعله يتغاضى عن ملاحظات زيد الهريدي، أو عن بعضها على الأقل، ويعتبر أن دوافعها الشعور بالخيبة، وبالتالي لا يبرئ نفسه من المسؤولية.

كان مستعداً لأن يبدأ من جديد، وهذا ما دعاه للمجيء والسكوت، وما دعاه أيضاً لأن يتصرف بتلك الطريقة.

حتى اليوم الذي وصل فيه الأمير مجحم كانت الصورة له مفهومة ومبررة. أكثر من ذلك بدا له أن السلطان يستجيب لأفكاره ومقترحاته، ثم فجأة يتغير كل شيء. ماذا حصل في تلك الزيارة؟ ماذا قالوا للسلطان وبأي شيء رد عليهم؟ ولماذا كتموا كل شيء عنه؟ قال لنفسه في محاولة لتفسير ما حصل: «العلاقة بيني وبين السلطان لا يمكن لأحد أن يفسدها أو أن يغيرها، لكن ربما مرضي هو السبب». وبدا له هذا السبب مقنعاً. فالسلطان، منذ لحظة التعارف الأولى، وحتى لحظة الغداء مع الأمير مجحم، كان في منتهى الود والثقة، وإذا كانت قد حصلت فجوات صغيرة في موران، عندما انقطع السلطان، ولم يره، فإنه لم ير الكثيرين أيضاً، ولقد كان لتلك المواقف مبرراتها. الآن هو بحاجة إلى الآخرين أكثر من السابق.

ووصول عدلة؟ لقد بالغ في إعطاء أهمية لهذا الموضوع، إنه أمر طبيعي للغاية، فقد زوّج سلمى وهو يعرف أن عدلة أولى الزوجات، ولا يمكن للسلطان أن يتخلى عنها، فهي التي زوّجته بالكثيرات. ويعرف أيضاً أن الشرع ذاته يعطي للإنسان العادي أن يتزوج أكثر من امرأة، فكيف إذا كان سلطاناً، ومثل خزعل بالذات؟ لذا يجب أن لا يعترض. صحيح أن اللياقة تقتضي أن لا يعكر مزاجه في شهر العسل، لكن الظروف الراهنة غير طبيعية، لذلك يمكن فهم الكثير من الأمور، ويمكن أن يتسامح.

ما لفت نظره أن السلطان تغير. في الأيام الأولى وجد للصمت تفسيراً جزئياً، لكن حين يسمعهم يتحدثون باهتمام وانفعال، وما أن يطل عليهم من الباب الجانبي للحديقة الخلفية، حتى يغرقوا في الصمت، ويتبادلوا نظرات لا تخلو من مغزى، ثم يبدأ ضجرهم، وبعض الأحيان ضيقهم، ولا يجدون وسيلة إلا بأن يفضوا الجلسة، انه لا يستطيع أن يفهم ذلك أو أن يجد له تفسيراً مقنعاً.

التقى بالسلطان بعد وصول زوجته عدلة مرتين، وفي المرتين كان السلطان أقرب إلى السهوم، إذ لم يتبادل معه سوى كلمات المجاملة. كانت اللقاءات قصيرة، وغالباً ما يتصرف زيد بطريقة توحي بانتهاء الجلسة، إذ يقول، وكأنه يخاطب الحكيم:

ـ نشوفك تعبان، يا طويل العمر، ويلزم تستريح.

والسلطان الذي كان يجامل حتى الذين لا يحبهم، فيبقى معهم ويتحدث ويسمع، فإنه الآن سريع الاستجابة لكلمات زيد، وكأن تواطؤاً بين الاثنين، إذ يقول:

ـ اللي تقوله يا زيد صحيح، وهذي الديرة هواها غدار، لا ينوم لا في الليل ولا في النهار.

وينهض إيذاناً بانتهاء الجلسة.

لما بدأ الحكيم يطيل إقامته في الحديقة، يرقب الحمام والبلابل، ويعتني بالزهور، لكي لا يفكر بأمور السياسة والمستقبل، بدأ السلطان يطيل إقامته في جناحه الخاص، أو بدأ يطلب أن يوافيه بعض الأشخاص إلى هناك. والحكيم الذي كان في وضع نفسي وصحي لا يمكّنه من المشاركة، لم يكن مهتماً بحضور مثل هذه الاجتماعات، وقدّر أيضاً أن الحاجة إليه ستضطرهم للاستعانة به. كان يقول لنفسه «أنا متأكد أن الأمر لن يطول، وسوف يعود كل شخص إلى حجمه الطبيعي».

لفت نظر الحكيم أن زيداً بدأ ينظر إليه بطريقة مختلفة عن السابق، نفس نظرة البدو، وكأنه يختبره. كان يتطلع إلى عينيه، فإذا التقت النظرات هرب. ولأنه يعرف البدو، وطريقتهم في الاختبار، إذ يخافون أن تفضحهم عيونهم، فإنه اذا قبض عليهم متلبسين بهذه النظرات، أو بهذه الحالة، يبتسمون بغباء، في محاولة لأن يموهوا. وحين يُتابعون ويُراقبون يصبحون مضطرين للاعتراف. لقد خبر هذه الحالة مرات كثيرة، ولذلك لا يمكن لنظرات زيد أن تموه نفسها، أو أن تخفى عليه.

وزيد الهريدي.. من هو بالنسبة له؟ انه مجرد مرافق، خادم، شخص عادي. وبالصدفة، أو لسبب ثانوي، أصبح قريباً من السلطان. ولأنه يعرف كيف يكون مخلصاً لسيده، مطيعاً وناقلاً للأخبار والوشايات، ومسؤولاً عن تلبية جميع المطالب والرغبات، فقد أصبح في هذا الوضع الذي يبدو فيه قوياً في الظاهر، لكن قوته محدودة ومؤقتة، وهي مستمدة من السلطان أكثر مما هي قوة ذاتية. ويتذكر الحكيم كيف كانت مواقف زيد تجاه بعض الأشخاص أو بعض الحالات: إذا رأى السلطان غاضباً، أو غير راض، يغضب أكثر منه، ولا يمكن لأحد أن يسترضيه أو أن يتحدث معه. كان يعربد، يهدد، ولا يتردد، بعض الأحيان، في أن يتصرف بحماقة، كأن يشتم ببذاءة أو يجلد، حتى إذا هدأ غضب السلطان، ونسيه، فإن زيداً أسرع منه إلى النسيان، بل ويبدو مستغرباً الغضب السابق!

ليس هذا كل شيء، فزيد لا يعربد، ولا يرفع صوته إلا على من هو دونه، أما من كانت له صلة بالسلطان، أو كان قوياً، فلا يجرؤ على أن يظهر له الغضب. كان يكتفي بالصمت، أو يتهرب منه. حتى إذا انتهت فترة السبات، كما يسميها الحكيم، وعاد السلطان إلى سابق علاقاته ومودته، كان زيد أسبق منه وأكثر احتفالاً.

الآن، في بادن بادن، فقد زيد قدرته على التصرف. يبدو مرتبكاً عاجزاً، ويبدو كل يوم في حالة مختلفة عن حالة اليوم السابق، وكثيراً ما اختلط تفاؤله بتشاؤمه، وغضبه مع فرحه. وفي وقت لاحق بدأ الصمت فالعزلة، كما يفعل السلطان. أما بعد زيارة الأمير مجحم، فإن زيداً تنمر وبدا مختلفاً عن السابق، خاصة تجاه الحكيم.

بعد أيام عديدة من الانقطاع والعزلة والصمت والانتظار، لعل شيئاً يقع ويغير الوضع خلالها، قرر الحكيم أن يصارح السلطان، أن يفضي إليه بأفكاره ومخاوفه، وأن يخلص من هذا العذاب: «لا بد أن أطلعك، يا طويل العمر، على مكنون صدري وهواجسي، ولا بد أن نذبحها على قبلة: إذا أردت مشورتي فأنا جاهز، وقد جئت من أجل ذلك، وإذا كان

لك رأي آخر فسوف أستأذن وأسافر». وتساءل أين يمكن أن يسافر، وحين تذكر كيف أخرج من موران قال بحقد: «لا يهم إلى أين، لأن الأماكن أصبحت متشابهة بعد يوم موران» وشعر أنه أخطأ سواء في إلحاحه على غزوان في المجيء إلى ألمانيا، أو فكرة سفره إلى الولايات المتحدة. قال وهو يهز رأسه «يمكن أن نلتقي في أي مكان. نختار مدينة صغيرة في أوروبا، لا تلفت نظر أحد، ونسافر إليها مثل السياح الآخرين». وأحس بالندم لأنه ترك آلات التصوير القيمة في موران، وكذلك كل ثروته من الصور. قال وهو يزفر: «يجب أن تكون للإنسان هواية تشغله، وكلما كانت الهواية أبسط كلما كان ذلك أفضل».

ومرت في ذهنه هوايات كثيرة شغلت الآخرين، لكنها لم تشغله، بل كان ينظر إليها بازدراء وسخرية: الخيول، السيارات، الصقور، أو جمع قطع السلاح القديمة والنادر «هذه ليست هوايات ممتعة أو مفيدة، انها تشبه القمار، ومن يتعلق بها لا بد أن يدفع ثمنها غالياً» واستعاد ما قاله للسلطان ذات مرة أثناء زيارتهما لحران، قال له أنه سيصدر كتاباً عن حران، وسوف يسميه «مدينة تتكلم» وكان مقرراً أن يكون للصور دور في هذا الكتاب، لكنه لم يواصل الموضوع، تركه لفترة لاحقة يكون خلالها أكثر تفرغاً واستعداداً، ومرت الشهور تبعتها السنوات، ولم يفعل شيئاً.

فكر فيما يجب أن يقوله للسلطان فوجد أن كل شيء غير مواتٍ: «كلانا في ظرف غير طبيعي، لأن الجروح لا تزال طرية، جديدة، وفي مثل هذا الظرف يظهر الأصدقاء وتظهر الصداقة، فإن أطرح عليه تساؤلات وخيارات مثل هذه معناها أني أريد التخلي عنه كما تخلى الآخرون، وليس من الشرف أن أفعل ذلك». وتمنى لو كانت وداد إلى جانبه، لا بد أن تساعده في أكثر من موضوع، يمكن أن تفهم جو السلطان بعد مجيء الأمير مجحم، وبعد مجيء عدلة، ويمكن أن تجعله أكثر استعداداً واستجابة من خلال سلمى، فإذا تحدث معه يعرف ماذا يقول وكيف يقوله. ويمكن أن يتشاور معها بالنسبة لأي موقف قد يتخذه. انه الآن عند مفارق

الطرق، ولا بد أن يختار. وتصورها وغزوان هناك، في موران، ولا بد أن تستعين بمطيع وراتب، وتنظم الأمور بحيث لا تترك فرصة لطامع. وندم أنه لم يعطها أو لم يعط غزوان وكالة عامة. لو أنه فعل لاستطاعا نقل جميع الأملاك إلى أسماء الأولاد. صحيح أن هذه الأشياء شكلية، لكنها ضرورية أيضاً: عمليات بيع أو نقل صورية، فقط لتثبيت الحقوق في هذه المرحلة، وعدم إفساح المجال أمام أي شك أو خوف. أنه يعرف الأمراء، كم هم جشعون ومحتالون. انهم يلجأون إلى الجزرة والعصا، يغرون ويهددون، ولا بد أن يصلوا إلى ما يريدون. الأراضي أكثر ما تغريهم في هذه الفترة. يريدون أن يسجلوا كل شبر في موران بأسمائهم، ولا يشبعون أبداً.

قال لنفسه لكي يتغلب على هواجسه: «الخير فيما اختاره الله، وسفر وداد وغزوان عين الحكمة وقمة الصواب، أما المشاكل الأخرى فلها وقتها».

وفكر أن يؤجل مفاتحة السلطان. سوف يعطي لنفسه وقتاً إضافياً، ربما تتغير الأمور خلاله، وسوف يلجأ إلى أسلوب غير مباشر. فكر أن يستعين بسلمى «لكن هذه الطفلة، منذ أن جاءت الاماية. الكرنيبة، أضيع من الأيتام على مائدة اللئام: ضائعة، خائفة» وعنّ له الاستعانة بشايع السحيمي، لكن تردد، «لأن ما عنده إلا سوالف العربان، وإذا طلع عنها فإلى الخيل، وإذا روّق وجاد يصل إلى داحس والغبراء».

لم يبق أمامه إلا زيد «رغم كل حماقاته فنحن نعرف بعضنا، فإذا تفاهمت معه بشكل رحماني يمكن أن نؤثر على السلطان. أما إذا تمترست وتمترس، ووقعت بيننا، فسوف نخسر كل شيء».

وضحك وهو يتذكر زيداً عندما زاره في حران أول مرة. ويتذكر زيارة ولي العهد إلى حران. كان زيد محرجاً متردداً وهو يطلب منه المقويات. لكنه شجعه إلى أن أصبح طبيعياً، ثم توثقت بينهما العلاقات. وتذكر بعض الهدايا التي جلبها لعدد من الأمراء، ثم فجأة أصبحت من نصيب زيد!

انه يعرف «هذا الحرذون الذي لا يتعب من هز رأسه، والذي يشبه الضفدعة وهو يردد كلمة أقرب إلى الصوت: نعم». لا بد أن يؤثر عليه ويستعيده مهما حاول أن يبتعد. يعرف نقاط قوته ونقاط ضعفه، وهذه المعرفة ستمكنه من إقامة علاقات جديدة وقوية. قال لنفسه: «كم كلمة حلوة، وأنت الأول والتالي يا شيخ زيد، لا بد أن صاحبنا يسخسخ وينبطح، وبعدها يمكن أن يتدوزن ويصير مثل الخلق والعالم».

كانت عينا الحكيم كعيني صقر، ترقبان كل حركة، تتابعان كل شخص، وهدفه زيد الهريدي. لا بد أن تعود العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه أيام موران. وزيد الذي كان شديد الثقة بنفسه، قوياً مهاباً، أصبح الآن مثل المرأة المهجورة: كثير الحركة، ينظر إلى الآخرين بعيون متسائلة، لا يستقر في مكان أو مع جماعة.

لم يخف على الحكيم قلق زيد. قال لنفسه: «ليس الخط المستقيم دائماً أقصر الخطوط». تعمد أول الأمر أن يلتقي به في الحديقة، ثم أخذ يذهب إليه في البناء الجانبي ليشرب عنده القهوة، ويتحدث معه عن الطقس وأمطار الليلة الفائتة. وزيد الذي يستجيب مرة، كان يبدو عليه الضيق والضجر في مرات كثيرة، وغالباً ما يسود الصمت، مما يضطر الحكيم إلى الانسحاب.

بعد أيام من الغزل الناعم، تخير الحكيم وقتاً اعتبره مناسباً وفتح قلبه لزيد:

ـ يا شيخ زيد: رجل ورجل يلتقيان مهما حصل بينهما، أما جبل وجبل فلا يلتقيان، مهما كانت المسافة قريبة...

وحين ينظر إليه زيد باستغراب يتابع:

ـ عندي كلمة والثانية، ولازم تسمعني!

ـ كلي آذان يا أبو غزوان، تفضل، سم.

ـ والحق ما أحد يزعل منه؟

ـ الحق حق يا أبو غزوان، وظني أن اللي يزعل من الحق ما له حق.

ـ بارك الله فيه يا شيخ زيد.

يتنفس الحكيم بعمق، يرفع يديه الاثنتين، وكأنه يوشك أن يطير، ويأتي صوته مختلفاً:

ـ من اليوم الأول كان لازم نقعد أنا وأنت ونتكلم...

ـ بعده ما صار شي، والدنيا بأولها، يا أبو غزوان.

هكذا رد زيد وهو يضحك، في محاولة لأن يشجع الحكيم على الكلام.

تابع الحكيم:

ـ إذا اتفقنا أنا وأنت يا شيخ، إذا صفيت قلوبنا يمكن تتغير أشياء كثيرة وتساعد على عودتنا إلى موران بسرعة.

يقهقه زيد، وهو ينظر إلى تلك الجدية الظاهرة في قسمات الحكيم وكلماته أكثر مما يتطلب الموقف، وبعد قليل يقول وبقايا الضحكة على وجهه:

ـ أنا وأنت، يا أبو غزوان، مثل الجفن والعين، الواحد ما له غنى عن الثاني، واللي بينا أحسن ما يكون، إلا ما حرّم الله.

ـ يا شيخ زيد...

ويهز رأسه حزناً، وكأنه يتذكر أشياء كثيرة، ثم يخرج صوته من صدره:

ـ المصيبة التي أصابتنا يا شيخ زيد كبيرة، أكبر من أن يستوعبها الإنسان أو أن يتحملها، ولازم نعترف أننا كلنا أخطأنا. كنا حسني النية وغافلين، وثقنا بأناس لم يكونوا يستحقون الثقة، ووضعنا أشخاص في مراكز وأماكن وأساءوا إلينا، وربما أكون أحد المسؤولين عن تعيين أشخاص كانوا سبباً فيما حدث...

كان زيد يستمع، يهز رأسه، ومستغرباً أيضاً هذا الحديث، أو ما يريده منه الحكيم. قال محرضاً:

ـ اللي تقوله صحيح يا أبو غزوان... لكن...

ـ المهم، عفا الله عما مضى، نحن أبناء اليوم، ولا بد أن نتفاهم ونتفق!

ـ سم يا مبارك.

ـ طويل العمر ما له أحد غيرنا، ولا يثق بأحد ثقته بنا، ومن رأيي أن كل كلمة تقال له لازم نتفق عليها.

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

ـ وإذا أردت الصدق، يا شيخنا، كل المشاكل اللي صارت إخوة طويل العمر هم اللي وراها، هم السبب...

ـ والحل يا أبو غزوان؟

ـ أن نقطع الصلة بهم، أن نمنع اتصالهم بطويل العمر، وأن نتحمل المسؤولية نيابة عن جلالته.

ـ الرأي رأيه يا أبو غزوان!

وضحك ثم أضاف:

ـ والأخير أن ما نتدخل بين الأخوة يا أبو غزوان!

ـ هذول ما هم أخوة، هذول أعداء، وهم السبب بكل اللي صار.

هكذا رد الحكيم، وقد بدا حانقاً أكثر مما يحتمل الموقف، رد زيد برخاوة:

ـ مهما كان رأينا، يا أبو غزوان، يظل الرأي رأيه والقرار قراره.

ـ لكن ممكن إقناعه...

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ يا أبو راشد... من يوم زيارة مججم والأمور ما عاجبتني، السلطان تغير والدنيا تغيرت، ويمكن حصل شيء أنا لا أعرفه.

ـ أبداً يا حكيم، وأنت تعرف طويل العمر ومودته لك!

قال الحكيم وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا ما فتحنا عليهم النار، إذا ما فضحناهم يتغدونا قبل ما نتعشاهم.

ـ وتريدنا نشتمهم ونقول عليهم فلاني وتركاني؟

ـ بعد اللي صار كل شيء مسموح وضروري، خاصة إذا كنا في حالة الدفاع عن النفس واستعادة الملك.

ـ لكن جماعتنا قالوا من قبل يا أبو غزوان: جيب المجنون وسبّ أهله وشوف جنونه من عقله، وظني أن طويل العمر ما يوافق ولا يعطي على أخوته وأهله.

ـ اذا كل يوم والثاني مطرّشين لنا خبر أو رسول، وحنا شغلتنا نضرب أخماس بأسداس وننتظر، تراها راحت علينا.

ـ وكّل الله يا أبو غزوان.

ـ والله، سبحانه وتعالى، قال: اعقل وتوكل، ما قال بس توكل!

اعتبر الحكيم أن هذه الجولة من المناقشة تمهيدية، ولا بد أن يحاول مع زيد مرة أخرى، في وقت آخر، وسوف يلجأ إلى أسلوب جديد إذا لم يُجْدِ هذا الأسلوب.

في المساء ذاته، وهو يجلس مع السلطان وزيد في الحديقة، ولم يجدوا الكثير ليقوله أحدهم للآخر، خيم صمت أقرب إلى الكآبة. أكثر من ذلك بدا السلطان أقرب إلى المرض، كان أصفر الوجه على زرقة، ربما نتيجة التعب أو بسبب تضخم الكبد الذي يعاني منه منذ فترة طويلة. وإذ تطلع إليه الحكيم في محاولة لأن يقرأ في وجهه ما إذا كان المرض يعاوده مرة أخرى أو مجرد الإرهاق، فقد أجفل السلطان من ذلك التحديق، وحين سأله الحكيم ما إذا كان يشكو من ألم أو من تعب رد السلطان بسرعة أقرب إلى العصبية:

ـ أبد. . . أبد وأشوف حالي زين والحمد لله!

قال الحكيم بطريقة جليلة:

ـ درهم وقاية خير من قنطار علاج، والأخير، يا طويل العمر أن تأخذ دواء ليوم أو ليومين.

ولم ينتظر الحكيم، إذ نهض مسرعاً، دخل إلى القصر، عاد بعد دقائق حاملاً علبتين من الدواء.

قال للسلطان وهو يبتسم:

ـ الدواء الأصفر، يا طويل العمر، حبة واحدة قبل كل وجبة، وهذا الثاني الدواء الأحمر، حبة صباحاً وحبة قبل النوم.

تطلع السلطان إلى الأدوية وتطلع إلى زيد. كانت النظرات التي تبادلاها تحمل معاني لا حدود لها، معاني التساؤل والخوف والريبة وعدم الارتياح، سأل السلطان وهو يتناول العلبتين ويقلّبهما:

ـ ورأيك هذا الدوا ضروري يا أبو غزوان؟

ـ مجرد احتياط يا طويل العمر.

ـ احتياط؟

ـ مثل ما قلت لك، يا طويل العمر، درهم وقاية خير من قنطار علاج!

سأل زيد بارتياب:

ـ عطيت طويل العمر من هذا الدوا قبل هالمرة؟

ـ الدوا الأصفر أخذه جلالته من قبل، والدوا الأحمر منشط ومقوي.

قال السلطان ساخراً:

ـ النشاط والقوة من الله!

وبعد قليل قال لزيد مازحاً:

ـ وأنت يا زيد يلزمك دوا ينشطك ويقويك!

رد زيد بدعابة:

ـ الأخير يا طويل العمر أن نظل على صومنا، وإذا أفطرنا بديرتنا أو بهذي الديرة أبو غزوان نشامة وما يقصّر.

بمثل هذه الدعابة انتهت جلسة السلطان، قام إلى جناحه، وبعد قليل اعتذر زيد أنه متعب ويريد أن يستلقي على فراشه. والحكيم الذي كان ينوي متابعة حديث الصباح، خاصة بعد الجو المرح الذي تولد في

اللحظات الأخيرة، شعر بهبوط وخيبة أمل لانسحاب زيد، قال في نفسه معزّياً «ألذ طعام ما ينضج على أهدأ نار وان غداً لناظره قريب».

الظلمة تتسلل بخفاء ثم تتكاثف، ومع الظلمة يظلم قلب الحكيم أيضاً. كان يشعر بإنقباض إلى درجة الكآبة. ودّ لو أن أحداً إلى جانبه. كان يريد أن يتكلم، أن يستمع، أما أن يكون وحيداً ومتروكاً، أن يرقب من بعيد حركات الحرس، أن يرى هذه الخطوات البطيئة الثقيلة، أو أن يتابع الشرفات والأضواء، ويركز نظراته على البناء الجانبي لعل زيداً يخرج مرة أخرى، فإن هذه المهمة بمقدار ما تشغله تدخل الضيق إلى صدره؛ أنه الوحيد بهذا الشكل، حتى الحرس وهم يتحركون، وهم يتبادلون الكلمات، يشعرون أن وضعهم أفضل من وضعه، فهم يفعلون شيئاً نافعاً، وأكثر حرية منه. لقد أصبح زائداً في هذا المكان، لا يفعل شيئاً ولا يفيد أحداً. والأسوأ من ذلك لا يعرف إلى متى!

لماذا أصبحت الأمور بهذا الشكل؟ وشعور الضيق والخيبة هل يقتصر عليه أم يطال الجميع، ولذلك يتصرفون بهذه الطريقة؟ قال في نفسه وهو يزفر: «الهزيمة تولد الهزيمة، والناس المهزومون أسوأ الناس تصرفاً وفي جميع الأمور، وعلى الإنسان أن يفهم هذه الحالة، وأن يقيس الأمور على نفسه وعلى وضعه».

وبهدوء أقرب إلى الهم والتعب نهض.

وهو يدور في غرفته راودته الرغبة أن يتصل بموران، أن يسمع صوت وداد وغزوان، أن يتحدث إليهما، سوف يقصر حديثه على الصحة والأحوال، ولكن بالتأكيد سيكتشف من الكلمات أو ظلالها الوضع كله، وسيعرف ما إذا تحسنت الأمور أم لا تزال تراوح مكانها.

لكنه في اللحظة التي مد يده إلى التلفون شعر بالتردد: «يمكن أن أخلق لهما إشكالات هما في غنى عنها، ويمكن أن يساء فهم هذا الاتصال هنا وهناك» ولم يطل به الأمر، صرف النظر عن الموضوع انتظاراً لوقت آخر. وفكر أن يتصل بصفاء، أن يسأله عن سمة الدخول إلى الولايات

المتحدة، لكنه وجد الأمر مبكراً وفيه تسرع أقرب إلى الخفة «سوف يسيء فهم هذه الرغبة، وقد يعتبرها طيشاً». وقرر أن يؤجل الموضوع إلى حين عودة غزوان، أو يترك صفاء ليتصل بنفسه ويبلغه النتائج. فكر لو يتصل بأولاده في لبنان، لكن وجد أن الوقت متأخر ولا يجوز أن يوقظوا من نومهم في هذه الساعة ليسألهم عن صحتهم وأحوالهم!

ولا يعرف كيف عنّت له تلك العجوز في هامبورغ. تراءت له من جديد ومعها القطة التي كانت لديها. كانت أفضل من حاله الآن، القطة تشغلها، تتحدث معها، تقلق من أجلها. ويتذكر تلك النظرات الغاضبة حين اختفت القطة. ود لو يتصل بها في هذه الساعة، ويشرح لها أنه بريء، لا علاقة له البتة باختفاء القطة. سوف تفهم موقفه الآن، بعد أن زال الغضب، وبعد أن مرت سنوات كثيرة على ذلك. ربما ربت قطة أخرى أو كلباً، ولا بد أن تكون قد نسيت الموضوع كله ولكن هل تتذكره؟ هل تحفل الآن، بعد مرور هذه السنين، أن يشرح لها موقفه ويعلن براءته؟ وماذا يعني كل ذلك، خاصة ضمن الظروف التي يعيشها؟ كان يتمنى أن تكون بداية العلاقة الجديدة بينهما كتابه حول نظرية المربع أو حول تاريخ موران. هل يليق به أن يحدثها الآن عن القطة الضائعة؟ لا بد أن تفسر موقفه على أنه سخرية جديدة تضاف إلى الإساءة السابقة. لن تفهم حقيقة دوافعه، ولن تتصور أن يتصل بعد سنين طويلة ليعتذر عن خطأ نسيته بكل تأكيد.

وهو يدور في الغرفة، وتدور في رأسه الأفكار والخواطر والرغبات، رأى صينية الطعام على الطاولة الجانبية. منذ فترة مرضه وهو لا يغيّر عشاءه: قطعة من الجبنة مع قليل من الخضرة والفاكهة، وقطعة من الخبز. لم يجد في نفسه رغبة للأكل، لكن تراءت له البلابل والحمام على شباكه منذ الصباح.. فتح النافذة وبدأ يقطع الخبز قطعاً صغيرة ينشرها على الافريز. سوف تأتيه الطيور في الصباح الباكر، سوف تتدافع على حافة النافذة وتصطدم بالزجاج. ستوقظه حركتها وعراكها وهي تلتقط قطع

الخبز. إنه ما زال نافعاً، وهناك من ينتظره. هكذا قال لنفسه وهو يواصل بلذة تفتيت قطع الخبز. ويجعلها صغيرة قدر ما يستطيع.

كان يواصل هذه المهمة بلذة حين لمح زيد الهريدي يدخل القصر. نظر إلى ساعته، كانت قد تجاوزت الحادية عشرة ببضع دقائق!

لماذا جاء في هذه الساعة؟ هل جاء لأمر عاجل أو بناء لطلب السلطان؟ هكذا تساءل باستغراب.

لم يمض على مجيء زيد نصف ساعة حتى جاءته سلمى. كانت خائفة، أقرب إلى الاضطراب. بدت له أكبر عمراً وأكثر هماً من أية فترة سابقة. تأكد أن أخباراً خطيرة تنتظره، فان يجيء زيد، وأن تجيء سلمى، وأن يكون وضعها بهذا الشكل، فلا بد أن تكون هناك أحداث كبيرة حصلت.

تطلعت إليه وظلت صامتة، وظلت خائفة. سألها بعصبية إن كانت هناك أحداث جديدة وقعت في موران. هزت كتفيها دلالة أنها لا تعرف. سألها عن أمها وعن غزوان، قلبت شفتيها أنها لا تعرف. سألها لماذا هي خائفة ومصفرة الوجه، انتفضت وقالت انها لا تعرف. سألها ما بها، تنفست ملء صدرها وقالت ان السلطان جاءها إلى غرفتها وقال لها كلمة واحدة، وحين لم تفهم هذه الكلمة قال لها: إذهبي إلى أبيك لكي تفهمي معنى هذه الكلمة.

ارتجف الحكيم وخاف. تقدم نحوها، وضع يده على كتفها ودفعها برفق لكي تجلس على حافة السرير. كان قلبه يرتجف. لأول مرة، بعد تلك الليلة في موران، يشعر، مجدداً، بالخوف. استجابت له وجلست على حافة السرير. كانت خائفة أيضاً. نظرت إليه بسرعة. كانت عيناها عيني حمامة، كانت تهرب من نظراته، بل وتخاف منه، وكانت تريد أن تفعل شيئاً. لاحظ ذلك من حركة قدميها، إذ كانت تحركهما حركة عصبية سريعة. حاول أن يهدئها، لكنه نفسه لم يكن هادئاً أو قادراً على القيام بهذا الدور. تلفت حواليه عدة مرات. مرت في رأسه أفكار كثيرة. شعر بحقد

على وداد، لماذا تركته وحيداً يداري أموراً لا يعرف بها. للحظة خاطفة تصور أن سلمى حامل، وجاءت لتبلغه، وتصور أشياء أخرى أيضاً، لكنه لا يعرف كيف يسألها أو كيف يفهم منها.

جلس إلى جانبها على السرير، نفض يديه من بقايا الخبز، وحين شعر بنسمة باردة قام وأغلق النافذة. لما رجع، وقبل أن يجلس من جديد سألها:

ـ ماذا قال لك؟

قالت وخرج صوتها مرتجفاً:

ـ قال لي: أنت طالز، أنت طالز، أنت طالز!

وردد بصوت خفيض لنفسه الكلمة لكي يستوعبها: أنت طالز. دارت عيناه في محجريهما دورة كاملة. أغمض عينيه قليلاً لكي يعيد ترتيب الحروف، ولكي يضعها في سياقها، وحين تبدت له تلك الكلمة مدّ شفته السفلى مثل مجداف استغراباً ودهشة وألماً، وبعد لحظة سألها:

ـ وقالها ثلاث مرات؟

ـ أي نعم.

ـ وقال لك إذهبي لأبيك؟

ـ أي نعم.

زفر كما يزفر حوت، وبعد قليل، خرج صوته من أعماق صدره:

ـ بسيطة!

بخوف ممزوج بالارتجاف تطلعت إليه لكي تعرف معنى الكلمات التي قالها السلطان. حاول أن يبتسم. كانت ابتسامته أقرب إلى الحزن، ومليئة بالبلاهة. وضع يده على كتفها وشد على الكتف دلالة المودة. قال وهو يرفع يده الأخرى لكي يتنفس براحة:

ـ بسيطة يا بنتي، خلصنا.

وحين خيم الصمت، قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ هذا الزواج كان من أوله غلط.

ولم يجدا شيئاً يقولانه. غرقا في حالة من الكآبة والتفكير. لم يعرفا ماذا يتكلمان أو ماذا يفعلان. عاد الحكيم إلى أول أيامه في موران. أيام كان في حران وحيداً، كان قوياً وواثقاً. وعاد إلى الأيام الأولى في موران العاصمة. يوم جاءت سلمى، والأولاد ووداد، وكيف تصرف وكيف تصرف الآخرون. تذكر كل شيء، شعر أن حياته كانت تافهة، دون معنى. والآن. .؟ ماذا يستطيع أن يفعل الآن، بعد أن انهارت كل آماله وأحلامه؟ ولماذا يبقى هكذا فقط ليتلقى المصائب واللطمات؟ ولماذا ارتكب تلك الحماقة وزوجها للسلطان؟ وهل كان يستطيع أن يرفض؟ جاءه حماد لا ليسأله عن موافقته أو رفضه، وإنما لكي يبلغه أن السلطان يريدها ولا شيء غير ذلك. والآن، ماذا يستطيع أن يفعل؟

وهو في هذه الأفكار والهواجس دُقّ الباب، قام بنفسه وفتحه. كان زيد يملأ الباب، تنحى له، دون كلمات، وأشار إليه أن يدخل.

كان زيد يحمل صرة تملأ كفه المفتوح، وباليد الأخرى علبتي الدواء. نظر إليهما الحكيم ونظر إلى زيد. بدا له، للحظات، أنه يرى هذا الوجه لأول مرة. بدا له غريباً وأقرب إلى الشبح، ولم يفهم شيئاً.

الصمت ثقيل موجع، الرجلان يتبادلان النظرات ولا يفعلان شيئاً آخر. سلمى ترقب المشهد ولا تصدق عينيها. النور يتراقص وكأنه يوشك على الانطفاء، أو هكذا تراءى للحكيم. الأفكار تتراكض في رأسه كأنها الخيول الجامحة. لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يقول. بعد وقت بدا طويلاً وقاسياً خرجت كلمات زيد وكأنها تخرج من بئر:

ـ هذا الصداق وهدية. . وهذا الدوا طويل العمر ما يحتاجه.

ومد إليه بالصرة وبعلبتي الدواء. لا شعورياً تناولها الحكيم، لكن في اللحظة التالية سقطت من يده الصرة محدثة رنيناً مكتوماً، أما علبتا الدواء فقد شد يده عليهما بقوة.

تراجع زيد خطوة إلى وراء. التفت أكثر من مرة، قال وهو يتطلع بطرف عينيه نحو سلمى:

ـ ويقول طويل العمر: إذا جاء الألماني نكلفه يلقي لها بيت!

وتحرك زيد من جديد إعلاناً عن انتهاء مهمته. قال الحكيم وخرج صوته مسكيناً:

ـ لي طلب واحد يا زيد. . .

ـ سم يا أبو غزوان.

ـ إذا كان في أحد يوصلني لمحطة القطار.

ـ هالحين؟

ـ أي نعم، هالحين، وأنا جاهز وسلمى جاهزة.

ـ خلنا للصباح يا ابن الحلال.

ـ لا يا زيد هالحين أحسن.

قلب زيد شفتيه وهز يديه وكتفيه دلالة الدهشة والاستغراب، وقال وهو يخرج:

ـ بسيطة. . خير.

قال الحكيم بلهجة حازمة مخاطباً سلمى:

ـ حطي على كتفك شي يا بنتي وخلينا نمشي.

ومثل حمامة خائفة قامت. مشت أمامه، وفي نهاية الممر فتحت خزانة الثياب. أخرجت معطفاً وشالاً. لبست المعطف وعلّقت الشال بأسنانها خلال اللحظات التي استغرقها ارتداء المعطف، ثم تناولته ووضعته على يدها وسارت وسار وراءها!

الحكيم، وهو يدلف إلى فندق ستراسبورغ، القريب من محطة القطار في جنيف، في ذاك الصباح الباكر، وسلمى تقف على مبعدة خطوتين منه، وقد بدت خائفة، أثار الاستغراب والفضول معاً. وقبل أن يجيبه موظف الاستعلامات ما إذا كانت لديه غرف، وإنه مستعد لاستقبالهما، نظر إليه نظرة طويلة متأملة، ثم نظر إلى سلمى وابتسم. أما حين سأل عن الأمتعة، فقد رفع الحكيم يده اليسرى إشارة أن لا أمتعة، فهز الموظف رأسه دلالة أنه فهم الموقف كله! ولما تناول جوازات السفر وسجل الأسماء بدت عليه الدهشة، لأن الكنية واحدة، وفارق السن كبير إلى درجة لا تصدق!

قضى الحكيم ثلاثة شهور وبضعة أيام في تلك الغرفة المتواضعة، المطلة على شارع جانبي، والتي تواجه مجموعة من النوافذ القريبة لبيوت أقرب إلى الفقر، لم يطلب الحكيم تغييرها ولم تفكر إدارة الفندق بذلك.

وإذا كان أي نزيل، في أي فندق، يصبح مألوفاً بعد بضعة أيام، فقد ظل الحكيم يثير التساؤل والاستغراب. صحيح أن له عادات وأماكن لا يغيرها، وأصبح يعرف جميع العاملين في الفندق والجميع يعرفونه، لكن مع ذلك ظلت العيون تتابعه وتراقب حركاته وتصرفاته. حتى الزاوية اليمنى في مطعم الفندق، وقد شغلها صباحاً ومساءً خلال الأسابيع الأولى، كثيراً ما دفع الفضول بعض العاملين لأن يطلوا برؤوسهم ليتأكدوا أنه هناك!

في الثامنة والنصف تماماً يشير المصعد إلى أنه في الطابق الثالث، وفي الثامنة وواحد وثلاثين دقيقة يكون الحكيم أمام الاستعلامات، يلقي التحية،

يدير رأسه في نظرة دائرية واسعة، وكأنه صاحب الفندق، ليتأكد أن كل شيء في مكانه، وليتعرف ما إذا رحل بعض النزلاء أو جاء غيرهم! فإذا اطمأن تخطّر لمدة خمس دقائق في الصالة المقابلة للمطعم، ثم يتوجه بخطوات ثابتة إلى الزاوية ويحتل مقعده، ومن هناك يرقب الباب والمصعد. ولأن الجميع يعرفون أنه ليس وحيداً لا يقتربون منه. عند التاسعة، قبل التاسعة بدقائق أو بعدها بدقائق، تصل سلمى ويُقدّم الفطور. بعد أن يغادرا المطعم يجلسان في القاعة المقابلة، يجلسان صامتين، أو يتبادلان بهمس حديثاً قصيراً وغالباً ما يختار الحكيم الركن القريب من الباب، وراء العمود، ناحية اليسار. فإذا شغله أحد غيره يتضايق، ولا يخفى ذلك، ويظل يرقب المكان إلى أن يفرغ. فإذا فرغ انقضّ عليه كالقط، لأنه في ذلك المكان يشعر بالأمن والراحة. بل أكثر من ذلك يشعر أنه يسيطر ويشرف على كل شيء.

حوالى العاشرة والنصف يغادران الفندق، ولا يعودان قبل الثانية والنصف، إذ كانا يتناولان طعام الغذاء في الخارج، وأغلب الأحيان في مطعم لا يغيرانه، عدا الأيام الممطرة، إذ يضطران إلى البقاء في الفندق وتناول الغذاء أيضاً.

ولأن الحكيم تعوّد في موران أن يقيل لم يستطع أن يتخلص من هذه العادة، رغم أنه لم يتوقف عن لوم نفسه، وبعض الأحيان تعنيفها، «لأن مثل هذه العادات السيئة لا تناسب الأطباء»، حاول أن يتجاوزها لكنه لم يستطع، ولذلك لا بد أن يكسر بعد الغذاء كسرة قصيرة، ولو لدقائق.

بين الرابعة والنصف والخامسة يجلسان مرة أخرى في البهو وفي الركن ذاته، وقد تطول الجلسة إذا كانت برامج التلفزيون مسلية أو اهتم بها أحدهما. لكن في كل الأحوال يجب أن يخرجا لنزهة، ويجب أن يرجعا قبل الثامنة، لأن العشاء يقدم بين الثامنة والتاسعة. وما يكادان يفرغان منه حتى ينتقلا من جديد، إلى البهو، وإلى الركن ذاته أيضاً، ليتابعا من هناك برامج التلفزيون، فإذا لم تطل الأفلام، أو لم يتخلل البرامج شيء مثير،

فلا بد أن ينهضا بين العاشرة والنصف والحادية عشرة، وبعد سماع نشرة الأخبار بطبيعة الحال.

رغم الصرامة التي تبلغ درجة الآلية في مواعيد الحكيم وتصرفاته، والتي كانت تفترض تعوّد الآخرين والفتهم لها، فإن التساؤل لم ينقطع والاستغراب لم ينته. موظف الاستعلامات وهو يرد على تحية الحكيم في الصباح ينظر إلى الساعة المعلقة وينظر إلى ساعته ليتأكد. وخادمة المطعم تطل على الزاوية ذاتها، بكثير من الفضول، صباحاً ومساءً، لتكون أول من يلفت نظر العجوز القابعة وراء النافذة الصغيرة، والتي تقدّم الصحون، أو تتسلم البقايا، وتبتسمان. وجميع العاملين في الفندق، وحتى بعض الذين يقضون فيه أياماً، ينظرون إلى ذلك الركن، وهم واثقون ان الحكيم سيكون هناك!

مدير الفندق وموظفوه الذين ارتابوا بالحكيم في الأيام الأولى، فاحتفظوا بجوازات السفر، لئلا يغادرهم دون تسديد الحساب، اعتبروا أن تقديراتهم خاطئة بعد أن وصلت إليه وبسرعة عشرة آلاف دولار، وصلت قبل نهاية الأسبوع الأول، استبقى الحكيم القسم الأكبر من المبلغ لدى الإدارة، واشترى لسلمى ولنفسه مجموعة كبيرة من الثياب، واشترى حقيبتين كبيرتين، فأعيدت إليه جوازات السفر، مع الاعتذار بأنها استبقيت سهواً! وأصبح يحاسب في نهاية كل أسبوع. ولما تكررت النداءات الهاتفية إلى الولايات المتحدة أو منها، لم يعد موضع شكوك من ناحية ملاءمته المالية. أكثر من ذلك كان لا يُشعر بالحساب إلا عرضاً وببعض الخجل. ولم يتردد صاحب الفندق في أن يخصه بضع مرات بزهور وضعها له في الغرفة وبسلال من الفواكه. وقد سُرّ الحكيم من هذه الالتفاتات وقدرها بامتنان. وكرد على هذه المواقف كان يترك للعاملين هدايا مالية، في الغرفة أو في المطعم.

لو أن الظروف طبيعية لرضي الحكيم بهذه الحياة وهنئ بها، لأنه هنا يستطيع أن ينفذ الخطط التي طالما حلم بها وخطط لها. كان يمني نفسه أن يقضي أياماً هادئة إلى جانب البحيرات أو في أعالي الجبال، لكن مشاغل

موران وهموم الحياة في السنين السابقة جعلته ينسى، أو بالأحرى يؤجل الرحلة إلى أوقات أخرى.

الآن، وهو يخطو أولى خطواته في سويسرا، قرر أن يبدأ من جديد «الوطن وهم كبير، وتكفيني الأوهام التي عشتها في هذه الحياة» وحاول أن يحسب، على وجه التقريب، المبالغ التي سيحصل عليها إذا صفى أملاكه في موران وباعها كلها. وبدا له المبلغ كبيراً إلى درجة يستطيع أن يشتري بجزء منه قصراً ومزرعة في مكان قريب من البحيرة، وهناك سوف يتفرغ للأشياء، التي يحبها: للتأمل ثم الكتابة والتأليف، وسوف ينجز أعمالاً كثيرة أجلها طوال السنوات الماضية. لم يكتف بالفكرة، بدأ ينظر بعين مدققة، وهو يسير في بعض الضواحي القريبة، إلى الفيلات الأنيقة والحدائق الواسعة، ولا يتردد في سؤال سلمى أو استشارتها؛ بل وخطا خطوة أخرى، إذ طلب نصيحة مدير الفندق. ومدير الفندق لم يبخل عليه، بل وأخذ يعامله بطريقة مختلفة عن السابق، وتمادى أكثر من ذلك، فسأله ما إذا كان يفكر أيضاً بتوظيف استثماراته في مشاريع تدر أرباحاً كبيرة. وقد أجابه الحكيم إجابات غير نهائية، وان لم يرفض. «حالما تعود وداد سأبدأ الخطوات العملية» لكن وداد لا تعود، وطالت إقامة غزوان في موران أكثر مما قدّر. وصفاء، على الجانب الآخر من المحيط، يطمئن الحكيم، يؤكد له أن «الشغل وحده هو الذي أخّر الأستاذ» «وأن الأستاذ والوالدة بصحة جيدة ويبلغون التحيات والأشواق».

ويواصل الحكيم مشاويره اليومية، يعبر الشوارع القليلة ويدور حول الميدان إلى أن يصل البحيرة، أو يعبر الجسر ليصل إلى البحيرة من الجانب الآخر.

بدأ يتكيف مع الوضع الجديد أو يقنع نفسه بهذا الوضع، تاركاً اتخاذ القرارات إلى وقت آخر: «يجب أن يكون لها رأيها، لأننا صفينا: راسي وراسها، ويجب أن تقرر لكي تتحمل المسؤولية، وليس مثل المرات السابقة».

في بداية الأسبوع الثالث، وحينما كان جالساً وسلمى في إحدى مقاهي الشاطئ، وكان النهار جميلاً والشمس مشرقة، وبدا فرحاً منتعشاً، مرّ اثنان، كانا يتحدثان باهتمام ومنشغلين، لكن فجأة التقت نظرات احدهما بعيني الحكيم، فأجفل قليلاً، توقف للحظة دقق النظر، ثم لفت نظر صديقه، فتطلعا معاً نحو الحكيم.

حصل كل شيء في لحظة خاطفة لم تستغرق أكثر من ثوانٍ، وكان يمكن للأمر أن ينتهي دون أن يخلف أثراً، لكن أن يعود الرجلان خلال ربع ساعة، وأن يجلسا في نفس المقهى، وأن يتبادلا الحديث وينظرا بين فترة وأخرى إلى الحكيم، فقد دخل التوجس إلى قلبه وأصبحت خشيته جدية.

ومما جعله متوجساً أكثر أنهما من موران: الملامح، التصرفات، النظرة. ولم يراوده الشك إنهما ينظران إليه ويتابعانه. تعمد أن يدير كرسيه قليلاً، أن يتحدث مع سلمى، أن ينشغل بمراقبة البحيرة أو العابرين، لكن في لحظة مناسبة، وبطريقة لا تخلو من مكر، كان ينظرَ إليهما، وحالما تلتقي النظرات يهربان، أو يشعران بالحرج!

قبل أن ينهض نهضا، وقفا عند باب المقهى وتطلعا إلى أكثر من اتجاه. تراءى للحكيم أن واحداً منهما تحسس شيئاً تحت سترته، «ربما يكون مسدساً». للحظة رفض أن يصدق، لكن النظرات الشريرة الأقرب إلى الحقد الممزوج بالخوف جعلته يتحسب: «بالتأكيد من موران وأرسلا من أجلي، ولا بد أن أكون مستهدفاً».

لكي يفوّت عليهما خطتهما، ولأنهما لاحظا أنه دفع الحساب، قاما، مال على سلمى وسألها ان كانت تحب أن تتناول مشروباً جديداً، وحين نظرت إليه باستغراب واعتذرت. قال إنه بحاجة إلى فنجان قهوة، لكي يصحو ويروّق، وبعده يغادران. ولم يتأخر إذ طلب من الجرسون أن يأتيه بفنجان قهوة.

خلال تلك الفترة القصيرة فكر كيف يرجع إلى الفندق: «يجب ألا

يعرفا الفندق، هذه هي المهمة الأولى» وتطلع إلى الاتجاه الذي سارا فيه «ويجب أن أغيّر الطريق والاتجاه، إذ ربما كانا يكمنان في أحد المنعطفات» وعليه أن لا يدخل في أزقة جانبية أو مظلمة «لأن القتلة يخافون الأضواء والبشر». وفكر أن يبلغ البوليس، لكن اعتبر الفكرة مبكرة وربما تلفت النظر أكثر مما ينبغي. وشعر بالندم لأنه لم يحمل سلاحاً ولم يحتط للأمر. وحاول أن يعتبر ما حصل مجرد صدفة، لكن كيف يفسر التصرفات كلها منذ اللحظة التي التقت النظرات حتى لحظة المغادرة؟

تراءت له من جديد صورة فنر: وجه خشبي قاسي الملامح، الوجه عنوان الشخصية، لا يحرم ولا يحلل، حتى أخاه غدر به، فكيف الغريب والبعيد؟ «لا يريد أن يقتلني في موران لئلا يتحمل المسؤولية، أما هنا، في سويسرا، على بعد آلاف الأميال، فيمكن أن تتم العملية بسهولة، ودون أن تخلف أثراً: مجرد قاتل مأجور وبضع رصاصات وينتهي كل شيء».

شعر بالانقباض والخوف. لم يكن جباناً إلى هذه الدرجة، لكنه لا يريد أن يموت بهذه الطريقة، أو بهذا المكان، وبهذه السهولة أيضاً!

بعد مرور أكثر من نصف ساعة رجا سلمى أن ترجع بمفردها إلى الفندق، مؤكداً لها أنه سيمرّ على إحدى الصيدليات، وحين أبدت رغبتها بمرافقته، طلب بإلحاح، بأن ترجع قبله، وأكد لها أنه لن يتأخر، ويجب ألا تخاف.

وهو يأخذ الاتجاه المعاكس، ثم ينعطف يساراً، لم يتوقف عن الالتفات. لأول مرة يشعر بهذا القدر من الخوف. لا ليس الخوف تماماً، إنه حالة من العصبية وعدم القدرة على التركيز، مع جفاف في الحلق وسرعة في ضربات القلب. رأى مجموعة من الأشخاص عند باب فندق هيلتون، فانتقل إلى الرصيف الآخر. ولقد لفت نظره أنهم تابعوه باهتمام، فازداد توتره. «كان يجب أن أتصرف بطريقة مختلفة»، هكذا قال لنفسه، وهو يسرع أكثر من قبل ليخلص من هذا الحرج. عندما وصل إلى مفارق الطرق تردد قليلاً، يجب أن يذهب إلى اليسار، ليتجاوز الميدان ويواصل

طريقة، لكن ماذا لو كانا قد تجاوزا الميدان وانتظراه في الشارع المؤدي إلى المحطة؟ ولماذا لا يستقل تاكسي ويصل إلى الفندق؟ ولكن ماذا سيتقول له السائق إذا عرف أن فندق ستراسبورغ على هذه المسافة القريبة؟

انعطف نحو اليمين وأسرع في سيره، التقى بامرأة مسنة آتية من الجهة الأخرى. نظرت إليه باستغراب: هل يبدو غريباً ومثيراً للانتباه؟ هل تظهر عليه علامات تلفت نظر الآخرين؟ قرر أن يبطئ في سيره وأن يعطي وجهه ملامح عادية أقرب إلى عدم الاهتمام. التفت إلى الخلف ليعرف ما إذا كان أحد يتبعه، رأى المرأة تلتفت أيضاً، اضطرب قليلاً: «يمكن أن تبلغ الشرطة وتثير حولي الشكوك». تطلع إلى أعلى، رأى امرأة في إحدى الشرفات تسقي آنية زرع، وقد توقفت حين التقت نظراتها بنظراته، وتطلعت أيضاً نحو المرأة الأخرى. ازداد حرجه. يجب أن يتخلص من هذه النظرات. أسرع مرة أخرى، والتفت إلى اليسار. مجموعة من الطرق المتقاطعة. أين يذهب وكيف يصل إلى الفندق؟ احتار. شعر أنه أخطأ. قال في نفسه: «الطرق الجانبية مصائد والقتلة لا يقتلون إلا في مثل هذه الطرق». وقرر، مرة أخرى أن يندفع إلى شارع رئيسي، لا يهم أن يكون بعيداً. . . لا بل الأفضل أن يكون كذلك، لكي يضلل أي إنسان يتبعه. يجب ألا يخاف الضياع أو عدم إمكانية الوصول إلى الفندق، فما دام يعرف اسم الفندق فإنه قادر على العودة.

انعطف مرة أخرى نحو اليمين؛ لاحظ أن بعض المارة نظروا إليه، اضطرب قليلاً لكنه قرر أن يتماسك، أن يبدو عادياً، بل وفكر لو يدندن بلحن لكي يضفي على ملامحه ونفسيته حالة أقرب إلى الرضى والهدوء، لكن لم يستطع أن يواصل هذه الفكرة، بل وبدت أقرب إلى التمثيل، أو الخفة، وحتى أقرب إلى الرعونة. . وقد تثير الانتباه أيضاً.

لا زال متوتراً مع شيء من الاضطراب، ولا زال حائراً أي الاتجاهات يأخذ أو بأية سرعة يسير. لأول مرة يراقب نفسه، ينظر إلى الوجوه بتساؤل. أبطأ قليلاً ثم أسرع دون أن ينتبه. ما كاد يتجاوز حديقة صغيرة

حتى وجد نفسه يتجه إلى الشارع الموازي للبحيرة، الشارع الذي هرب منه! لم يستطع أن يتراجع، فالرجل والمرأة اللذان خرجا من إحدى العمارات، وكاد يصطدم بهما لحظة خروجهما، أفسحا له الطريق وظلا يسيران وراءه، وأية محاولة للتباطؤ أو العودة ستلفت نظرهما وربما تثير شكوكهما. قرر أن يواصل.

خلال الخطوات المتبقية حاول أن يستعيد ملامح الرجلين، وحاول أن يتذكر ماذا إذا كان الإثنان من هناك. ربما يكون أحدهما من الشرطة السريين الذين رافقوه أثناء تسفيره من موران. للحظة بدا له أنه يعرف واحداً منهما، لقد رآه بكل تأكيد، لكن لا يعرف أين أو متى. ولم يستطع أن يتذكر. لام نفسه على هذا العيب الذي لازمه منذ وقت طويل، إنه لا يتذكر الملامح بدقة، بشكل جيد، لأنه لا يدقق. أكثر من ذلك يتجنب النظر بتحديد إلى الشخص المقابل، ولا يحب أن ينظر إليه الآخرون بتدقيق، وكأنهم يفلّونه أو ينزعون ملابسه. عزا هذا الأمر في وقت مبكر إلى الخجل، وفي وقت لاحق عزاه إلى الهيبة. وتداخلت ملامح الرجلين في رأسه واختلطت ألوان الملابس، بحيث لا يقوى على تحديد صفتها أو لونها لو سئل. قرر أن يتوقف في زاوية الشارع، أن يتلفت في أكثر من الاتجاه، ثم يتظاهر أنه أخطأ، حتى إذا تجاوزه الرجل والمرأة عاد من نفس الشارع ليواصل طريقه نحو الفندق!

بعد أكثر من ساعة من الضياع المقصود وغير المقصود، وبعد أن دخل محطة القطار، وقضى فترة، وكأنه ينتظر مسافراً، وخلال تلك الفترة دقق باهتمام بالذين مروا أو الذين يقفون مثله ينتظرون، فلما اطمأن تماماً اتجه إلى الفندق. سلك إليه طريقاً مختلفاً عن الذي يسلكه كل مرة، وقبل أن يدفع الباب الزجاجي ويدخل، توقف، نظر إلى السيارات المتوقفة، ونظر إلى الشارع في الاتجاهين، ثم بسرعة انزلق كما تنزلق سمكة.

سلمى تلبد في الركن ذاته بخوف، وقد ازداد خوفها لما رأته، وهو يرتمي على المقعد القريب. سألته إن كان مريضاً أو يشكو من شيء، هز

رأسه بالنفي، لكنها لم ترفع نظراتها عنه، كانت تراقبه. تنظر إليه بتساؤل، وكانت أقرب إلى البكاء.

بعد دقائق أبلغها أنه سيصعد إلى الغرفة ليستريح، وطلب منها أن تتناول الغداء بمفردها في مطعم الفندق، اضطربت، ثم اعتذرت. قالت إنها غير جائعة، وحين نهض نهضت معه.

في الغرفة سألته من جديد ان كان مريضاً أو بحاجة إلى مساعدة من أي نوع، فرد عليها إنه متعب ولا شيء غير ذلك، وسوف يستعيد نشاطه خلال فترة قصيرة. تذكرت مرضه في بادن بادن فخافت أكثر من قبل. قالت من الأفضل أن يراجع الطبيب. هز رأسه ولم يجب.

حاول أن يتماسك، أن يبدو قوياً. طلب من إدارة الفندق غداء لواحد وكأساً من العصير. بعد إلحاح كبير منه مدت سلمى يدها إلى الطعام. كان يراقبها وهي تقضم قطعة الخبز، وهي تمد يدها بتردد. لم تأكل إلا كما يأكل عصفور، وكانت تشرب الماء بعد كل لقمة. شعر بحزن. حاول أن ينام لكي ينسى، لكن النوم لم يطاوعه ولم يأته. تقلب كثيراً، غيّر وضع الوسادة، استرق نظرات إلى سلمى، رآها تراقبه. خجل. عزا عدم قدرته على النوم إلى فنجان القهوة.

حين نهض من الفراش فعل ذلك بحيوية أقرب إلى العنف، ليضفي على حركاته، ونفسيته شيئاً من العنفوان، ولكي يقاوم الخوف الذي يطوّقه. لكن هذه الحركات أفزعت سلمى أكثر مما طمأنتها. أما وهو يعود من الحمام، بعد أن اغتسل، فقد سألها بشكل مفاجئ:

ـ ما رأيك بهذي اللحية يا سلمى؟

ومسّد على لحيته. كانت عيناه تحوّمان، وكأنه يفكر بشيء آخر. قلبتْ سلمى شفتيها دون أن تجيب. تابع:

ـ انها تلفت نظر كل من يتطلع إليّ؟

هل هي الحمى عاودته من جديد ولذلك يتكلم حول موضوع لم

يخطر ببالها؟ وشكله الآن هل يزعجه إلى هذه الدرجة؟ تجاوزت الأمر وسألته أن تحسن وكيف هو الآن، رد بمرح:

ـ النوم والحمام الساخن أحسن الأدوية لمعظم الأمراض!

حاولت أن تصدق، أن تبتسم، لكنها كانت متأكدة أنه لم ينم لحظة واحدة. وبعد الحمام يحدّثها عن اللحية! تابعت حركاته بتدقيق لتتبين وضعه، قال وكأنه يحاول إقناع نفسه:

ـ يجب أن أتخلص منها...

وبعد قليل وبنبرة مختلفة:

ـ إذا مو اليوم اللي بعده!

ظلت تتطلع إليه وهي صامتة، فلم تكن تفترض أن أسئلته بحاجة إلى إجابات، بل أكثر من ذلك تبدو لها غريبة وكأنها نتيجة الحمى. قال وقد أحس بهواجسها:

ـ الواحد يزهق إذا ظل بشكل واحد!

وقهقه وهو يضيف:

ـ أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وحين هدأ:

ـ إذا كانت اللحية لازمة وضرورية لموران، فعصر موران انتهى، ولازم تنتهي معه كل مستلزماته!

وهو يستعد للخروج رسم على وجهه ابتسامة كبيرة، شد جسده وتطلع إلى نفسه في المرآة. ابتسم بمرح فاطمأن قليلاً، تلفت إلى الاتجاهين لكي يتأكد. حين أغلق الباب، لم ير أحداً ولم يسمع حركة. قال في نفسه «الانتباه والحيطة ضروريان دائماً» قبل أن يضع المفتاح لدى الاستعلامات ألقى نظرة فاحصة مدققة على القاعة ونحو الباب. بدا له كل شيء عادياً، وركنه فارغاً يستعد لاستقباله. ابتسم أكثر مما تعود، رفع يديه في الهواء أكثر مما يفعل في حالات مماثلة وتنفس!

خلال الفترة التي كانا يتابعان سيرك فرانكفورت، كان يغيب في أعماق موران وفي أعماق ذاكرته لكي يستعيد الوجوه. الألوان والملامح تتشكل تدريجياً ثم تعتكر وتتلاشى. حتى ملامح فنر تغيب، تتراءى له في لحظات معينة ثم تتداخل مع ملامح الآخرين، فلا يعود قادراً على استعادتها مرة أخرى.

في أحد المشاهد، ومروّض الفيلة يفرقع سوطه، ويدور بسرعة، تراءى له شبهاً تاماً بين المروض واحد الرجلين. ارتجف قليلاً وغرق في مقعده لا إرادياً وكأنه يتخفى، ثم استدرك وانتبه أن ما يراه مجرد سيرك. فكر لو يقترب أكثر لكي يتأكد، لكن اعتبر الأمر هراء ولا يستوجب منه هذا الانشغال، تحرك في مكانه ليشعر سلمى أنه مستعد للحركة.. انتبهت فجأة، تطلعت إليه، قال لها وهو ينهض:

ـ كلها مسخرة، ضحك على الذقون!

ولا شعورياً تلمس لحيته، ثم أنزل يده بسرعة، بعد أن استعاد ما قاله. قامت وتحركا!

كانت تملؤه فكرة واحدة: أن يصبح شخصاً آخر، شخصاً جديداً!

بصمت ودراية سار ومشى إلى نهاية الشارع وانحرف يميناً، تجاوز مجموعة المطاعم ثم انحرف يساراً، وبعد أن سار بعض خطوات أخرى دخل محلاً صغيراً، دخل بحزم وتصميم: مجموعات كبيرة من القبعات بأشكال وألوان لا حصر لها. كانت سلمى تقف إلى جانبه بترقب واندهاش: ماذا يريد؟ هل يفكر بشراء قبعة؟

جرب عدداً كبيراً من القبعات إلى أن استقر على واحدة، واحدة تلبس رأسه تماماً، أما حافتها المائلة على شكل هلال فإنها تحجب جبينه كله وتنزل حتى الحاجبين. تأكد أنها تلائمه حين نظر إلى نفسه في المرآة مواجهة وبشكل جانبي. ولكي يطمئن أكثر سأل سلمى إن كانت مناسبة أم لا، ردت بأن رفعت شفتها السفلى دلالة عدم المعرفة. ولكي لا يترك لنفسه مجالاً للتردد أشار للبائع أنه يريدها، ويريد واحدة أخرى. ساعده

البائع في انتقاء الثانية، بعد أن عرف أي نوع من القبعات يناسبه أو يريده.

سارا في شوارع جانبية لم يمرا فيها من قبل، شعر الحكيم بالثقة. كان يرفع رأسه قليلاً لكي ينظر إلى وجوه الذين يمرون به. أخذ يراهن نفسه أنه يستطيع أن يعرف الأشخاص دون أن ينظر إلى وجوههم. وراهن نفسه أيضاً أن يحزر أطوال الذين يمر بهم وألوان شعورهم، بمجرد أن ينظر إلى الأرجل أو إلى السيقان، أو حتى إلى الأحذية! كان إذا مرّ رجل أو امرأة يخمن كيف يكون، وما يكاد يتجاوزه حتى يلتفت لكي يتأكد!

سلمى تلتفت إليه بين لحظة وأخرى. تتابع حركاته وانفعالاته والتفاتاته وقد امتلأت بالتحسب. لماذا يفعل هكذا؟ ماذا حصل له؟ لم تستطع أن تسأله أو تتكلم معه، فقد كان مستغرقاً في هذه المهمة، يمارسها بشغف، ولا يحس بنظراتها أو بنظرات الآخرين!

حين عاد إلى الفندق، بعد هذه الجولة، كان أكثر اطمئناناً. أما حين رآه العاملون في الفندق وقد اعتمر، بزهو، القبعة وكان حريصاً على أن تظهر، فقد استغربوا، لكنهم اكتفوا بالابتسام!

لاحظ الاستغراب والابتسامات لكنه لم يحفل. المهم ألا يعرفه أحد، «سوف أضلل حتى العفاريت» قال لنفسه، وهو ينتزع القبعة ويضعها على ركبته. نظر إلى لونها، إلى مدى ملاءمتها لملابسه، ثم استخرج القبعة الثانية ولبسها. كان يفعل ذلك بلذة، دون أن يأبه للنظرات التي تتابعه.

قال لمدير الفندق في اليوم التالي، لما رآه ينظر إلى القبعة ويبتسم وكان يهز رأسه:

ـ تعوّدنا في بلادنا أن نغطي الرؤوس، ومنذ أن وصلت إلى سويسرا أشعر أنني عار بدون غطاء للرأس، ولذلك اشتريت هذه القبعة!

وافقه المدير وأضاف أن كل شيء في هذه الحياة عادة!

ومع القبعة، في الأيام التالية، نظارات سوداء وعصا، هي بين العكاز والبسطون، فبدا أكثر اطمئناناً، لكن أصبح أكثر إثارة لانتباه الآخرين. ولكي يحارب هواجسه وشكوك الآخرين، لا يتردد، في بعض الحالات،

أن ينتزع القبعة أو النظارات السوداء، لكن حين يفعل ذلك يضطرب، يحس أنه مكشوف!

ويزداد حرصاً وحذراً يوماً بعد يوم، ويشتعل ذهنه في ابتداع وسائل جديدة للتخفي: «أكبر خطر يتعرض له الإنسان أن يعرف خصومه نظامه اليومي» «أفضل طريقة لتضليل الخصوم أن لا يكون لك عادة، لأن العادة، كما يقول الفلاحون فضّاحة، وأن لا يكون يومه مثل أمسه». وبطريقة لا تخلو من المكر يتفتق ذهنه عن عشرات الوسائل: لا تخرج في ساعة محددة؛ لا تتبع نظاماً ثابتاً؛ لا تترك أحداً يعرف كيف تفكر أو ماذا تفعل؛ لا تتعود على أمكنة أو تعوّد الآخرين أن يجدوك هناك؛ لا تدخل إلى مكان قبل أن تعرف كيف تخرج منه ساعة الخطر أو عند الضرورة؛ اعتمد دائماً على عنصر المفاجأة والمباغتة؛ اترك المكان دون أن يحس بك أحد.

كتب الحكيم هذه الوصايا وأخرى كثيرة غيرها. وسلمى التي ترقب أباها مهموماً مشغولاً، وتراه بين يوم وآخر يغير عاداته وشكله، لا تعرف ماذا حلّ به، وإلى متى سوف يستمر.

في الصباح، يطلب المصعد، فما يكاد يصل حتى ينزل الأدراج على قدميه، أو ينزل إلى الطابق التالي ويأخذ المصعد من هناك. الذين تعودوا على رؤيته في الثامنة والنصف، أصبحوا يلاحظون نزوله في أوقات مختلفة. ومع هذه الاحتياطات، فإنه كل صباح يسأل إن جاء للفندق ضيوف من موران، ورغم معرفته بالجواب، كان يتظاهر بالأسف، لأنه ينتظر مثل هؤلاء الضيوف!

والزاوية على يسار الباب يجلس فيها مرة ويهجرها مرات. ومغادرة الفندق ليس لها موعد ثابت، وكذلك العودة. أما الأبواب الجانبية للفندق فقد تحراها بنفسه، وسأل أيضاً إن كانت هناك أبواب للطوارئ أو لإدخال المؤن. وسأل عن موعد إغلاق الباب الرئيسي. فعل كل ذلك بطريقة غير مباشرة ولاتخلو من مكر.

بعد أن يتأكد من الاحتياطات التي اتخذها يشعر بالثقة، بل ويشعر

بالقوة أيضاً: «عقل الإنسان قادر على اجتراح المعجزات، وباستطاعته التغلب على اعتى الخصوم». يرفع ساعديه قليلاً، دون أن يترك لأحد ملاحظته، يتنفس ملء رئتيه، يستعجل سلمى بالخروج، وقد تهللت أساريره، وبدا إنساناً مختلفاً عن الأمس أو الأيام السابقة. تتطلع إليه سلمى لتتأكد، لتعرف ان كان يعني كلماته. وفي الشارع يحدثها عن البيت الذي سيشتريه:

ـ يجب ألا يكون على الضفة ولا في أعلى الجبل. على الضفة: الرذاذ، الرطوبة، رائحة الماء، كلها تؤذي الجسم، تجعله كسولاً؛ أما إذا كان عالياً فسوف يكون معزولاً وبعيداً وبارداً...

ويبتسم وتتغير لهجته:

ـ خير الأمور الوسط!

ويعود إلى اللهجة السابقة:

ـ أن يطل على البحيرة. لكن بعيداً عنها. ويجب، من ناحية الجبل، أن يكون محاطاً بسور عالٍ وبسياج من الأشجار الكثيفة والدائمة الخضرة، لأن السور والسياج يمنعان نظرات المتطفلين والمتسكعين ومضايقات الجيران أيضاً!

ويجيل نظراته في البيوت على التلال المحيطة بالبحيرة، يشير بإصبعه الممدودة إلى عدد منها ويقول:

ـ مثل هذه!

وتتطلع إلى حيث يشير لكن لا ترى!

يتابع كأنه يحدّث نفسه:

ـ ولازم يكون عندنا كلب أو أكثر، كلاب ألمانية أصلية، لأنها أحسن الكلاب للحراسة، ومطيعة، ولازم نربيها على أيدينا حتى تألفنا وتسمع كلامنا.

وحين يراها صامتة لا تعلّق ولا تسأل يتبسط في الحديث أكثر من قبل:

ـ طبيعي لازم تكون مدربة، لأن تدريب الكلاب عملية ما هي سهلة، ولازم نعطيها أسماء جديدة، أو يمكن تركها بأسمائها أحسن ما تضيع عليها وتتخربط.

ويتنفس ملء رئتيه فيخرج صوته مختلفاً:

ـ ولازم تكون بوابة الفيلا قوية، مثل بوابات القصور...

ولما يرى في عينيها الاستغراب والتساؤل وهي تنظر إليه يستدرك:

ـ طبيعي السرقات في سويسرا قليلة، والجرائم قليلة أيضاً: الناس شبعانة وراضية، ولذلك فالدنيا أمان، لكن الاحتياط ضروري.

ولا شعورياً يلتفت حواليه، يحس بقشعريرة باردة، يتابع باضطراب:

ـ ولازم يكون عندنا حارس وخدام وطباخة، لأن الواحد منا ما راح يشغل نفسه بالأشياء الصغيرة: افتح الباب، سكر الباب، أو بالمسح والكناسة أو بحمل الأغراض من السوق...

وتتغير اللهجة:

ـ هذه الأشياء لها أصحابها.

وما يكاد يعبر الجسر ويصل إلى الضفة الثانية من البحيرة ويدخل إلى الأسواق حتى يضطرب قليلاً: «جماعتنا ما عندهم همّ إلا الأسواق، فإذا ضيّعت واحد لا بدّ تلقاه في السوق!» ويحاول أن يفكّر بأمور اخرى، ان يشغل نفسه بواجهات المحلات لئلا تلتقي نظراته بواحد يعرفه. كان يلفت نظر سلمى إلى الأزياء، إلى الأحذية، يحضها على الشراء، لكنها تكتفي بكلمة:

ـ اللي عندي يكفيني!

حين جلسا في مقهى، قريباً من الجسر، نظر بعناية إلى الوجوه. لاحظ وجود شاب أسمر، وقد تطلع إليه وإلى سلمى، وابتسم. هذه النظرة مع الابتسامة أقلقت الحكيم أكثر مما اسعدته: «لأبد أن يكون من هناك، وربما عرفني». تعمد الحكيم أن يعطيه ظهره، وألا يلتفت. بعد قليل،

وحين استرق إليه نظره لم يجده: «بالتأكيد إنه واحد منهم، وربما ذهب بسرعة ليبلغهم بوجودي». ارتجفت يده بفنجان القهوة. خجل حين رأى سلمى تتابعه. قال ليفسر الأمر:

ـ المسكة ما هي مضبوطة!

ابتسمت موافقة. قال وهو يقرب رأسه من رأسها:

ـ والواحد، يا بنتي، إذا ما كان في بيته، وإذا ما نام على مخدته، وإذا ما أكل من الأكل اللي يحبه بيتعب، تتوتر أعصابه، خاصة إنه ما عندنا شغل إلاّ نازلين بالشاي والقهوة. . . والانتظار.

وبعد قليل وبعصبية:

ـ لازم نحكي معها اليوم ونقول لها اتركي كل شي وشرفي يا خانم، ارجعي!

كان متلهفاً لأن يحدثها، لكنه ظل متردداً، حتى ذلك اليوم، في الاتصال بموران لئلا يخلق متاعب أو شكوكاً هو في غنى عنها. ووداد لا تتصل، لا تسأل. بل أكثر من ذلك يبدو أنها لاتنوي المجيء خلال فترة قريبة. وإذا غادرت موران سوف تذهب إلى الولايات المتحدة. قال له صفاء إن بطاقة الطائرة ذهاب وعودة إلى الولايات المتحدة. «لماذا ترجع إلى أميركا؟» وهو، إلى متى يبقى ينتظر ولا يعرف شيئاً مما يحصل؟

قال لسلمى، وقد حاصرته مخاوف كثرة:

ـ اشربي العصير بسرعة وخلينا نمشي.

ـ أنا حاضرة يا بابا!

ردت بصوت مرتبك وكأنها تدافع عن نفسها، أو تثبت له براءتها.

لم ينتظر لكي يحاسب الجرسون، ترك له المبلغ على الطاولة وخرج.

كان يود أن يتناول الغداء، هذا اليوم، في المدينة القديمة، بناء لنصيحة مدير الفندق، لكن اعتبر تطبيق النصيحة مغامرة غير مأمونة النتائج «ماذا لو كان ينتظرنا وتابعنا؟» «ماذا إذا اتصل بالآخرين تلفونياً وأبلغهم أننا

في المكان الفلاني؟ سنكون صيداً سهلاً، ولن يتاح لنا مجرد محاولة الدفاع عن النفس». ولم يتردد كثيراً، أخذ سيارة أجرة وعاد رأساً إلى الفندق!

وزيادة في الاحتياط، وبحجة الاتصال بموران، طلب الغداء للغرفة، قال لموظف الاستعلامات، بعد أن انتزع، بعصبية، القبعة ثم انتزع النظارات ووضعها في داخلها:

ـ هذا رقم منزلي في موران، وأريد منك أن تؤمن لي اتصالاً عاجلاً!

تأمل الموظف الرقم كما يتأمل لوحة لأول مرة، بعد أكثر من شهر، يتصل بموران، يتصل بمنزله. سأله الموظف في محاولة للتأكد:

ـ هل نطلب شخصاً محدداً؟

للحظة خاطفة ارتبك الحكيم، لكنه استدرك بسرعة:

ـ لا... لا يهم، يمكن أن أتحدث مع أي كان!

أثناء تناول الطعام، فجأة رن جرس التلفون. اضطرب الحكيم كثيراً، وكأنه لم يكن يتوقع. أشار إلى سلمى أن ترد، لكنه قرر في اللحظة الأخيرة أن يرد بنفسه.

بعد الكثير من الجهد، ورغم ارتباك الخط، فقد اضطر الحكيم أن يضع منديلاً على سماعة التلفون لكي يخفي صوته! فهم من أبي عبد الله أن وداد غير موجودة في المنزل، وأن غزوان سافر قبل يومين. أما حين استوضح منه متى تعود معلمته فقد رد أبو عبد الله أنه لا يعرف، ولم يشأ الحكيم أن يطيل، كما لم يشر إلى أنه هو المتحدث، وإن بدا، في لحظات معينة، وبشكل ما، أن أبا عبد الله عرف!

لما عادا لمتابعة تناول الطعام لم يجد الحكيم رغبة في ذلك. كان محروراً، نزقاً، وأقرب إلى الغضب، لكنه حاول أن يكتم عواطفه. تظاهر أنه يأكل. كان يلوك اللقمة، يحركها من مكان إلى آخر، لكن لا يقوى على ابتلاعها. قال في نفسه: «ماذا حلّ بهذه الدنيا حتى يصبح الناس هكذا؟ ومن هم الناس؟ الزوجة والأبناء!».

قال لسلمى وقد شعر بالكآبة:

ـ لازم تكون أمك عم تركض من مكان لمكان حتى تأمّن الرزقات!

هزّت رأسها دلالة الموافقة وهمهمت بكلمات غير مفهومة. تابع:

ـ لكن الحق على غزوان. . .

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

ـ كان لازم، الله يصلحه، يمرّ، يسأل؛ كان لازم يجي حتى نتفاهم، لكن أذن من طين وأذن من عجين.

وهزّ رأسه بلوعة:

ـ وبعدين، بعد الأخطاء والكسل، يعبطنا بضحكاته، مثل ضحكات الحشاشين، ويقول: بسيطة يا بابا، ولا يهمك يا بابا، ولا كأننا عم نتقلى على الجمر، ولا كأن وراءنا ألف مشكلة ومشكلة.

وتغيّرت لهجته، أصبحت أقرب إلى العتاب:

ـ شو بيخسر لو فتح تلفون؟ لو قال: يا بابا أنا بالمحل الفلاني؟ لكن مثل أمه قلبه بارد، ولا هامه شي أبداً!

قالت سلمى بانكسار:

ـ يمكن مشغول يا بابا!

ـ شو مشغول؟ ما بيقدر يفتح تلفون؟ ما بيقدر يقول صار معي كذا وكذا وأنا بالمحل الفلاني؟ احنا مو طالبين منه شيء، بس حتى نطمئن، حتى نعرف!

وبعد قليل ويحزن:

ـ لكن بسيطة، لما نلتقي!

انتظر إلى ساعة متأخرة وطلب مكتب غزوان. جاء صوت صفاء قوياً واضحاً:

ـ الأستاذ سيرجع بعد يومين أو ثلاثة أيام.

ـ ولكنه غادر موران!

سيتوقف ثلاثة أيام في لندن ويوماً في نيويورك، قبل أن يصل إلى سان فرانسيسكو.

ـ ثلاثة أيام في لندن؟

ـ هكذا أبلغني عندما غادر موران.

ـ وما عرف يشرّف لعندنا؟

ـ والله ما عندي فكرة يا حكيم.

ـ وأم غزوان، يا صفاء؟

ـ أم غزوان بقيت في موران.

ـ طيب عندك تلفون غزوان في لندن؟

ـ لا والله يا حكيم، ومن أول أمس ما اتصل.

ـ والحل يا صفاء؟

ـ اللي تشوفه يا حكيم.

ـ طيب، يا ابني، إذا اتصل بك، إذا عرفت هوّ وين، خليه يتصل بي.

ـ أمرك يا أبو غزوان، على عيني ورأسي.

ولم يشأ أن يتصل بموران في هذه الساعة المتأخرة من الليل. شعر بغيظ شديد لأنه عاجز ومنسيّ، ولا يفعل شيئاً سوى انتظار الآخرين. قال في نفسه: «أصعب شيء بالنسبة للإنسان أن ينتظر، وأصعب انتظار انتظار من لا يتذكرك ولا يحس بك». حاول أن ينام، لكن تلك البراكين التي تغلي في داخله تؤرقه، تجعله نزقاً وأقرب إلى الغضب. بعد أن تقلب مرات لا حصر لها، وبعد أن تأكد من نوم سلمى، نهض إلى الحمام. نظر إلى وجهه في المرآة. بدا له الوجه حزيناً إلى درجة القهر: التجاعيد، علامات الزمن، البياض يغلب السواد في اللحية، ثم ذلك الاستسلام الذي تنطق به الملامح. انتفض فجأة، سيطرت عليه رغبة حاقدة أن يفعل شيئاً، أن يصرخ، أن يبكي، أن يحطم المرآة، لكنه لا شعورياً أمسك بالمقص، وبطريقة قاسية مرّره من أسفل الذقن حتى شفته السفلى فتساقطت كمية

كبيرة من الشعر، وبدا مشوهاً أو كالغنم المقصوصة في بداية الربيع. ابتسم بتشف، ثم التقط ماكنة الحلاقة وأتى على اللحية كلها. كانت الشعرات تتكسر، كان يسمع صوتها بلذة، كان يتابع سقوطها في حوض الماء، فلما أتى عليها كلها بدا وجهه غريباً وأقرب إلى وجوه المهرجين، قال وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ آخر رابطة بموران وبالعصر الحجري!

فزعت سلمى لما رأته في الصباح. قال وهو يبتسم:

ـ عصر موران، بالنسبة لنا، انتهى يا سلمى، انتهى ولازم ننتهي من كل مظاهره وآثاره، وإنشاء الله ما يمركم شهر إلا ونصفي أملاكنا وجميع ما لنا في موران وننتقل إلى مكان آخر، ونبدأ من جديد وكأن موران ما كانت!

وفجأة أصبح حزيناً، قال بانكسار:

ـ الحق علينا، أنا وأمك لأن هالجيزة ما كانت لازمة لك يا بنتي، لكن كل شيء في هذه الدنيا قسمة ونصيب، وإنشاء الله ما يمر كم شهر إلا وننسى، وكأنه كان حلم، أو كأنه ما صار.

حاول أن يبتسم، لكن فكيه كانا يؤلمانه، ربما من تأثير إزالة اللحية، قال بحزن: :

ـ الإنسان في هذه الحياة مسيّر لا مخيّر، ولا يستطيع أن يعمل ما يريد.

وحاول أن يبتسم وهو يضيف:

ـ لكن بسيطة، يا سلمى، ومن هذه الساعة أي شيء بتريدي، أي مكان بتحبي، على عيني وراسي، بس اطلبي وتمني.

أحنت رأسها بانكسار ولم تجب، قال برجاء!

ـ بدي ترضي يا سلمى، بدي منك تسامحيني، وتنسي كل اللي صار.

ـ أمرك يا بابا.

ـ لا . . . عن جد، وبدون أية مجاملة.

ـ خلص يا بابا.

ولكي يضفي جواً من الحبور بدأ يدندن:

يـــا دنـــيــــا يـــــا غـــرامــــي يــــا دمـــعـــي يـــا ابـتــســـامــي

مـــهـــمـــا كـــانـــت آلامـــي قـــلـــبـــي يـــحـــبـــك يـــا دنـــيـــا

ورافقه جو المرح وهو يطلب المصعد، وهو ينزل إلى البهو. وحين ألقى التحية ورآه الآخرون دون لحية، استغربوا، لكنه لم يكترث، لم تفاجئه نظراتهم ودهشتهم، كان مستعداً لها، أو بالأحرى غير آبه بها. أكثر من ذلك أحس أنه إنسان جديد، أو لم تعد له صلة بالإنسان الذي كانه.

استمر هكذا ثلاثة أيام.

في اليوم الرابع جاءه صوت غزوان. كان واثقاً ومرحاً:

ـ ألو بابا؟ سلامات يا بابا.

ـ الله يسلمك يا غزوان. . كيف حالك يا غزوان؟

ـ عال العال يا بابا. وإنت وسلمى؟ كيف حالكم؟ مشتاقين لكم كثير كثير والكل بيسلموا عليكم وبيسألوا عنكم.

ـ الله يسلمك يا غزوان، وكيف حال الجماعة هناك؟ كيف حال الوالدة؟ إجت معك؟

ـ لا . . . ظلت بموران.

ـ وليش ما إجت معك يا غزوان؟ ليش ما رجعت؟

ـ مشاكل وأشغال كثيرة يا بابا.

وبعد قليل:

ـ ولازم أحد يتابعها، يبقى قريب منها، حتى ما تضيع.

ـ طيب وهي قادرة؟

ـ هناك، يا بابا، عمو راتب، ومطيع وحماد، كلهم مستعدين للمساعدة. ووعدوا.

ـ طيب وإلى متى راح تبقى؟

ـ حسب التساهيل يا بابا.

ـ طيب. وإنت ليش ما شرفت لعندنا؟

ضحك غزوان ضحكة رنانة قبل أن يجيب:

ـ إلي الشرف يا بابا، بس...

ـ بس شو؟

ـ الوقت والمواعيد يا بابا!

ـ يعني بخلت علينا بيوم يومين؟ يعني مواعيدك أحسن وأهم منا؟

ـ أستغفر الله يا بابا، بس إنت بتعرف...

ـ لا باعرف ولا بدي أعرف..

ضحك غزوان من جديد لكي يتغلب على غضب أبيه، وبعد قليل:

ـ لو كنت محلي، يا بابا، كنت عذرتني، كنت شفقت على حالتي، لكن بسيطة.

رد الحكيم وقد تراجع غضبه:

ـ طيب.. ومتى راح تشرف لهون؟

ـ حسب رغبتك وأوامرك يا بابا.

ـ إذا كان حسب رغبتي، رغبتي اليوم قبل بكرة.

ـ بس بدك تسامحني بكم يوم حتى ارتب أموري ومواعيدي، وراح أخطف رجلي كم يوم للبرازيل، لأن هناك عندي أشغال ضرورية، إنت تعرفها، ولا يمكن أن تؤجل، وعلى ضوء نجاحنا فيها كثير أمور تنحل وتتيسر.

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ فهمان عليَّ يا بابا، وإنت معي، موهيك؟

ـ يعني كم يوم؟ إلى متى يتحمل شغلك ومواعيدك؟

ـ لو كنت بيدي، تتوقف عليّ يا بابا، كان شفتني عندك في لمح البصر، لكن الأمور متعلقة بالخلق، والمواعيد مرتبة قبل شهرين ثلاثة، وعلى نتائجها يتحدد مستقبلنا لسنين وسنين!

ـ فهمت عليك يا غزوان، بس أنا وسلمى مشتاقين وبدنا نعرف أخباركم.

ـ سلمى حواليك يا بابا؟

ـ أي نعم وبدها تحكي معك.

ناولها السماعة بيد مرتجفة. كان يريدها أن تتكلم، أن تضحك، أن تعبر عن فرحها، لكنها صوتها الصغير، الأقرب إلى الحزن، وتلك الإجابات القصيرة الخجولة، جعلاه يرتبك، ابتسم ببلاهة ليشجعها على الابتسام، طلب منها أن ترفع صوتها لكي يسمعه غزوان، وقال بالكلمات والإشارات أن تطمئنه. حاولت، لكن بدت خائفة ولا تملك شيئاً تقوله. حين نظرت إليه بتساؤل استرد السماعة:

ـ نسيت أسألك، يا غزوان، شو أخبار موران؟ كيف الوضع هناك؟

ـ ماشي الحال يا بابا، والأصدقاء سلموا عليك، سألوا عنك..

ـ مين شفت؟

ـ شفت كثيرين، يا بابا، شفت الكبار والصغار، ما ظل حدا إلا وشفته.

ـ يعني كوَّنت صورة، أخذت فكرة؟

ـ أي نعم.

ـ يعني في أمل؟

ـ بس نلتقي بنحكي يا بابا!

ـ والكبير؟ شفت الثور الكبير؟

ـ بس نلتقي بنحكي.

ـ يعني خايف؟

ـ أبداً، لكن للحيطان آذان، يا بابا، والأحسن أن نؤجل الموضوع.

ـ طيب سألوك عني؟ سألوا أنا وين؟

ـ سألوا، قلت لا أعرف أي شيء!

ـ خير، شو بدهم مني؟ لسّه بعدهم وراي؟

ـ لا يخفي عليك يا بابا: أولاد الحرام كثار، والجماعة هناك ما عندهم إلا اللت والحكي، وإنت تعرف أن المقروض من الحبل يخاف!

ـ بس لعلمك، يا غزوان، إذاتصوروا أنهم يخوفوني غلطانين، فشروا، وأنا لا أخاف إلا من رب العالمين، وكلهم على صرمايتي!

ـ ما في من هذا كله يا بابا، والجماعة هناك يذكروك بالخير ويعرفوا أفضالك!

ـ يا سيدي لا بدي ياهم ولا بدي يذكروني، المهم ينسوني، ولا كأني كنت، والواحد إذا عمل الخير لا ينتظر عليه الأجر، وأنا عملت خير ورميته في البحر، ما انتظرت الاعتراف بالجميل ولا بالشكر، ومع ذلك الأيام بيّنا، بسيطة!

ضحك غزوان في محاولة لأن يغير الجو، وأضاف بعد قليل:

ـ بسيطة يا بابا والموضوع كله ما بيحرز.

ـ يا سيدي بسيطة، هذا ما هو أول خازوق، ولا راح يكون الأخير، واللي يعيش ياما يشوف!

رد غزوان وهو يقهقه:

ـ واللي يلفّ يشوف أكثر، هيك قالوا يا بابا!

قال الحكيم وقد بدأ يسيطر عليه الغضب الممزوج بالخوف:

ـ اتركنا من هذا يا غزوان.. أنت. امتى جاي؟

ـ مثل ما قلت لك يا بابا، ابو اسبوع اسبوعين.

ـ ما ممكن أبكر؟

ـ أحاول يا بابا، وإذا خلصت أشغالي ومواعيدي أبكر ما تشوفني إلا وأنا عندك. .

ـ طيب يا غزوان، لا تقطعنا، اتصل باستمرار، وإذا اتصلت بالوالدة سلّم عليها وقلها ما تطوّل!

ـ أمرك يا بابا، وراح اتصل باستمرار. تصبح على خير، وسلم لي على سلمى!

ـ دير بالك على حالك يا غزوان ولا تطول علينا، وفي أمان الله!

ثلاثة أسابيع من الانتظار والقلق والتخفي. ثلاثة أسابيع طويلة، اتصل الحكيم خلالها بسان فرانسيسكو عدة مرات. تحدث مع غزوان مرة، ولم يجده في المرات الأخرى، وقد أبلغه صفاء أن الأستاذ سيعود بين يوم وآخر، وأنه حجز له مرتين إلى جنيف وألغى الحجز في آخر لحظة لأمور طارئة. واتصل الحكيم أيضاً بموران. تحدث إلى وداد مرة واحدة، ولمدة دقيقة ثم انقطع الخط. وفي المرة الأخرى تحدثت سلمى فقط، وقد أكدت وداد أن الأمور تسير بشكل جيد ولا داعي للقلق، وأشارت، بشكل خفي، أنه من الأفضل أن يتم الاتصال عن طريق غزوان، ولم توضح أكثر من ذلك!

إذن هم لم ينسوه؟ بل أكثر من ذلك يلاحقونه، وإلا لماذا تحدث غزوان بهذه الطريقة؟ وهل يخاف منهم وهو على بعد آلاف الأميال لو لم يكن الأمر جدياً وربما خطراً أيضاً؟ ووداد.. إنها لا تريد أن يتصلوا بها، تريدهم ألاّ يعرفوا مكانه. لو لم تسمع شيئاً وعرفت مدى خطورته لبادرت بنفسها إلى الاتصال، لكنها فضلت أن يتم كل شيء عن طريق غزوان.

وتأكد له أنه يحبها أكثر من قبل. إنها تحرص عليه إلى درجة أن تقطع الخط حين تقدر أنهم يمكن أن يكتشفوا صوته. وتلجأ إلى هذه الطريقة غير المباشرة. حتى وهي تحدث سلمى، وقد استنتج ذلك من إجابات سلمى، تحيل إلى المسائل اليومية التي لا تثير شكوكاً من أي نوع، وكانت تريدها ألا تطيل، أما وهي تسألها عنه فقد قالت: «كيف الجماعة عندك» لم تذكره بالاسم متعمدة، ولم تشأ أن تتحدث معه، رغم معرفتها أنه قرب سلمى، وأنه كان يتلهف لأن يتحدث معها. إنها حصيفة وذكية إلى درجة يمكن أن

تمرر أصعب القضايا دون أن يحس الطرف الآخر.

قبل ساعة من وصول طائرة غزوان كان الحكيم ينتظر في قاعة انتظار المسافرين بمطار جنيف. وقبل ذلك بساعات كان قد استعد تماماً: أبلغ الفندق بحجز غرفة «والأحسن أن تكون إلى جانب غرفتنا، أو على الأقل في نفس الطابق». نظر إلى نفسه في المرآة عدة مرات، كما عدّل وضع القبعة، إذ رفعها قليلاً، خلافاً للمرات السابقة، كما يفعل عادة في ساعات الراحة، أو حين يكون في حالة من حالات الانسجام، وقرر ألا يضع النظارات، لكن مع ذلك احتفظ بها في جيبه حيطة. وطلب من سلمى، وعلى شكل أمر «أن تفرد وجهها وأن تبتسم» أما العصا فقد تردد في أخذها أو تركها، وحين طلبت له الإدارة سيارة أجرة تركها عند موظف الاستعلامات!

ساعة طويلة من الانتظار الممض. حاول خلالها أن يشغل نفسه بمراقبة المسافرين، والتطلع إلى واجهات المحلات في المطار. أعاد ترتيب الأفكار والقضايا التي سيناقشها مع غزوان، كما لفت نظر سلمى أن تسترخي وأن تبدو طبيعية وسعيدة!

رغم الاستعداد والتهيؤ النفسي فوجئ الحكيم بكل شيء: فغزوان تغير كثيراً منذ أن رآه آخر مرة. أصبح أكثر سمنة وبرزت الصلعة أكثر من قبل. كما أنه لم يكن وحيداً، كان إلى جانبه، وعلى بعد نصف خطوة تقريباً، صفاء الشلبي، ومن الجهة الأخرى، فتاة شقراء جميلة في نحو العشرين أو أكثر قليلاً. وقد كان الثلاثة من أوائل المسافرين الذين هبطوا من الطائرة.

ماذا... هل تزوج وجاء ليقضي شهر العسل في سويسرا؟ لماذا لم يقل أو لم يشر إلى ذلك مجرد إشارة؟ أيريد أن يفاجئ الجميع أم يضعهم تحت الأمر الواقع؟ ويتزوج امرأة أجنبية؟ كيف سيتفاهمون معها وماذا سيكون رأيها فيهم؟ والأطفال؟ والمستقبل؟

ولم تقتصر المفاجأة على الحكيم، فغزوان الذي تطلع في وجوه المستقبلين، مرّ على وجه أبيه دون أن يتوقف عنده. وكذلك فعل صفاء.

أما سلمى التي كانت تقف إلى جانب أبيها فلم تتردد ولم تنتظر، إذا نادت على غزوان ثم هجمت عليه. اختلطت القبل بالدموع بالابتسامات، بتساؤلات الدهشة عن السمنة والقبعة والأشواق. وخلال دقائق طلب غزوان من صفاء والفتاة أن يهتما بالحقائب، وأن يلتحقا بهم في سيارة ثانية.

في فندق البوريفاج، حيث توجهوا، كان جناح وغرفتان قد حجزت لغزوان، وحين أشار الحكيم إلى أنه حجز له غرفة في فندقه، رد غزوان بمرح «أن الحجوزات والمواعيد وجميع الإجراءات الأخرى تمت من سان فرانسيسكو، ودون مشقة».

وأضاف بعد قليل في محاولة للتفسير:

ـ وفي هذه الفنادق تسهيلات خاصة لرجال الأعمال من حيث الاتصالات والطباعة وترتيب المواعيد والخدمات.

على الطاولات الجانبية، في الغرفة المخصصة للاستقبال، باقات من الزهور صُفَّت بعناية في أوانٍ من الكريستال القديم. وفي وسط القاعة، على طاولة دائرية، سلة كبيرة مليئة بأنواع الفاكهة. ما كادوا يدخلون حتى استقبلتهم موسيقى ناعمة، وكأنها آتية من مكان بعيد. كل شيء ناعم ويوحي بالاسترخاء، لكن في داخل كل منهم حمى تفور وكلمات كثيرة يجب أن تقال، ومع ذلك يحاول كل منهم تأجيلها أو خلق الجو المناسب لقولها.

أكثر من ذلك يحس الحكيم بالإضافة إلى التفجر الداخلي أنه موضع السخرية، فتأخر غزوان ليس الشغل والمواعيد والبرازيل وإنما الغرق في الأشياء الصغيرة، وبدل المشاركة في المأساة التي تعيشها العائلة يختار هذا الوقت للزواج، ولا يكتفي بذلك، يأتي بزوجته إلى سويسرا ليقضي شهر العسل!

بعد الابتسامات والنظرات المتسائلة، ودون تمهيد سأل الحكيم:

ـ من هي البنت، بالخير، اللي معك، يا غزوان؟

فوجئ غزوان بالسؤال واستغرب، ولما أدرك مخاوف أبيه أو شكوكه قهقه وهو يجيب:

ـ هذي سكرتيرتي يا بابا!

ـ سكرتيرتك؟

هكذا تساءل الحكيم، وكان في تساؤله ما يشبه الاستنكار والسخرية، رد غزوان:

ـ ونحتاجها كثير يا بابا، لأنها متخصصة بالعقود السرية، وتحسن عدة لغات إضافة إلى الاختزال.

ـ عال العال.

وبعد قليل:

ـ طمئنت بالنا، الله يطمّن بالك!

ـ والا . . . شو افتكرت؟

ـ بهذه الأيام ما عاد ينحرز يا غزوان . . . كل شيء ممكن!

قهقهة غزوان في محاولة لأن يقضي على جو المخاوف والقطيعة والحزن، ثم تقدم نحو سلمى، ضحك ومازحها وبعد قليل التقط قبعة أبيه، وكانت على مسند المقعد، قلّبها بعناية، وخرج صوته وكأنه يخاطبه:

ـ أشياء كثيرة تغيرت منذ آخر مرة التقينا!

ـ ولسّه أشياء كثيرة راح تتغير . . .

قصد الحكيم، تلميحاً، أكثر من موضوع، ولم يكن متعجلاً لأن يخوض فيها فوراً. رد غزوان بمكر:

ـ سنة الحياة، ولا يمكن أن تبقى الأشياء كما كانت، لا بدَّ أن تتغير.

ـ ومع ذلك نحن أبناء اليوم، وإذا كان للماضي فائدة فلأنه درس، لكن المهم اليوم وبكرة، أي نعم. . اليوم وبكرة!

ولكي يتغلب الحكيم على انفعالاته سأل غزوان عن صحته وأشغاله، وسأله عن الوالدة، ومتى يمكن أن تعود. وغزوان الذي كان يوزع نظراته

بين أبيه وسلمى، وكأنه يقرأ في وجهيهما عذاب الفترة الماضية، أجاب بمرح عن الأسئلة، مؤجلاً أية مناقشة، وراغباً بخلق جو يساعده على الوصول إلى النتائج التي يريدها.

بوصول صفاء واليانور دب المرح وتغير الجو. أفاض صفاء بالحديث عن عدد المرات التي حجزت فيها مقاعد الطائرة والغيت، وأن الأستاذ غزوان لم يسترح أكثر من اربع وعشرين ساعة بعد عودته من البرازيل، وإن الرحلة كانت مريحة وأسرع من المرة الماضية لأنها مباشرة.

اليانور أشرفت على إدخال الحقائب ثم التفت إلى الزهور، وقد وزعت ابتساماتها أثناء ذلك بسخاء، وكانت تبدو طبيعية وبسيطة.

الهدايا التي حملها غزوان كثيرة ومتنوعة، وكانت حصة سلمى هي الكبرى، وقد شاركت اليانور في تقديمها وعرضها، وبدت خلال ذلك بسيطة وشديدة الحيوية، إذا كانت تضع على صدرها أو على كتفها الفساتين والبلفورات، وتحمل من الحقائب ما يناسب الأحذية، في محاولة لإقناع سلمى بحسن الاختيار ومدى الملاءمة. وسلمى التي كانت بين الفرح والخجل لم تعرف كيف تعبر أو من تشكر. وقد بدا واضحاً أن اليانور وراء هذه المشتريات كلها.

خلال فترة إحضار الهدايا وتقديمها أبدى صفاء استغرابه إنه لم يوصّ بعد على المرطبات والقهوة، وبعد سؤال سريع عما يفضله كل منهم طلب القهوة للحكيم وللأستاذ ولنفسه وطلب عصيراً لسلمى واليانور. وقد وصل الطلب أثناء ما كانت اليانور تضع على كتفها فستاناً من الحرير الأزرق، وعندما تطلع إليها الجرسون ابتسمت له والتفتت، كأية عارضة أزياء!

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ والحكيم في حالة من القلق والحيرة: ما خطط له خلال أسابيع انهار في لحظة؛ وما تمناه وانتظره طوال شهور تلاشى وتبدد أسرع مما يتبدد الزبد؛ أما الأفكار الكبيرة التي شغلته في لياليه الطويلة ومنعته من النوم فلم تتح له الفرصة لمناقشتها!

لماذا حصل هذا؟ كيف؟ لا يعرف ولا يجد له جواباً.

فبعد أن ارتبك في المطار، وفوجئ، فأجل توجيه الأسئلة، وأجل أيضاً العتاب، خاصة وهو يرى الحفاوة والاهتمام اللذين رافقا وصولهم واستقبالهم في الفندق، بل وكان متأكداً أنهم يعرفون غزوان جيداً. سأله ان جاء إلى جنيف من قبل ومتى، رد غزوان باقتضاب أنه جاء مرتين، لكن لم يبقَ إلا وقتاً قصيراً. وحين أبدى الحكيم استغرابه، ردّ عليه بأن البوريفاج أحد فنادق السلسلة التي تساهم فيها شركته، وقد تأكد الحكيم من ذلك وهو يلمس الأهمية التي يتمتع بها إبنه، خلال حفلة العشاء التي أقامتها إدارة الفندق، وما تخللها من اهتمام ورعاية.. ومرح أيضاً.

في المساء، وهم على الشرفة المطلة على البحيرة، وفي لحظة تخيرها الحكيم، وقد وجد الآخرين منشغلين، قال لغزوان بلوم مشوب بالغضب:

ـ والوالدة.. كيف تركت الوالدة وحدها في موران يا غزوان؟

ولم يتركه يجيب عن السؤال، أضاف بحدة:

ـ مالك حق تتركها وحدها، لأنك تعرف موران وأهل موران: جماعة علاّكين وذمتهم واسعة، وما هم تاركين أحد من شرهم.

ـ لو ما راحت، يا بابا، لصارت ألف مشكلة ومشكلة، وأنت أدرى الناس بموران!

ـ خير إنشاء الله؟

ـ الله يجعلك بخير يا بابا، بس أنت بتعرف المشاكل هناك.

ـ يعني غرقت؟

ـ لا.. بس تعبانة وبتركض حتى تحيي الرزق، والله يساعدها.

شعر الحكيم بالغضب. تراءت له من جديد صورة موران، سأل بحدة:

ـ وإنت.. شو عملت؟

ـ عملت اللي الله قدرني عليه!

وضحك بصخب ليتغلب على غضب أبيه، وبعد أن هدأ قليلاً أضاف:

ـ موران اللي ببالك، يا بابا تغيرت، انتهت، ولازم الإنسان يعرف كيف يتصرف في المرحلة الجديدة...

وكاد يضيف أشياء أخرى، في محاولة لأن يلخص التطورات التي حصلت، لكن الحكيم رد بنزق:

ـ اتركنا من موران الزفت، المهم أن تخبرني عن نفسك، كيف أحوالك وكيف شغلك؟

وأخذ الحديث نسقاً مختلفاً، فبدأ غزوان يتحدث عن مشروعاته وعن النتائج التي حققها، لكن انتباه الآخرين جعل الحكيم حذراً، فهو لا يريدهم أن يعرفوا، قال ليغير الحديث:

ـ المهم أن الحال ماشي والصحة كويسه!

طبطب غزوان على بطنه دلالةِ أن الصحة جيدة، ورد بمرح:

ـ إذا سارت الأمور بشكل طبيعي، وكنا شاطرين، والله أعطانا الصحة والعافية، راح نصير فوق الريح، وخلال فترة قصيرة.

الحكيم يسمع بعناية واهتمام، لكنه لا يريد أن تناقش الأمور بهذا

الشكل المكشوف، أن تعرف أدق التفاصيل. صحيح أنه يريد أن يعرفها كلها، لكن في وقت آخر، لا بدّ أن يسأل ويدقق شرط أن يكون وحده مع غزوان، أن يسمع منه كل التفاصيل، ولا بدّ أن يتقدم بأفكار واقتراحات من شأنها أن تدفع العمل إلى الأمام، وقد يساعد هو في بعض المراحل. لا يقبل أن يبقى متفرجاً، ولا يمكن أن يسلّم هكذا، فقط يهز رأسه كما يفعل الآخرون ويصمت!

وغزوان لا يهدأ لحظة: حين يخرجون من صالة الطعام لا بدّ أن يتوقف عند مخزن الملابس والعطور، ولا بدّ أن ينتقي زجاجتي عطر أو ربطة عنق، وأن يقدمها إلى سلمى أو إلى أبيه، مع الكثير من المرح! ولا بدّ أن يقف، ولفترة غير قصيرة، بعد ذلك، عند الصبية الشقراء التي تبيع الصحف، وأن يشتري عدداً من المجلات والجرائد، وأن يقلب الحاجات الأخرى التي تبيعها، وغالباً ما يشتري أشياء لا يعرف أبوه كيف يراها أو كيف يلتقطها. فإذا تجاوزوا الممر الطويل باتجاه الإدارة والصالة، ورغب الحكيم بتناول فنجان قهوة، فإن جواب غزوان جاهز:

ـ القهوة والنوم عدوان، والأحسن أن آخذ غفوة صغيرة لأكون أكثر نشاطاً.

ـ وليمنع أي سؤال أو تردد، يتوجه إلى صفاء:

ـ أطلب للبابا قهوة يا صفاء، وتسلى أنت وإياه، لحد ما آخذ لي غفوة وبعدها أتدوّش وأنضم لكم.

صفاء لديه الكثير لكي يقوله للحكيم أو ليسأل الحكيم عنه. أما سلمى واليانور فلا بدّ لهما أن تذهبا، كل إلى غرفتها، والسؤال الذي تكرر، وأصبح مألوفاً: «متى نلتقي مرة أخرى»؟ ولا يتردد صفاء في الإجابة:

ـ أنا والحكيم في الصالون.. وبأية ساعة تشرفوا أهلاً وسهلاً.

ويغير الحكيم في اليوم التالي خطته:

ـ أنت جاي تنام، يا غزوان، أو جاي حتى نشوفك؟

ولا يتردد غزوان في اقتراح المشاريع:

ـ إذا استغنيتوا عن نومة الظهر فلا بدّ أن نذهب بنزهة، في البحيرة، إلى الجبل، المهم أن نكون مع بعض. . .

في اليوم الثالث، بعد الغداء، قال غزوان بطريقة استعراضية حزينة:

ـ ما أسرع ما طارت الأيام. . .

ونظر إلى أبيه وإلى سلمى، وهو يهز رأسه، ثم أضاف:

ـ كان لازم نقضي مع بعضنا أيام كثيرة، لكن إنشاء الله خيرها بغيرها.

تهدل فكا الحكيم. لم يكن يتصور أن الزيارة بهذا القصر. لا يمكن أن يوافق بشكل من الأشكال، سأله بغضب:

ـ إنشاء الله مسافر؟

ابتسم غزوان طويلاً لكي يمتص الغضب، لكي يتغلب عليه، وبعد لحظة صمت:

ـ لو كان بإرادتي، حسب رغبتي، لما تركتم، لكن. .

وهز رأسه بلوعة والتفت إلى صفاء:

ـ إحك لهم يا صفاء، كيف طلعت أرواحنا إلى أن أجلنا مواعيدنا في طوكيو ٤٨ ساعة.

وتغيرت نبرة الصوت.

ـ خاصة وأن الشغلة كلها مخوطرة ولنا شهور نضبط فيها وواقفة على شعرة، والمنافسين بس منتظرين غلطة!

والتفت إلى أبيه:

ـ وأنت بتعرف عقول اليابانيين يا بابا: عقول متحجرة، جامدة، والواحد منهم كأنه آلة، لا عواطف، لا حب، لا تساهل. المهم الموعد، الدقة بالموعد، وبعد ذلك لا يهمه شيء.

قال صفاء بأسى:

ـ أتذكر عندما جاءوا بزيارة إلى عندنا في سان فرانسيسكو: قبل الزيارة بشهرين: بعثوا لنا بأسماء الوفد، صورهم، شهاداتهم، الأماكن التي عملوا

فيها، المناصب، الترقيات، كل شيء.. نعم كل شيء، وكأن الواحد منهم جاي حتى يخطب، ومطلوب منه صفحة أحوال مدنية، وفوقها مضبطة برضا الله والوالدين!

رد غزوان بمرح:

ـ يا سيدي أترك الصور والمعلمومات، إحك لهم كيف تصرفوا لما شرفونا ووصلوا...

ـ شي لا يمكن أن يصدّق يا أبو غزوان: ولا يمكن أبداً، بتاتاً، أن تحزر عليهم.

كلهم مثل بعضهم: بأشكالهم، بأحوالهم، بأعمارهم، بملابسهم.. شيء غريب، وبعدين بتصرفاتهم: كل شيء كتابة، حتى الواحد إذا ضحك يكتبون أنه ضحك، وينظرون إلى الساعة. جماعة تصرفاتهم غريبة.

تنهد غزوان وهز رأسه عدة مرات ثم قال:

ـ صحيح أن الواحد شاف كثيرين، لكن مثل اليابانيين لا يمكن أن يشوف. الواحد منهم طوله طول الشبر، ولا تعرف إذا كان آذن أو مدير، لكن مثل فريق كرة القدم...

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

ـ بعد ألف تلفون واتصال، ونشف ريقنا حتى قدرنا نقنعهم بتأجيل الموعد ثماني وأربعين ساعة فقط.

ولا نعرف الآن إذا كانوا راضين أو زعلانين.

ـ الله يساعدكم يا أستاذ غزوان، هكذا علق صفاء.

كان الحكيم يسمع، ينقل نظراته بين غزوان وصفاء، يبدي دهشة، يفكر، وفي لحظة عصبية قال لينهي المناقشة:

ـ كلمة سفر من فكرك شيلها يا غزوان، سفر ما في، يفتح الله.

ـ اللي بتؤمر يا بابا، على العين والراس.

ـ أي نعم: سفر ما في، لا يابانيين ولا غير يابانيين، لا مواعيد ولا غير مواعيد!

وتغيرت لهجته، أصبحت غاضبة:

ـ وبعدين عندنا ألف مشكلة يا غزوان ولازم نحلها، لازم نشوف طريقنا، نشوف شو راح نسوي.

ضحك غزوان ورد:

ـ كل شيء بيصير، بسيطة، وبعد قليل:

ـ ما ظل أحد غيرنا في المطعم يا جماعة، ولازم نتحرك!

وتوقف أيضاً عند البائعة. اشترى أكثر من أية مرة سابقة. وتوقف فترة أطول عند الشقراء، اشترى عدداً من المجلات أكثر مما يفعل كل يوم، قال لأبيه في محاولة ماكرة:

ـ الطريق طويل ولازم الواحد يسلي نفسه!

كان الحكيم غاضباً وحزيناً. لقد انقضت الأيام دون أن يتحدث مع غزوان، ودون أن يراه. هل يوافق على سفره؟ هل سمع منه حول موران ورأي الآخرين هناك؟ هل يسكت ويترك الأمور تمر هكذا؟ قال في نفسه «جيلان وعصران» وابتسم بحزن ثم أضاف: «واللي ياكل العصي ما هو مثل اللي يعدها».

حول الطاولة الكبيرة التي جلسوا إليها حاولوا أن يتكلموا شيئاً مشتركاً، لكنهم لم يفلحوا. كان الحكيم لا يقوى على إخفاء غضبه، فيداه ترتجفان، وابتسامته أقرب إلى الحزن. لاحظ غزوان ذلك. أمسك بفنجان قهوة أبيه وبفنجانه باليد الثانية وقال له:

ـ خلينا نقعد مع بعضنا شوية يا بابا.

لم ينظر الحكيم إلا لسلمى، وكأنه يستأذنها، قال صفاء بحيوية:

ـ تفضلوا.. تفضلوا!

... الساعة التي قضاها غزوان وأبوه لا يمكن أن تصنف، فقد

تخللتها الملامة والأشواق والمخاوف والرغبات، وكان كل منهما يريد أن يتكلم أكثر من الآخر، أكثر مما يريد أن يسمع من الآخر. الحكيم لديه عشرات الأفكار، مئات الأفكار. يريد أن يقولها، أن يوصلها كرسائل، وأن يسمع من غزوان الإجابات. أن يعرف رأيه تماماً. وغزوان بمقدار ما كان يريد أن يعكس له وضع موران الجديد، وما يجب عليه أن يفهمه، كان يريد أيضاً أن يفهم منه ما إذا حان الوقت لكي يتوسط من أجل العودة، وضرورة التعامل مع السلطان فنر، وكان يريد أن يبحث معه أيضاً مسألة الأراضي، وبشكل خاص الأملاك في حران، والتي لا يعرفها أحد غير الحكيم. ثم وضع سلمى ومكان الإقامة.. أين يجب أن يقيم وكيف يجب أن يتصرف. وسلمى.. هل هي زوجة السلطان خزعل أم مطلقة؟

كلمات تتلاحق مثل الطلقات. الإثنان يتكلمان. الإثنان لا يسمعان. الإثنان يفكران بأمور مختلفة. قالا أشياء كثيرة، لكن دون رابط، دون هدف. الكلمة تجر الأخرى. الفكرة تؤدي إلى ثانية، ولا يعرفان هل ما يقال أسئلة أو أفكار أو مجرد أصوات واختبارات ومعلومات يسر بها الواحد للآخر.

قال غزوان، وقد نظر إلى ساعة:

ـ الحديث، يا بابا، ما له نهاية، وأنا متأكد أننا إذا التقينا مرة ثانية، وقريباً، يمكن أن نتفاهم على أشياء كثيرة...

وضحك ثم أضاف

ـ المهم أننا شفنا بعضنا، أننا سمعنا من بعض، وبعدها لكل مشكلة حل...

قال الحكيم وقد تمثلت له مشاكل كثيرة:

ـ المهم أن نؤمن «قاعدة»، أن نكون مطمئنين إلى مكان الإقامة، أي يكون الواحد عنده أرض، وبعدها كل المسائل تهون.

ـ هذه مسألة بسيطة يا بابا.

ـ بسيطة؟

ـ أي نعم. . . يمكن أن تختار أي مكان للإقامة والحياة.

قال الحكيم بنزق:

ـ أو للقبر. . .

ـ لا قدر الله يا بابا!

وساد صمت قاسٍ. كان الحكيم غاضباً، وحزيناً، وكان يريد أن يفتعل سبباً لخلق خصام من نوع ما. قال غزوان وهو يبتسم:

ـ مثلما قلت لي قبل سنين. . يا بابا: وطن الإنسان حيث يكون قوياً ومؤثراً وقادراً. الوطن ليس التراب أو المكان الذي يولد فيه الإنسان، وإنما المكان الذي يستطيع فيه أن يتحرك. . . هل تتذكر أم نسيت؟

قال الحكيم بيأس:

ـ أتذكر. . يا ابني، أتذكر، لكن المسألة الآن اختلفت!

بعد الكثير من المحاورة والمداورة اتفقا أن يبقى صفاء، وأن يساعدهما في اختيار قصر مناسب في جنيف أو حواليها، وأن يستقرا هنا، على الأقل مؤقتاً، ريثما ترتب الأمور، وبعد ذلك يمكن للإنسان أن يفكر، أن يدبر أموره بشكل مختلف. أما موران أو حران، أما طرابلس أو بيروت، أما حلب أو دمشق، فإنها مجرد محطات يمكن أن يبقى فيها الإنسان ويمكن أن يغادرها تبعاً لعوامل واعتبارات كثيرة.

وهكذا انتهى هذا اللقاء، على وعد أن يلتقوا خلال شهر، وأقصى حد شهرين! وأن يبقى غزوان فترة طويلة وليس مثل هذه الزيارة!

قضوا يوماً آخر في البوريفاج بعد سفر غزوان. في اليوم التالي، قبل الظهر بقليل، وقبل أن يستقلوا سيارة الروز رويس متجهين إلى المطار، أجزل صفاء العطاء للخدم والعاملين في الإدارة، وجرى لهم وداع لائق. وما كادت السيارة توصلهم إلى المطار، ويتأكدون من مغادرتها حتى استقلوا سيارة أجرة عادت بهم إلى المدينة، إلى فندق ستراسبورغ، حيث حجزت غرفة إضافية لصفاء!

كان هذا الإجراء ضرورياً لكي تبدو الأمور طبيعية فلا تلفت نظر أحد، خاصة وأن إصرار الحكيم على سرعة المغادرة والانتقال منعت مناقشة أية صيغة أخرى. فالانتقال مباشرة إلى فندق آخر، أو صرف السيارة المرافقة، ربما يبدو غير لائق وقد «يزعج الأستاذ غزوان ويسيء إلى سمعته، وإلى سمعة الشركة أيضاً، وهذا لا يرضاه أبداً» كما أوضح صفاء في تفسير إرجاء الانتقال إلى فندق ستراسبورغ، أو لجوئه إلى خطة التمويه.

بالمقابل كان الحكيم يريد العودة إلى مكان ألفه، وإلى أناس يعرفهم. يريد أن يتصرف بحرية، وأن يشعر بثقة. وهو في البوريفاج ظل محبطاً، أو لا يفعل شيئاً سوى الرد على الابتسامات والنظرات التي تطوقه من كل جانب. أكثر من ذلك بدا له الناس أقرب إلى الدمى. الخدم والنزلاء معاً: يبتسمون ببلاهة، يبدون مؤدبين أكثر مما يحتمل الموقف. وإذا كان قد فسر لنفسه أن الخدم يفعلون ذلك نتيجة الأوامر أو طمعاً بالإكراميات، فلم يستطع أن يفسر لماذا يتحرك النزلاء بخطوات بطيئة، خائفة، ويطلبون بأصوات هامسة، وبأدب مبالغ فيه، ولا يترددون في الابتسام لأتفه الأسباب؟

ليست الإلفة وحدها ما دفعت الحكيم لاستعجال العودة. لا بدّ أن يفسر للمسيو مولان، مدير فندق ستراسبورغ، ما حصل، خاصة إلغاء الحجز. يصمت، ثم بعد قليل وبحدة:

ـ لقد عُلّقت كل الأشياء إلى حين مجيء غزوان والتشاور معه.

لم يشك أحد من العاملين في فندف ستراسبورغ أن الذي يصل مع الحكيم هو ابنه المقيم في الولايات المتحدة، فقد كان يسرف في الحديث عنه عند كل تحويل مالي جديد يصل إليه، أو بعد أية مكالمة هاتفية من الولايات المتحدة أو إليها. وقد أكد للجميع بفرح وصل حد الزهو أن ابنه سيأتي بين يوم وآخر.

الآن لا بدّ أن يشرح لمسيو مولان التعديلات التي جرت، وبالتالي أن يبلغه بخططه للمستقبل تمهيداً للاستفادة من خبرته وعلاقاته.

قدم صفاء باعتباره أحد أقرباء العائلة والساعد الأيمن لابنه، الذي تعذّر عليه المجيء. أما في اليوم التالي، وبعد الإفطار وانسحاب سلمى إلى غرفتها، فقد عقد الثلاثة اجتماع عمل، كما سماه الحكيم، وتركز البحث حول مواصفات القصر الذي يود شراءه: «أن يكون في جنيف وخارجها، قريب وبعيد في آن واحد، على الجبل وليس بعيداً عن البحيرة، في الريف والمدينة معاً!».

هكذا لخص الحكيم المواصفات. ولما بدت غامضة مشوشة ما لبث أن عرضها بشكل آخر: «أريد القصر قريباً من جنيف، خاصة من جهة المطار، لكي لا تكون هناك صعوبة إذا أردت السفر، أو إذا جاءني أحد الضيوف، لكن لا أريده قهوة أو ديواناً لكل من يزور هذه المدينة. ولا أريده مكاناً لكل مستطرق أو لكل طفيلي أو عاطل عن العمل. أما أن يكون قريباً من البحيرة والجبل معاً فالقصد أن أتمتع بمنظر البحيرة وجمالها دون أن أقع في محيطها من حيث الرطوبة والرذاذ وأعين الفضوليين». وحين يهز المسيو مولان رأسه دلالة الاستيعاب والموافقة يضيف «وله مزايا القرية والمدينة أيضاً: الهدوء، عدم وجود الغرباء» يتوقف لحظة، يرفع يديه

قليلاً، يتنفس ثم يضيف بحزم: «أهم شيء ألا يصطدم الإنسان بالغرباء، ألا يراهم يسدون عليه طريقه».

كان مع صفاء أكثر وضوحاً، إذا ما كاد يستدعي المسيو مولان للرد على الهاتف، حتى قال لصفاء:

ـ أهم شرط يا صفاء، الشرط الأساسي، أن أكون بعيداً عن العرب، نعم يجب أن أكون بعيداً، لأن من العرب ما جاءتنا إلا المصائب. . .

ويهز رأسه بلوعة ويتابع:

ـ يا ابني. . غزوان براسه ألف مشكلة، ألف هم، ويمكن تقديره يختلف عن تقديري.

يصمت، ثم بعد قليل وبحدة:

ـ أنا راسي مطلوب يا صفاء، رأسي بالدق. وموران مستعدة تدفع الملايين حتى تقتلني، فإذا كان العرب حوالينا الواحد منهم إما ينشري أو ينخّى، وكلها كم رصاصة والعوض بسلامتك، أبو غزوان بح، ولا كأنه كان. مو بس هيك يقتلوني كخائن، كنصاب، ولا أحد يقول الله يرحمه.

يرتجف الحكيم، تمر الصور في رأسه، فتخرج الكلمات من بين أسنانه:

ـ أنا أعرفهم منيح، يا صفاء، حافظهم عن ظهر قلب، أهل موران لا يمكن أن تجد من يشبههم: حقودين وجبناء، وفي هذه الحياة لا تخف إلا من الحقود والجبان، يمكن الواحد منهم يعمل أي شيء، لا ذمة ولا ضمير، ولأنهم جبناء وحقودين يحاولون أن يخفوا جبنهم وحقدهم بالكلمات الكبيرة، وأنت تعرف العرب: كلمة تأخذهم وكلمة تجيبهم. اللي ما يجي بالفلوس يجي بالعبطة، بكم كلمة تفتل روسهم، فإذا وصلوا لكم واحد هون وعرفوا مكاني فتأكد أن أجلي حان ومستحيل أفلت.

وتتغير نبرة الصوت، تصبح غاضبة:

ـ لا يا سيدي، بدي أبرّد راسي، بدي أهرب من المشاكل، وكل ما هربت من العرب أكثر كلما سلمت.

ويهز صفاء رأسه دلالة الفهم والموافقة، وما أن عاد المسيو مولان حتى بادرة:

ـ القصر المناسب للدكتور المحملجي أن يكون في ضاحية راقية من ضواحي جنيف، ومن المناسب أن تكون بعيدة عن وسط المدينة ولا يؤمها الغرباء خاصة الشرقيين، لأن وقت الدكتور ثمين للغاية ويريد أن ينصرف للكتابة والتأليف.

حتى ذلك الوقت لم يخطر ببال المسيو مولان أن الحكيم يمكن أن يكتب، فخلال الشهور الثلاثة التي مرت لم يره يقرأ أو يحمل كتاباً، ولم يلحظ في غرفته ظلاً، أي ظل، لكتاب أو ثقافة. كان يراه ساعات في الزاوية ذاتها صامتاً ساهماً ضجراً، فإذا انشغل بشيء فبمراقبة برامج التلفزيون، وبعض الأحيان بأن يفرد ورق الشدة، كالساحر، ويظل يقلبها لساعات متواصلة. سأل المسيو مولان الحكيم بمودة:

ـ أي نوع من الكتابة تكتب يا دكتور؟

فوجئ الحكيم بالسؤال، وكأنه لم يتوقعه أو لا يحبه. دارت عيناه كعيني قط، ثم قال بحزم وقد أعطى لوجهه ملامح صارمة:

ـ الكتابة الفلسفية والتاريخية!

هزّ المسيو مولان رأسه دلالة الإعجاب والاستغراب معاً وسأل من جديد:

ـ وهل وضعتم كتباً عديدة؟

ومرة أخرى يفاجأ الحكيم، شعر بالضيق، تطلع إلى صفاء بارتباك يستنجد به، قال صفاء بمكر:

ـ للحكيم عدة مؤلفات فلسفية، والآن، وبعد أن أصبحت ظروفه أفضل، وضع خطة للتأليف والمتابعة.

قال الحيكم لصفاء بنزق:

ـ كان الوقت ناقصني يا صفاء، كانت الأشغال والهموم لفوق راسي...

وزفر بحرقة. بدا حزيناً، أدار كرسيه وجلس بشكل جانبي، وكأنه لا يريد أن يواصل حديثاً ينغّص عليه راحته. قال صفاء للمسيو مولان هامساً ولا يريد للحكيم أن يسمع:

ـ الأسى الحقيقي الذي يشعر به الحكيم أنه لم يتيسّر له الوقت الكافي لمواصلة أبحاثه الفلسفية والتاريخية، فقد كانت أشغاله ومسؤولياته تحول دون ذلك، أما الآن، وبعد أن تقاعد، فقد تفرغ نهائياً للعمل.

تغيرت نظرة المسيو مولان، أصبحت إعجاباً، قال بطفولة:

ـ ويجب أن يكون القصر قريباً من الجامعة أو من المكتبة العامة لكي...

رد الحكيم بصرامة:

ـ المهم أن يكون هادئاً!

خلال أسبوعين، وبعد جولات عديدة، ومشاهدة عدد من المنازل والقصور، تم الاتفاق على شراء قصر قرب مدينة نيون: يطل على البحيرة من الجهتين الشرقية والجنوبية، ولا يبعد عن المدينة سوى كيلو متر ونصف. ورغم أن بناء القصر يعود إلى أواخر القرن الماضي، إلا أن صاحبته ظلت تصرّ أن البناءين لم ينتهوا منه إلا بعد انتهاء الحرب الأولى!

ـ صفاء... شفت بعينيك: البيت بثلاثمائة وخمسين، والتصليحات تحتاج خمسين أو ستين ألف، أريدك من يوم وصولك أن تحوّل لي نصف مليون دولار، وكل تأخير ندفع مقابله، عدا عن إيجار الفندق!

ـ تؤمر يا حكيم.. ثاني يوم من وصولي.. التحويل عندك.

ـ لا تنس ولا تتأخر.

ـ ولو.. يا حكيم، لا توصني!

ويتيه الحكيم في أفكاره «رب ضارة نافعة. تقاعدت في الوقت المناسب. الآن تنفتح أمامي كل الفرص. الشيء الذي لم أستطع أن أنجزه في موران يمكن أن أنجزه هنا، يمكن أن أكتب كل ما أريد وبحرية، دون

رقابة ودون إهداءات، كنت مضطراً أن أهدي الكتاب للسلطان خزعل، الآن لا يمكن أن أفكر بهذا الشكل، السلطان صار بالنسبة لي ماضياً وانقضى، ولا بدّ الآن أن تكتب الحقائق والقناعات كاملة ودون مجاملة».

ويشعر أن معدته تؤلمه. منذ اللحظة التي غادر فيها بادن بادن لا يطيق أن يستعيد صورة السلطان. وعندما يضطر لذلك، سواء إذا فكر فيه أو سئل عنه، يشعر بالغثيان. أكثر من ذلك يشعر أنه بدّد حياته مع شخصيات وفي أماكن لم يتصورها، ولم يكن مستعداً لها. وكان نتيجة ذلك يشعر بألم في معدته. وهو، باعتباره طبيباً، يعرف أن القلق أحد أهم الأسباب الذي يولّد آلاماً للمعدة، وقد يتطور الوضع إلى قرحة، والقرحة قد تصبح شيئاً أكبر!

استبعد السلطان وعاد إلى القصر: الغرفة العليا المطلة على البحيرة، من ناحية اليسار، ستكون غرفة سلمى: واسعة، هادئة وقريبة من الحمام. الغرفة ناحية اليمين ستكون: المحراب. هناك سأبدأ الحياة من جديد. إنها الولادة الثانية للإنسان، خاصة بعد هذه التجارب المريرة، ولذلك لا بدّ أن أستثمر كل لحظة، أن أقدم أفضل ما عندي، وأن أنجز كل شيء في فترة قياسية. وتذكر واجباته تجاه سلمى، أحس بالمرارة لأن وداد غائبة، وحدها التي تستطيع أن تساعدها، فهذه الصغيرة لا تقوى حتى على إزاحة الستارة، أو فتح النافذة، وكأنها تخاف من شيء. ويلاحظ أنها تخاف أكثر حين يكونان في الخارج، تجفل من أية حركة ومن أية نظرة، تلتصق به تريد الحماية والدفء. أما حين يكونان وحيدين فإنها تغرق في الصمت والحزن، فيحار كيف يخرجها من هذا الجو، وكل المحاولات التي يبذلها لا تستجيب لها، إذ كثيراً ما ردت على أحاديثه بنظرة تحمل كل معاني الضجر والبعد، فإذا سألها عن رغباتها، أو استفسر منها عن أمر من الأمور فغالباً ما تكتفي بكلمة أو بهزة رأس إنها لا تريد شيئاً أو لا تعرف.

ويغرق نفسه في إصلاح القصر وترتيبه، وخلال شهرين لا يهدأ ولا يتوقف. ومع الحركة تتولد في نفسه الثقة، يصبح أكثر تفاؤلاً، فيشتعل رأسه بالأفكار والأحلام، فتتوارى موران وتبتعد، كما تعاوده الرغبة في أن

يبدأ حياته من جديد «عندما ينضج الإنسان وتصقله التجارب يصبح قادراً على إعطاء أفضل ما عنده، ويصبح قادراً على اجتراح المعجزات».

لكن هذه الثقة لا تواتيه دائماً وفي كل الأوقات، إذا ما يكاد ينزلق إلى فراشه استعداداً للنوم، وما يكاد يخيم الظلام، حتى يشعر بالانقباض ويستبد به الإحساس بالنهاية. لا يعرف لماذا تسيطر عليه هذه الأفكار والمشاعر أو كيف يقاومها. يشعر برغبة لأن يكون مع الآخرين، لكن الآخرين تخلوا عنه، وحين يسأل غزوان عن أمه وعن أخبارها يأتيه الجواب الحزين: «أتركها بهمها يا بابا، طول نهارها تركض وما تركت أحد إلا ووسطته، لأن الجماعة حاطين عيونهم على أرض الحاووز، وأنت تعرف أهمية هذه الأرض ومساحتها» ويرد عليه بغضب ويهدد، فيقول له غزوان برجاء «المهم أن تبعث لنا وكالة يا بابا لننقل ملكيتها، حتى لا تبقى مجال ضغط ومساومة» ويحار ماذا يفعل أو كيف يتصرف. «وأنت يا غزوان، متى تأتي لزيارتنا؟» ومثل عادته كل مرة: «في أقرب فرصة يا بابا».

ولا يعرف متى يغرق في النوم، لكن النوم ذاته عذاب لا يقل عن عذاب اليقظة، وكثيراً ما استيقظ في الليل العميق مرعوباً عطشاناً، او بعد أن يشرب لا يستطيع أن يعاود النوم من جديد، فيبقى ساهراً في الظلمة. كان يسمع صوت أنفاس سلمى، وبعض الأحيان أناتها، وكان يفكر في حياته كلها، يستعرضها، بكل تفاصيلها، من جديد، فلا يعرف أين أخطأ أو كيف، لكنه يمتلئ إحساساً أنه وحيد وأن الجميع تخلوا عنه «الناس لا يؤتمنون، الأنانية هي الموجه الأساسي والوحيد لتصرفات الإنسان، أي إنسان، من أجل أن يكون أقوى وأغنى لا يتورع عن عمل أي شيء» وتمر الأطياف والأسماء «حتى الأقرباء، حتى اللي من اللحم والدم نسوا... ابتعدوا، كل واحد يا نفسي».

ويحار في عواطفه وعلاقاته، ويمتلئ بالخوف والهواجس.

بعد الانتقال إلى قصر «الحير الأوروبي» كما أطلق الحكيم على القصر الذي اشتراه في نيون، وبعد أن استكملت الإجراءات الضرورية: أجراس الإنذار، كهربة السور، خاصة في الليل، كلب ألماني من نوع بيرجيه، إضافة إلى سائق وخادمة جزائريين، أصبح الحكيم في وضع مستعداً معه «للرحلة الكبرى» التي طالما أجلها «لأسباب قاهرة»، كما يقول لنفسه، لكن، مرة أخرى، يقع ما يغيّر كل شيء.

كان يحتضن ثلاثة دفاتر، ويضع إلى جانبه، على المقعد الخلفي للسيارة الصغيرة التي اشتراها، كمية كبيرة من الورق.

«الدفاتر للأفكار الكبرى والناضجة. . . أما الورق فإنه الطعام اليومي» هكذا فكر وهو يشتريها. أكثر من ذلك فكر وهو في السيارة، بعناوين للدفاتر الثلاثة. العنوان الأول: «ذكر ما جرى»؛ وكان الثاني «عبر الأيام ومعرفة الأنام»؛ أما الثالث ففكر له بعنوان سريع: «أثقال المنون في معرفة الظنون». صحيح أنه كان متردداً في اختيار العناوين، لكنه يريد أن يلزم نفسه ببرنامج، أن لا يترك شيئاً للصدفة أو المزاج، وهذه الطريقة التي اختبرها من قبل، والتي تبدو متسرعة بعض الشيء، تلزمه بعادات: «العادات أساس الحياة، لأن الحياة هي العادة المكررة» هكذا كان يقول لنفسه بنوع من الإصرار لكي ينجز أعمالاً معينة. لقد تعلّم ذلك من الألمان. يتذكر أن مدرس الوراثة كان يكرر عبارة: «الوراثة هي عادة مكررة، والمكرر هو النواة، هو الباقي». وهكذا ألزم نفسه، منذ وقت مبكر، بعادات أصبحت جزءاً من حياته. ولا يريد الآن أن يستعيد كل شيء، لكنه يبتسم وهو يتذكر: «الرجل اليمنى قبل اليسرى أثناء السير، في

الدخول إلى بيوت الأصدقاء، وفي الدخول إلى المساجد. الرجل اليسرى في الخروج من المرحاض والمقابر. .» ولا يريد أن يتذكر بيوت الأعداء. كان صديقاً ومحباً للجميع. كان يحترم الجميع، يتعاطف معهم، يساعدهم، «لكن الناس، منذ أيام نوح هم الناس: الحسد، البغض، الحقد». ولا يعرف لماذا تتركز هذه الخاصية في الإنسان «الحيوانات تتعاطف تأتلف تصل إلى صيغة من التفاهم والتراضي، أما الإنسان، فإنه الحيوان الوحيد الذي لا يستطيع أن يصل إلى وسيلة للتفاهم مع الإنسان الآخر».

كانت موران تمر في ذاكرته مضطربة، لكنها تشبه شريطاً حزيناً قاسياً. لم يبق أحد إلا وساعده. فتح الأبواب للذين يعرفهم وللذين لا يعرفهم، قال لهم: تعالوا. فلما جاءوا، وبدأوا، وتدفقت عليهم الأموال، وبمساعدته، وبدل أن يشكروه تنكروا له. قال في محاولة لأن يقنع نفسه: «موران حالة خاصة» لكن تذكر أماكن أخرى، تذكّر أشخاصاً آخرين. قال الإنسان عدو ما جهل». . وكان يفكر أن البشر، على مدى مئات السنين لا بد أن يتغيروا، هو متأكد من ذلك، والحياة والطبيعة سوف تفرضان شروطهما، ولا بدّ أن تعلّم الآخرين كيف يجب أن يتصرفوا. «نحن ما زلنا في البداية، البداية لها مخاطرها وأهوالها، ولا بدّ أن يقع الكثيرون ضحايا، لكن الحياة خير معلم». واعتبر هذه النتيجة رائعة سوف يتعمق أكثر فيها وسوف يخصها باهتمامه لكي يبلورها، ويعطيها أبعادها الفلسفية، يمكن أن تكون أيضاً بداية «للتدوين». إنه الآن في حالة نفسية مقبولة، صحيح أنه ليس في أحسن حالاته، وليس مستعداً تماماً، لكنه يشعر بمزاج رائق، ويشعر أيضاً بالهمة والنشاط، كما يمتلك أفكاراً كثيرة جديرة بالتسجيل. سوف يفكر ويخطط لهذه الأمور بطريقة أفضل، ولا بدّ أن تتبلور من خلال التأمل والعمل، وسيصل في النهاية إلى النتائج التي يريدها. هذا لا شك فيه، وهو ليس نتيجة رغبة أو حالة جموح، إنه متأكد، وهاهي الأفكار تواتيه وتتراكم بطريقة منطقية واضحة. يستطيع الآن أن يكتب

ويستمر، دون حاجة إلى مراجع أو مناقشة أحد. الآخرون يشوشونه، يربكونه ويجعلونه في حالة نفسية قلقة، لقد كانوا دائماً السبب الذي أعاقه عن مواصلة العمل.

القصر على تل، يليه آخر. فكر الحكيم أن يسميه، في البداية، «السنام»، لكن صرف النظر بسرعة «يجب أن أنسى موران والبادية».

وفكر أن يشرك سلمى معه. لو فعل لا بدّ أن يخلق لها اهتمامات جديدة وينقذها من حالة الفراغ والقلق. صحيح أنها صغيرة لا تدرك أفكاره، وقد يكون من الصعب عليها أن تجاريه، لكن ربما استطاع أن يدخلها تدريجياً في هذا العالم، وبمرور الوقت، مع الأيام، لا بدّ أن تصبح لها اهتمامات مماثلة. فالوراثة تتخفى لكنها لا تنتهي، وقد تكون هذه الصغيرة امتداده الحقيقي على هذه الأرض. لا يستطيع أن يحكم حكماً أكيداً صائباً، خاصة وأن الأوقات القليلة التي قضاها مع ابنيه لم تساعده على اكتشاف هواياتهما، أو معرفة مراكز الثقل لدى كل واحد منهما. يعرف غزوان، يعرف هواياته واتجاهه، أما سلمى، وفي مثل هذه السن، فيمكن أن يتولى إعادة تشكيلها. إنها فرصته الحقيقية لتطبيق نظريته وتحقيقها، وسوف يتأكد أكثر من جميع التفاصيل.

تمنى لو كان في ظروف نفسية أفضل، مثلاً لو أن وداد معه الآن، إذن لاتخذ قرارات حاسمة، وبدأ حياته من جديد. ومع ذلك يجب ألاّ ينتظر أو يتأخر. «العمر يركض كماء النهر ولا يمكن أن يتوقف أو أن يستعاد».
وقرر أن يبدأ، خاصة وأنه يحب فصل الشتاء أكثر من الفصول الأخرى، لأنه «فصل الاختمار والبيات»، وندم أنه لم يحمل معه العباءة، فهي هنا أكثر ضرورة من موران، وفكر أن يطلب من وداد أن تحضرها معها «لكن متى تعود» وأحس بالضيق لأنه عاجز عن اتخاذ القرارات، لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الانتظار.

السيارة تصعد، المرزوقي لا يزال غير قادر على التفاهم مع الحكيم بيسر، صحيح أنه اختاره رغم كونه عربياً، لكن تعمد ذلك لعدة أسباب:

بدا له قوياً بحيث يستطيع أن يقوم بأكثر من مجرد قيادة السيارة، والسبب الثاني أنه يمكن التفاهم معه، رغم الصعوبة، أكثر مما يستطيع التفاهم مع سائق سويسري؛ وأخيراً فهو قادر على أن يبعد عنه العرب بكل سهولة، ودون أن يثير الشكوك.

تأكد من ذلك بعدما: استدعاه وحاوره. قال له المرزوقي، حين اختبره: «مُسلم والحمد لله»، ولما سأله عن علاقاته مع العرب أو إن كان يعرف أحداً منهم رد عليه باختصار: «يرحم والديك، اتركنا من العرب الخامجين»، وضحك الحكيم وسأله من جديد لماذا يعتبرهم هكذا أجابه بنزق «يا أخويا ما نعرفوش أيش كاين، لكن ما نشوفهم إلا مع الطفلات والقحبات وما يفكوا السكر. وأنا بنفسي شفتهم، ولا واحد منهم يمسك رمضان».

اليوم، بعد أن قضى وقتاً في جنيف ولم ينس المرور على فندق ستراسبورغ والتحدث إلى المسيو مولان، تزود بكمية وافرة من أدوات الكتابة، بما في ذلك عدد من أقلام الرصاص والجافة، ومسطرة وثلاث داويات حبر بألوان مختلفة ومماحٍ، واشترى أيضاً أكداساً من الورق وثلاثة دفاتر.

اليوم هو الخامس في مقره الجديد، وقد عنّ له وهو يستعرض الأسماء التي يمكن أن يطلق واحداً منها على القصر، اسم «عشّ النسر» لأنه تذكر أحد مقرات هتلر أثناء الحرب، لكنه استبعده بنزق وسرعة لأنه ارتبط بالسلطان والسيرة التي ماتت قبل أن تولد. شعر للحظة بأحاسيس مختلفة، لكن أبرزها شعور الراحة، لأنه تخلص أخيراً من هذه الحماقة، رغم أنه صرف وقتاً طويلاً وبذل من الجهد والأعصاب الكثير لكي يرضي ذلك الشره المنافق سمير، الذي لا يميزه سوى أنفه، وكأنه أنف مهرج في السيرك. صرف عليه ما يمكّن من تأليف عشرة كتب. وبعد ذلك، وفي غفلة من الجميع هرب، عاد إلى موران، عاد دون أن يشعر به أحد من الذين حوله. ولم يعرف بسفره إلا بعد أيام من السفر!

لن يقع بعد اليوم في إشراك الآخرين، يجب أن ينصرف إلى كتاباته الخاصة، لديه ما يقوله قبل أن يغادر هذه الدنيا، لديه الكثير. حتى المناقشات التي كان يجريها مع مطيع وحماد وآخرين، كوسيلة من الوسائل الثقافية، يحس الآن أنها كانت على حسابه، وعلى حساب قضايا كبرى كان من السهل أن يقوم بها لو ملك الوقت والجو النفسي الملائم. أين مطيع الآن؟ لقد تذرع بعشرات الأسباب لكي لا يأتي. حين سأل غزوان عنه، قال إنه لم يره إلا عرضاً، وحين سأل الآخرين قالوا انهم لم يروه منذ شهور. من هو مطيع لو لم يسنده ويحمه؟ وفي النهاية تخلى عنه، لم يره ولم يسمع منه حتى كلمة مجاملة. ومطيع من الأقارب، وليس مثل سعيد أو رضائي، لكنه، في المواقف الحاسمة، حين يطلب منه أن يختار لا يرى سوى مصلحته، لا يرى إلا ما يعزز قوته. «الآن صار الحكيم كخ، صار عبئاً، ويجب أن يبتعد عنه الآخرون، لكن بسيطة، سوف نرى».

وأبعد عن تفكيره موران وناس موران. قال للمرزوقي بتحبب ظاهر:

ـ وتفكر تبقى هنا طول حياتك؟

ـ بحق الرب ما تقول لي نروح فين؟

ـ ما تحب ترجع للبلاد؟

ـ نحب البلاد، لكن بالبلاد ما في إلا Chomage والبوليس.

واستمرت السيارة في الصعود.

جنيف، ظهيرة ذلك اليوم من أوائل أيام الخريف، هادئة. الشمس تظهر وتختفي كما لو أنها كرة بيد ساحر، إذا اختفت يرشح ضوء هو مزيج من ضوء القمر ورياح الشتاء، وإذا ظهرت تبدو مثل عجوز غلبها الزمن، ولم يبق منها إلا بما يذكّر بماضيها. وبين الظهور والاختفاء كان رذاذ البحيرة يملأ ذرات الهواء، ويجعل للجو رائحة باردة، فيغلق الحكيم نافذة السيارة بإحكام، لأنه يريد أن يستبقي شعلة الحماس في داخله دافئة. يتطلع حواليه لكنه لا يرى إلا أطيافاً، فقد كان مشغولاً بعالمه الداخلي الحافل والمضطرب.

لم يبق إلا المنعطف، ناحية اليمين، ويرى «قصر الحير الأوروبي» غارقاً في خضرة داكنة، وإلى جانبه، من الناحيتين، أبنية وقصور قديمة. قال في نفسه: «البشر في أوقات سابقة كانوا يعيشون في هموم أقل» وتذكر موران فأضاف «والفرق كبير بين بشر هذه البلاد وبشر تلك الصحراء الملعونة» وكرت في ذاكرته مجموعة من الوجوه، كانت غائمة متداخلة أقرب إلى التشوه. قال في نفسه: «سوف يتشوهون أكثر، سوف يصبحون مسوخاً».

انعطف المرزوقي ناحية اليمين. لم يخفف السرعة، وهو ينعطف، فقط، كاد يتوقف. الحكيم الذي كان غارقاً في عالمه البعيد ـ الغريب، انتبه لهذه الحركة المفاجئة. سحب نظراته مما حوله، وسحبها من الداخل. تطلع نحو «قصر الحير الأوروبي» للحظة فلم يصدّق عينيه، بلمح البصر أغلقهما وفتحهما مرة أخرى ليتأكد. وجد عند باب القصر سيارة بوليس وأخرى لم يستطيع أن يحدد صفتها. قال في نفسه: «الإنسان لا يخلص من موران ما دام حياً» ولا يعرف كيف انصرف ذهنه إلى احتمال القبض على مجموعة جاءت لاغتياله. «الحكومة السويسرية تحترم نفسها، ولا تسمح للعصابات أن تسرح وتمرح وأن تفعل ما تشاء، وهي مسؤولة عن حماية كل فرد على أرضها». وتذكر كلمات المسيو مولان، الذي أشار إلى ضرورة إشعار الحكومة السويسرية بالصفة الرسمية التي كان يتمتع بها، لأن من شأن ذلك تسهيل تسجيل القصر، وربما أيضاً توجيه الدعوة له في المناسبات الرسمية. تردد الحكيم، «لأني لا أملك الوقت لتلبية الدعوات والانخراط في الجو الاجتماعي أو الرسمي»، ومع ذلك ترك للمسيو مولان أن يشير إلى هذه الصفة في طلب التسجيل، ومن أجل الإشعار فقط.

سأل المرزوقي والسيارة تتقدم ببطء:

ـ شو صاير؟ يا فتاح، يا كريم، بعدنا ما سكنا وبلشت المشاكل؟

ـ والله، يا سيدي، ما نعرف.

ـ اللهم اجعله خير!

ـ الله يسمع.

أما ماذا حصل منذ أن غادر الحكيم القصر وحتى العودة إليه، فإن الروايات تتعدد وتتناقض كثيراً. حتى البوليس السويسري لم يستطع أن يجزم ما إذا كانت الوفاة نتيجة ماس كهربائي أم بفعل تصميم على الانتحار، لأن الوقائع التي تؤيد أياً من الاحتمالين قائمة، وتكاد تساوي الأخرى. خاصة وأن جزءاً من المعلومات المتعلقة بالفترة السابقة، ظل مجهولاً نتيجة التطورات اللاحقة التي أصابت الحكيم.

الكلب هو أول من اكتشف وفاة سلمى، فقد كان يحوم بين غرفة النوم والممر والحمام، كان هادئاً متمتعاً بالدفء، وفجأة بدأ بالعواء. كان يعوي بطريقة عصبية، وهو لم يفعل ذلك طوال الأيام السابقة. نعيمة، قريبة المرزوقي، التي بدأت الخدمة معه، لكن لم تتحدد صفتها بصورة كاملة ونهائية، هل تعتبر خادمة، وسوف يتم استخدام أخرى للطبخ، أم ستتولى الأمرين معاً، على ضوء تحديد الحاجات الفعلية. نعيمة التي استغربت عواء الكلب، ولم تفهم له سبباً، استدعت البستاني، وكان يعمل في الحديقة الخلفية، إذ ربما يكون أقدر منها على التفاهم مع هذا الحيوان، أو فهم أسبابه. ما كاد البستاني، وهو رجل قصير، أقرب إلى الكهولة، يدخل وينادي على الكلب، ويحاول أن يهدئه، حتى تلفت إلى أكثر من ناحية، وكأنه يبحث عن شيء ما تسبب فيما حصل. وبين مراقبة الكلب والانتقال من مكانه إلى آخر، التمعت صورة سلمى في ذهن نعيمة. اندفعت إلى الحمام، وجدت الباب مقفلاً. دقته عدة مرات لم تتلق جواباً ولم تسمع صوتاً. ذهبت إلى غرفة سلمى تبحث عنها، لم تجدها. صرخت برعب وأشارت إلى الحمام. الكلب طوال هذه الفترة لم يتوقف عن النباح. وتم استدعاء البوليس، وجاء مع البوليس الاسعاف، لكن كان كل شيء متأخراً.

لما وصل الحكيم كان البوليس قد أنجز مهمات المرحلة الأولى، إذ نقلت سلمى إلى المستشفى وسط المدينة، وتحفظ على العاملين في

القصر، وبدأ، بواسطة خبراء، معاينة مكان الجريمة وتسجيل التفاصيل.

بعد ثلاثة أيام وصل غزوان وصفاء الشلبي.

وبعد يومين من وصولهما استكمل التحقيق، وإن ظلت بعض الأسئلة دون إجابات. وجرت مراسيم دفن سلمى، ثم سافر غزوان، وبقي صفاء بضعة أيام من أجل إجراءات مجموعة من الترتيبات، بما فيها مرافقة الحكيم إلى مصحّ في جبال الألب.

وبعد سنين، حين أصبحت روفة عاجزة عن المشي، قالت لإحدى قريباتها:

ـ الله العليم إنه ما قرّمني إلا خطيّة ذيك البنية!

قالت ذلك لأنها تذكرت صرخة عدلة، وهي تطلب منها الاستعجال لاستدعاء سلمى. فالسلطان قبل أن يأوي إلى فراشه، في تلك الليلة البعيدة، طلب أن ينادى له على سلمى. كان واضحاً أنه اتخذ القرار. لم يقل ذلك لأحد، حتى لعدلة، لكن عدلة احست، أو ربما أصبحت على درايه عندنا يتخذ السلطان قراراته. فما كادت روفة تبطئ في النهوض، وربما تعمدت ذلك حتى صرخت بها عدلة وبصوت مخيف:

ـ عسى أن الله يقرّمك. تسمعين كلام طويل العمر، وبعدك بمكانك؟ يا الله. يا الله.

ومثل بنات المدارس وقفت سلمى في مدخل الصالة. لم يطلب إليها الجلوس، ولم تسمع رداً على التحية التي ألقتها. كان الصمت، وكانت العيون الوجلة تتطلع إليها، قال لها السلطان وخرج صوته مرتجفاً:

أنت طالز، أنت طالز، أنت طالز.

وحين ابتسمت وهزت رأسها دلالة أنها لم تفهم، خفض رأسه قليلاً لكي لا تستمر في النظر إليه هكذا، لأنه في لحظات معينة يخاف تلك النظرات، وربما يضطر للتراجع. قال لها ورأسه مائل ونظراته مصوبة إلى مسند الكرسي:

ـ تصلين أبوك وهو يعلمك شنهو معنى الكلام اللي قلته!

ابتسمت وهي تنسحب. نظرت إلى العيون التي تتابعها، هزت رأسها، وكأنها تقول: «تصبحون على خير».

أما عدلة التي لم تغادر فراش السلطان خلال الشهرين التاليين، وظنت أنها ستبقى في ذلك الفراش ما بقي لها من أيام، ولم تأبه للأحلام والكوابيس التي لاحقتها خلال تلك الفترة، وعزتها إلى الطعام، وإلى ارتفاع الوسادة التي تنام عليها، فقد اكتشفت، بمرور الوقت، أن هذه الكوابيس وحدها هي التي ستلازمها إلى أيامها الأخيرة، إذ بعد أن سفّرها السلطان، وعادت إلى موران، وعادت إلى الأكل الذي تفضله، وإلى الوسادة التي تعودت أن تنام عليها، فإن الكوابيس لم تفارقها، بل كانت تتزايد وتثقل على صدرها. وحين سألت نجمة العجرمي أن تساعدها، ردت عليها بسخرية:

ـ ما يفيدك إلا نجم الدب، هو اللي يفك السحر ويرخي الحبال!

وحين لم تفهم، أضافت:

ـ ما لك إلا وداد، يجوز تبخرك أو تسوي لك دوسة، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك فعليك بديك أسود وخصوة ثور وجلد حية ولسان عصفور، تطحنيها كلها زين، وتبيتيها كلها تحت السما، وبعدها إذا شربت منها تتعافين فقولي آمين!

المنفى . . . المكان البارد، الموحش، الذي يشعرك دائماً أنك غريب، زائد، وغير مرغوب فيه؛ المكان الذي تفترضه محطة، أو مؤقتاً، فيصبح لاصقاً بك كالعلامة الفارقة. وربما لأنه مؤقت يصبح وحده الأبدي، كالقبر، لا يمكن الهروب منه أو مغادرته.

حتى الفرح والمسرات الصغيرة، وأيضاً الانتصارات العابرة أو الموهومة، إن لها في المنفى مذاقاً مختلفاً: إنها ليست لك. إنها مؤقتة، هشة، وتتحول بسرعة إلى حزن كاوٍ، وإلى بكاء لا يعرف التوقف. أما كيف تذوب وتتراجع كالحلم، ولا تشبه مثيلاتها التي تحدث في الوطن، فإن في الأمر سراً يستعصي على الفهم أو التفسير.

فما كادت سلمى وأبوها يغادران القصر، تلك الليلة، ولا يعرف متى حصل ذلك، أو إلى أين، وما كاد اليوم الأول ينقضي، ولم يبق أحد إلا وعرف، حتى أحس الجميع بالفراغ، بفقد شيء ما. في الأيام التالية مازج الفراغ شعور بالخطأ، ما لبث أن تحول إلى خطيئة. صحيح أن الحكيم لا يعني للكثيرين شيئاً مهماً، ولم تقم بينه وبين أغلب الموجودين علاقة من أي نوع، بل أكثر من ذلك كان يبدو بالنسبة لهم بعيداً أو أقرب إلى الشبح، ومع ذلك، أخذت الشفقة عليه تزداد يوماً بعد آخر.

أما سلمى، وقد جاء هذا «الجيش» معها، أو من أجلها، واعتبرت شؤماً وقدماً سوداء، وربما تسببت فيما وقع في موران، فإن أحداً لم يرها منذ أن وصلت إلى بادن بادن، ولذلك غابت تلك الصورة عنها أو تراجعت. وحين أخذت قصص السلطان تنتقل وتعم، كيف يترك الربع

ويصعد إلى الطابق العلوي، وكيف لا يتعب ولا يمل، مثل أي ديك، وهو يصعد وهو يهبط، فقد تساءل الكثيرون همساً: «الكل كبَش عشرين نعجة، أما هذا التيس فما عنده إلا هذه السخلة، فكيف تحتمل في الليل والنهار؟» ولذلك تغيرت النظرة لها، واختلفت العواطف تجاهها. أما بعد أن نُقل عن زيد كيف غادرت القصر، دون أن تحمل معها أي شيء، وأنها كانت مكسورة حزينة، ولا يعرف أين ذهبت أو ما هو مصيرها، فقد ساد شعور أنها ضحية، ولا تستحق مثل هذه النهاية.

ترافقت صورتها، وهي تغادر هكذا، بذلك الشجن الذي يضاعفه المنفى مئات المرات. أحس أغلب المقيمين أنهم ضحايا، وأنهم معرضون لنفس المصير، ولا يختلفون عن هذه الفتاة الصغيرة، التي امتُصت ثم رُميت!

وشيئاً فشيئاً، ويوماً بعد آخر، أخذت صورة السلطان تهتز وتتغير. لم يعد أباً رحيماً، ولا إنساناً مظلوماً، كما أنه لم يختلف، رغم الابتسامات والود الذي بدر منه تجاه عدد من الحرس وبعض الخدم، عن الإنسان الذي كانه هناك: أنانياً، قاسياً، لا يعرف الرحمة حتى تجاه أقرب الناس إليه.

عدلة التي لم تخرج خلال الأيام السابقة، أخذ الحرس يشاهدونها تتدحرج كالكرة يومياً، قاطعة المسافة مرتين بين بوابة القصر والبوابة الخارجية، ذاهبة إلى طبيب الأسنان أو راجعة من عنده. كانت تتعثر في مشيتها، وتنظر إلى كل شيء بخوف، وكأنها تحاول أن تثبت براءتها، دون كلمة، أو تعلن عدم مسؤوليتها عن كل ما حدث!

قدّر الكثيرون، خاصة من الحرس والخدم، وإن لم يملكوا معلومات، عكس ما كان الحال في قصر الغدير، أن عدلة مسؤولة. وقد عبروا عن ذلك، فيما بينهم، ولنزلاء الفندق، بصراحة ودون تردد، خاصة وأن عمليات التمويه هذه لم تنطلِ عليهم، أكثر من ذلك، أحسوا أنها تخدعهم. حتى النذر الذي وزعته في اليوم الثالث لمغادرة الحكيم، وقد أشرف مجلي

بنفسه على توزيعه، وكان عبارة عن حلويات صُنعت في القصر، ومعها مبلغ من المال، لم يستطع أحد أن يفهمه أو أن يفسره إلا باعتباره نكاية وشماتة، ودليل على أنها انتصرت في هذه المعركة، أيضاً!

نزلاء الفندق كانوا أكثر شراسة وأكثر تحدياً، ليس لأن الحكيم يعني لهم شيئاً، وإنما لأنهم منسيون من قبل القصر، متروكون، لا يعرفون ما يخبئه لهم الغد. ليس ذلك فقط، أصبح مبارك المويئع، الذي كان مكلفاً بقضايا الأمن، إنساناً لا يطاق: عمليات الاستدعاء والتحقيق تجري كل يوم في الغرفة ٣٣٧. سحب جوازات السفر والاحتفاظ بها في القاصة الحديدية، خاصة بعد عمليات الهروب العديدة التي وقعت، وكان آخرها هرب بدري المدلل، حلاق صاحب الجلالة. التوقف عن صرف المخصصات الأسبوعية، أو تأخيرها، نتيجة الاختلاف حول أي من الأمور، أو بسبب الشك الذي يحوم حول بعض الأشخاص.

كان مبارك، المتين، الشديد السمرة، الأقرب إلى السواد، إنساناً دمثاً خلال الأسابيع الأولى، ولم تكن صفته واضحة أو محددة بالنسبة للكثيرين. كان يظن أنه من فريق المشتريات؛ وقيل أنه من الحرس الخاص؛ وذكر أنه جاء مع السلطان لإجراء عملية في عينه اليسرى، لأن غشاوة بدأت تزحف على هذا العين، وأشار عليه الأطباء الذين راجعهم في موران بضرورة إجراء عملية في الخارج، وقد توسط له الحكيم، وضم إلى الوفد المسافر في آخر لحظة، إلى أن تبين خطأ جميع هذه التقديرات، وتأكد ذلك بعد أن تم استدعاؤه للقصر، ومقابلته الطويلة مع زيد الهريدي وصالح الهلالي، مسؤول أمن السلطان، وتسربت أقوال أنه قابل جلالته، وأقسم يمين الولاء، مجدداً، أمامه.

بعد هذه التطورات، وفي محاولة لضبط الأمن، والتأكد من سلامة العناصر، إتخذ مبارك تلك الإجراءات.

كان من الممكن أن تقبل الإجراءات التي اتخذها، لو أن ظروف الرجال عادية، أو كانوا من طبيعة واحدة، لكن لأنهم خليط من المستويات

والأمزجة والعلاقات، فإن ردود الفعل لا تنتهي، والمواقف تتغير بين يوم وآخر، مع ما يرافق ذلك من خصومات وتحديات لا تتأخر لكي تصل أصداؤها إلى القصر.

ترافق هذا مع همس وإشاعات تتزايد وتتسع، أن مبارك، وهو يلجأ لتلك الإجراءات، لا يصدر عن رغبة لوضع حد للاضطراب الذي يقع بين نزلاء الفندق، وإنما نتيجة تعليمات من السفارة في بون، بحكم القرابة بينه وبين بديوي المطلق، مساعد القنصل. ومما يؤكد ذلك أن بديوي زار بادن بادن، خلال شهر واحد، مرتين، وفي المرتين التقى مطولاً مبارك. وراجت إشاعات أيضاً أن حماد الذي اختار مبارك لهذه الرحلة، وليس الحكيم، كان مكلفاً، ومنذ البداية، بمهمة، لكن طلب منه أن يتستر عليها، وأن يسلك سلوكاً من شأنه أن يخلق الطمأنينة لدى الجميع، حتى إذا حانت الساعة المناسبة قلب كل شيء.

امتناع مبارك عن صرف مخصصات عدد من نزلاء الفندق، بحجة السكر، وقد حصل ذلك في الأسبوع التالي لمغادرة الحكيم، فجرّ الموقف، إذ بالإضافة إلى «اعتقال» مبارك في الغرفة ٣٣٧، عُقِد اجتماع في الصالة الخلفية، القريبة من المطعم، وقد حضر هذا الاجتماع معظم النزلاء، وتقرر فيه: عزل مبارك، وتسمية وفد لزيارة القصر ومقابلة السلطان، لعرض الموقف عليه، والإتفاق على صيغة جديدة.

حصل هذا في جو من الهياج والاضطراب، وقد امتزجت كلمات الغضب بنظرات التحدي، بالشتائم، الأمر الذي اضطر إدارة الفندق لاستدعاء البوليس والاتصال مع القصر.

قيل إن عدد القوات التي حاصرت الفندق، وهي من القوات الخاصة، يكفي لاحتلال ثكنة عسكرية محصنة؛ كما رافق القوات عدد من سيارات الإطفاء الإسعاف، وأقيم، غير بعيد من الفندق، مركز قيادة، أما الشوارع الثلاثة الموصلة للفندق فقد سدّتها سيارات الشرطة؛ أما سطح البنايات المجاورة فقد احتلها القناصة!

إنه واحد من الأيام القليلة الذي تتذكره بادن بادن، ومع الذكرى تتداخل العواطف والأفكار وتختلط. فمدير الفندق، الذي نقل إليه ما يجري في الطابق الثالث، وشهد، من بعيد، جزءاً من الاجتماع الصاخب في المقهى الخلفي، كان متيقناً أن عملية قتل جرت في الغرفة ٣٣٧. ومدير بوليس المدينة نتيجة تقارير المخبرين، كان متأكداً من وجود كميات كبيرة من السلاح غير الشرعي، الذي قد يستعمل في أغراض خطرة، وحين أبلغ رؤساءه، واتصلت الخارجية بسفارة السلطنة ببون مستفسرة عن وجود سلاح، كان الجواب ملتبساً، ويحتمل أكثر من معنى، مما أكّد المعلومات السابقة! وقد فوّض مدير شرطة المدينة أن يتخذ الإجراءات المناسبة، «بأقل ما يمكن من الخسائر، وفي الوقت المناسب، مع أحكام المراقبة». والبارمان ورئيس المطعم أكدا، عندما سئلا، أن ثلاثة، على الأقل، من الوفد كانوا في حالة سكر ظاهر، وكان لهؤلاء دور فيما حصل قبل ظهيرة اليوم التالي.

وقصص مقابلة: أن مبارك لم يمتنع عن دفع المخصصات، وإنما أبلغ الذين راجعوه أن أحد المكلفين، مع مترجم، ذهب لإحضار الدراهم من البنك، وحالما يعود سوف يدفع لهم مخصصاتهم. قيل أن المترجم تاه في الازدحام، وضاع المكلف، ولم يستطع العودة للفندق إلا بعد الثالثة، وأثناء إخراج النزلاء بالقوة! وهناك من يؤكد أن المترجم مرتبط بالبوليس، وربما بالسفارة أيضاً. وأكد أحد الذين رووا القصة لزيد والهلالي، أن المترجم كان يسكر في الليلة السابقة مع الذين راجعوا مبارك بطلب المخصصات، فرفض استقبالهم وأغلق على نفسه الغرفة من الداخل.

ولا يعرف لماذا لم يعثر طيلة ذلك اليوم على هانس أورلخت، إذ لم يتصل، كعادته، ولم يمر، كما كان يفعل خلال يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع، وذهبت كل المحاولات للاتصال به دون جدوى!

أما المترجم الذي حضر مع مفرزة الشرطة للقصر، فقد خلق من الإرباك وسوء الفهم أكثر مما سهّل أو ساعد للوصول إلى تفاهم أو إلى

حل، لأن لغته العربية كانت خليطاً من المفردات المالطية والشتائم، الأمر الذي اضطر زيد إلى الإنسحاب وإغلاق بوابة القصر، وقد تسبّب ذلك، في وقت لاحق، بمضاعفات عديدة.

وغير ذلك من الملابسات كثير. أما عندما وصل خمسة من نزلاء الفندق إلى القصر، وقد وصلوا بسيارتي أجرة، وبناء لاتفاق بين إدارة الفندق والبوليس، فكانوا في حالة من الاضطراب والخوف والفوضى، بحيث لم يستطيع زيد أن يفهم عليهم إلا في وقت متأخر. أكثر من ذلك، ظن أن شيئاً حصل في موران، وليس في الفندق، وخلال لحظات كاد يتركهم ويهرع لإبلاغ السلطان، لكن خوفهم واضطرابهم سرى إليه، الأمر الذي اضطره إلى الصراخ كالملسوع:

ـ يا عباد الله، اسكتوا. خلوا واحد منكم يتكلم، وخلنا نفهم شنهو اللي صاير بالدنيا.

ورغم أن الصمت ساد، وبدأ شعلان الشبل يروي ما رأى وما سمع، إلا أن تدخلات الآخرين وتصحيحهم لبعض الوقائع، خلق الفوضى من جديد. ومع ذلك، فهم زيد أن الأمر يتعلق بالسكر ومبارك وإدارة الفندق. ضرب على فخذه بقوة وخرج صوته كالفحيح:

ـ فوق السكر وقلة الدين، هالحين بلشتونا مع أولاد الحرام، اللي الواحد لا يقدر يصل معهم لا لحق ولا لباطل، مع الألمان؟

ونهض، دار في الغرفة، لا يعرف ماذا يفعل، وبعد قليل قال بحقد:

ـ الله يخزيكم كسرتم عرضنا ونكّستم عُقلنا.

قال سلطان الفهيد، وهو أحد أقرباء عدلة غير البعيدين، وجاء للعلاج:

ـ إلزم حدك واحفظ لسانك يا زيد...

وبعد أن هدأ قليلاً، تغيَّر صوته:

ـ الكلام اللي قلته تقوله لغيرنا، للمخطين وأصحاب الطلايب!

ـ يا عباد الله، تركناكم بهواكم. قلنا لأرواحنا: خلهم. لا شفنا ولا سمعنا. وبعدها هذا اللي يطلع منكم؟

قال شعلان الشبل:

ـ يا أبو راشد حنا ما علينا، حنا واسطة خير، وهالحين يلزمكم تلحقوا جماعتكم هناك، لأنا تركنا الدنيا قايمة قاعدة، وما يندري شنهو اللي يصير.

وبدأ الركض وبدأت التلفونات. لكنه ركض العميان، وتلفونات باردة أقرب إلى الموت.

قال صالح الهلالي للسلطان:

ـ . . . . وأرى يا صاحب الجلالة أن تقابلوا الحكومة الألمانية، لأن الأمور وصلت إلى حد لا يمكن معه السكوت. .

وكاد يتابع، إلا أن ضحكة السلطان الحزينة، جعلته يتردد، قال زيد وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ لو ابن الحرام، الحكيم، سمع كلامنا، وظل هنا، كان عرف شلون يدبر الأمور، لكنه ما يبول على يد مجروح، وما هامّته إلا روحه.

سأل السلطان بطريقة مسكينة:

ـ والحين. . . شنهو اللي راح تسوونه؟

ـ أصل، طال عمرك، المخفر، أنا وصالح، ونسوي اللي الله يقدرنا عليه!

قال السلطان لابنه مجلي:

ـ وأنت تظل ترقع بالتلفونات على سفير الزق، ابن السحيمان، إلى أن تحصّله، وإذا حصلته، ما عليك، عطني، وأنا أتفاهم معه!

وذكر بعض الحرس، وأكد ذلك خادمان من خدم السلطان، أنهم لم يروا السلطان نزقاً مضطرباً مثلما كان ذلك اليوم. فما كاد زيد والهلالي يغادران القصر، وقد توجها، مع عدد من المرافقين، إلى حيث ينزل

المترجم الجديد، العنجري، حتى بدأ السلطان بالسؤال إن عاد أم لا. كان يفعل ذلك كل بضع دقائق. وقيل إنه صرخ على إحدى بناته بخشونة حين سألته إن كان يحتاج شيئاً. أما عدلة التي ظلت تدور، دون أن تجرؤ على سؤاله أو محادثته، فقد لجأت، مثل عادتها، إلى روفة. قالت لها بهمس:

ـ إذا لاح سنه وضحك، لك مني رشادية!

وروفة التي تعرف كيف تضحك النسوة، بعيونها، بحركات وجهها، أو بتلك التوريات البذيئة، اقتربت من السلطان، متظاهرة بالإعياء وما يشبه المرض، فما كاد يراها تقترب هكذا حتى توقف. تطلع إليها وظل صامتاً. قالت برجاء:

ـ أريدك تسامحني يا طويل العمر، وما تخيّب رجاي...

ظل يتطلع دون أن يتكلم، تابعت:

ـ الله يفكّ كربتنا ويرجعنا لديرتنا، وهناك، إذا الله يريد، يأخذ أمانته.

تضايق السلطان، زفر. هجمت عليه تريد تقبيل يده. رفض، قالت بانفعال:

ـ ما أريد أموت بهالديرة، يا طويل العمر. وأنا هالحين وجعانة، وجاني طيف قال لي: ما تشفين من علتك إلا إذا طويل العمر حط يده على راسك أو باس قصتك فاريد واحد من الاثنين، أو الاثنين جميع.

ضحك السلطان، لكن ضحكته كانت مسكينة، وكانت تثير الشفقة أكثر مما تولد الفرح. اقتربت منه. أمالت إليه رأسها، تاركة له الخيار أن يفعل ما يراه مناسباً. لمح في عينها مكراً، قال وهو يضع يده على رأسها:

ـ لو كنا بموران هالحين كان لقيت لك تكروني يسنّعك زين ويشفيك من أوجاعك كلها، يا بنت الحرام!

أما كيف تطورات الأمور بعد ذلك، فهناك عشرات الوقائع والتفاصيل المرهقة، والتي تختلط معاً إلى درجة لا يمكن معها معرفة الحقيقة. فالسفارة التي امتنعت عن الإجابة خلال الأيام الثلاثة الأولى، أصبحت

المفاوض الوحيد، سواء مع المدينة أو مع السلطات الاتحادية. والبوليس الذي رفض أية مناقشة مع زيد الهريدي والهلالي، لإطلاق سراح اثنين وعشرين من الموقوفين، بتهمة حمل السلاح والتعدي على رجال الشرطة، إضافة إلى المقاومة المسلحة، وحين ألحّا، ورفع زيد صوته مهدداً، خُيّر بين الانصراف أو أن ينضم إلى الموقوفين! أما كيف تغير موقف البوليس، بعد ذلك، فأصبح أكثر مرونة ووداً، بل وبلغ الأمر، في لحظات معينة، أن يمزح بعض الأفراد منهم مع زيد، فإن المترجم الذي جاء من بون ليس أكثر كفاءة من العنجري، لكن حصل شيء خلال ذلك!

وإدارة الفندق التي رفضت استقبال الموقوفين؛ بأية صورة من الصور، ولو لليلة أو اثنتين، بحجة عدم وجود أماكن، وأودعت حاجاتهم في مستودع الأمانات السفلي، خطت خطوة إضافية، إذ أشعرت الآخرين بضرورة البحث عن أماكن جديدة، «لأن الفندق سوف يغلق أبوابه بعد عشرة أيام للترميم!».

وإجراءات التسفير لعدد كبير من المرافقين والمرضى، وقسم من الحرس، بحجة انتهاء الإقامة الممنوحة بالتأشيرة، استطاعت السفارة، بعد جهد وانتظار، أن تجدد لعدد منهم، وأن تتولى هي تأمين سفرهم، بدل عمليات الطرد والتسفير التي تهدّد بها السلطات الألمانية.

وإلى أن تتم عمليات التسفير نقل قسم كبير من هؤلاء إلى شتوتغارت، ورغب آخرون أن يسافروا إلى إسبانيا وإنكلترا، على أن يواصلوا سفرهم بعد ذلك إلى موران، عدا عن نقل الباقين إلى القصر، ونصب خيمتين في الحديقة لإيوائهم.

وهانس أورلخت الذي غاب اليوم التالي بطوله، اتصل يوم الأربعاء، لكن لا ليساعد في حل المشاكل القائمة، وإنما ليضيف هماً جديداً: القصر. فصاحبه يطلب إخلاءه فوراً. وبعد مشاورات شاقة، تدخلت السفارة في إحدى المراحل، تم الاتفاق على شرائه، وبشروط البائع، وبالسعر الذي طلبه. كانت عملية شاقة طويلة، أزعجت السلطان كثيراً، وقد

فكر في أن يركب ويسافر فوراً إلى موران، أياً كانت النتائج. إلا أن وصول مشعل، الابن الأكبر، وثلاث من نساء السلطان، غيّر في الموقف. إذ كانت معلومات مشعل وتقديراته أن الأمور بدأت تنضج. والانتظار، رغم كونه صعباً، لمدة شهرين أو ثلاثة شهور، سوف يؤدي إلى تغييرات جوهرية، «ولمصلحة القضية»، كما قال، وهذا التقدير استناداً إلى توصيات مشددة من عدد من الأعمام، أخوة السلطان، وأقرباء آخرين، إضافة إلى رجاء، على شكل توسّل، من كبار قادة الجيش، خاصة الطيران وسلاح الحدود، والذين يعملون ليل نهار من أجل عودة السلطان وعودة الشرعية.

ومبارك الذي كان جلاداً وضحية، وقد أطلق سراحه من الغرفة ٣٣٧ خلال الدقائق الأولى لاقتحام الفندق، لم يعرف كيف يتم التعامل معه، أو إلى أين يجب أن يرسل. قيل انه طلب البقاء في الفندق، إلا أن الإدارة أغلقت الطابق الثالث بمجموعه، لإجراء إصلاحات عاجلة، ولم تجد له، بالمقابل، غرفة في أي من الطوابق السبعة الأخرى، رغم تدهور حالته النفسية، وكان بحاجة إلى الراحة، وتبديل ملابسه، بعد الشيء الذي حصل! وقيل إن البوليس اقترح نقله إلى القصر، أو إلى فندق آخر، لكن ظل الأمر معلقاً أو قيل لا يراد حسمه، انتظاراً لتعليمات لاحقة، إلى أن جاء بديوي المطلق في مساء اليوم ذاته وأخذه بسيارته إلى بون، وقيل إن ذلك تم بعد عدة مكالمات هاتفية!

ونساء السلطان اللواتي جئن إلى بادن بادن: لقد فعلن ذلك بعد أن أبلغن، وبطرق خاصة، أن صحة السلطان خزعل تدهورت، وأنه طلب مجيئهن، وقيل لهن أشياء كثيرة أخرى! كما قيل لمشعل أن وجود مجلي وحده هناك يمكن أن يقطع الطريق عليه، ولذلك لا بدّ من سفره، خاصة أثناء إجراء ترتيبات معينة، في نقل الثروة وتقسيمها، وربما أمور تتعلق بالسلطة، أيضاً.

كان وصول الزوجات الثلاث مفاجأة للسلطان، وكذلك وصول مشعل.

وإذا كانت لكل واحدة من الثلاث اللواتي وصلن ميزة وموقع في قلب السلطان، إلا أن المفاجأة كانت أكبر من أن يستوعبها. ومثلما قيل لمشعل حول شؤون الثروة وولاية العهد ومنافسة الآخرين، فإن لدى الزوجات من الحوافز ما يفوق الرجال، في غالب الأحيان، وهذا ما قيل لهن بكل تأكيد.

طبيعي أن يخلق وصولهن، مع عدد من المرافقين والخدم، وعدد من الحرس أيضاً، مشاكل لها علاقة بالإقامة، وبالآخرين، لكن السفارة كانت موجودة وجاهزة، فقد رتبت، مبكراً، الإقامة بالنسبة للجميع في فنادق خارج المدينة، أو في فيلات تم استئجارها بشكل عاجل. وقد تم اختيارها على مسافات مناسبة، بحيث تمكّن السلطان، لو أراد، أن ينتقل، دون مشقة، وأن تكون من الإتساع بحيث لا يشعر بصعوبة أو حرج لو أراد أن يقضي فيها يوماً أو اثنين!

كاد السلطان يتخوف ويرتاب من مجيء الجميع، إلا أن المعلومات التي وصلت، والعواطف التي حملت هذه الأرهاط على القدوم، جعلته ينسى المصاعب، ويهجس بالاحتمالات، ويغرق في التفكير والحلم.

قال لزيد بعد أن تطامنت العاصفة، وبدأت المشاكل تجد الحلول:

ـ أخطينا يا زيد أنّا تركنا هالقرمبع كله بوجوهنا طول هذي المدة. لو تركناهم يرجعون لديرتهم، لأهلهم وعشيرتهم، كنا استرحنا واستراحوا، لكن البني آدم ما يتعلم.

رد زيد الذي لم يعد قادراً على استيعاب كل ما يجري حوله:

ـ ظني يا طويل العمر، أن الحكيم أبو غزوان، ما هو بعيد عن الشيء اللي صار.

ـ هذا رأيك يا زيد؟

ـ وظني يا طويل العمر أنه مع الألمان، أو وصلته تعليمات موران، وفنر بالخصوص، لأن الخويا اللي جوا من هناك يقولون ابنه، غزوان، يسرح ويمرح!

ـ بدّل، غير، يا ابن الحلال.

ـ هذا اللي سمعته يا طويل العمر، ويلزم أبلغك به.

أما صالح الهلالي فقد شغله تماماً أمر مبارك. هل يمكن أن يكون خدعه؟ هل يحتمل أن تكون مغادرته لبادن بادن نتيجة اضطرار أم حسب ترتيب مع جهة معينة؟

قال للسلطان حين سأله عنه:

ـ . . . والجماعة لما كظّوه، يا طويل العمر. أذُوه. وقالوا لي إن اثنين ضربوه ضرب كفار، وتفلوا بوجهه، وقالوا له: هذا المقدّم، أما المتأخر فالأحسن أن تشوفه بعينك، لا أن تسمعه بإذنك. . .

وبعد قليل، وبهمّ:

ـ والله العليم أنه خاف. قال لروحه: ديار بعيدة وغريبة، وأخاف ما ألقى من يحميني ويدافع عني، والأخير أتوفى، وجاه قريبه لقاه مستوي فجّره مثل ما تنجّر الشعرة من العجين.

قال السلطان، وخرج صوته من أعماق صدره:

ـ الغايب عذره معه، خلنا نستخبر، وبعدها الله كريم.

ثلاثة شهور من السكينة والأحلام بعد الطربقة، وهذه تسمية السلطان نفسه، خيمت على القصر في بادن بادن، وعلى الفيلات التي زارها السلطان خلال تلك الفترة. إذ بالإضافة إلى الأخبار التي وصلت مع القادمين الجدد، وقد استقصاها جلالته بكثير من العناية والدقة، وقارنها بما سمع من قبل، وتأكد، فإن اثنين من إخوته وصلا بالتعاقب، مهيد ومزعل، وأكدا وأقسما، كل بطريقته، ندم فنر على ما حصل، وأنه بعد أن راجع نفسه، وراجعه الأخوة الآخرون، اعترف بخطئه، وأعلن أمامهم ندمه وتوبته، لكن يفضّل أن يتم التراجع عن الخطأ في بحر شهرين أو ثلاثة، «لئلا يشمت بنا الناس، ونطمع العدى» وكتعبير عن هذا التوجه، طلب تأمين راحة السلطان في المصيف، وتوفير كل ما يحتاج، كما طلب من الأولاد والأخوة القيام بزيارته والتماس العفو منه.

كان السلطان يسمع ويهز رأسه، وإن ظل مع الإخوة، وعدداً آخر من الزوار، مغلقاً متحفظاً، أقرب إلى التكتم، لكنه لم يخف استعداده لتناسي الماضي، والبدء من جديد.

السفير الذي استغل وصول الأميرين، مهيد ومزعل، ورافقهما في الزيارة، وقع على رجليّ السلطان يريد أن يقبلهما، طالباً السماح والعفو، إلا أن السلطان قال له بحزم أقرب إلى الخشونة:

ـ أنت يا ابن سحيمان عبد مأمور، ما لك ذنب وما عليك عتب، إلا كابن عرب، لأن مهما صار بيني وبين الجماعة هناك فأنت غريب، وما لك لا ناقة ولا جمل، فيلزم تقول: مرحباً، شلونكم يا جماعة الخير؟ محتاجين شي؟

هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ هذا كان واجبك، ومع ذلك ما يخالف.

وتذرع ابن سحيمان بالسفر والانشغال، ثم أشار إلى الجهود التي بذلها شخصياً مع الألمان، يوم الفندق، وبعد ذلك. . .

وختم حديثه بتوسل:

ـ ورغم كل اللي صار، يا طويل العمر، أعترف أني مقصّر ومحقوق، وعيب أقول أمامكم، يا طويل العمر، أني ما أنام الليل، وتحركت عليَّ كل الأمراض، وأتمنى اليوم اللي استعفي وأخلص، لكن ما هو كل ما يتمناه المرء يدركه.

وكتعبير عن حسن النيّة، والتوجّه الجديد، استبقى السفير سيارته الرسمية في قصر بادن بادن، وسأل زيد الهريدي، بصوت عالٍ، يريد أن يسمعه السلطان، عن عدد السيارات التي تكفي لاستعمالات القصر وضيوفه، وما إذا يفضلون غير السيارات الألمانية. وسأل عن أية حاجات أو خدمات تستطيع أن تقدمها السفارة. وزيد الذي تطلع إلى السلطان، ولم يجب، تولى الإجابة نيابة عن مجلي، لكن بدعابة، قال:

ـ سبحان مبدّل الأحوال. . .

قال السلطان ليقطع الطريق على أي احتكاك:

ـ يظل ابن سحيمان يرده حليبه، ما هو مثل الناس اللي ياكلون وينكرون. . .

وكاد يغضب، حين تذكّر الكثيرين، لكنه أحجم، خوف أن يفشي ما انتواه بأن لا يظهر عليه إلاّ التسامح والرضا، إلى أن يعود، فإذا وصل إلى موران، إلى ما كانه في الماضي، فإن الروس اللي راح تطير، والجماعة اللي راح يجيفون بالحبوس لهم أول وما لهم تالي: كل ابن حرام ساعد فنر؛ كل من أيده؛ كل من قال له: العوافي، وزين ما سويت، راح يصير أثر بعد عين». هكذا كان يقول السلطان لنفسه، في بعض اللحظات. وقال شيئاً مشابهاً لعدلة ولمجلي، لكن كلامه كان عاماً، لم يحدد اسماً ولم

يحدد وقتاً. الآن في مواجهة ابن سحيمان لا بدّ أن يبقى كبيراً، فالسفير، في النهاية، لا يتجاوز الموظف الذي يبلّغ رؤساءه كلّ شيء، كجزء من الوظيفة وكتعبير عن الولاء.

مرت هذه الأفكار في رأسه، تابع وكأنه يخاطب نفسه:

ـ ومع ذلك، لكل حصان كبوة، ولكل سيف نبوة. . .

وضحك بصوت عالٍ. التفت إلى الذين حوله، وقال بفخامة:

ـ وهذي مورانا صغيّرة يا جماعة الخير، ومهما حاول الواحد أن يغيّر أصله، أو يلبس هدوم غيره، ترى ما يخفى. إذا ما بيّن أول يوم، ينكشف بالثاني، وبعدها ما يقدر يرفع راسه، ولا يقدر يناظر الناس.

قال ابن سحيمان لينهي الموضوع:

ـ أهل السماح ملاح، وجل من لا يخطئ.

قال شايع السحيمي الذي ظل ساكتاً، على غير عادته، طوال الوقت:

ـ الغلط بالميزان موجود، والخطأ بالحسب مردود، بس غلط اللسان أبد ما ينسي، والقلب إذا زاغ وانحرف أبد ما يعود مثل ما كان.

رد السلطان بمكر:

ـ يا أبو عاهد، يلزمك تعرف: حتى عليه الصلاة والسلام قال: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور»، إلى أن مات، أو بالصحيح إلى أن قُتِل عمه حمزة، فما حمل ولا قدر، فقال: «ألا فزوروها».

وتلفت السلطان في الوجوه ليرى وقع كلماته، فلما وجد موافقة وقبولاً أضاف:

ـ العصمة ما تكون إلا لنبيّ، وجلّ من لا يخطئ.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فإن موظفاً من الخارجية زار القصر، ولم يكن زيد متأكداً إذا كان هو الموظف ذاته الذي جاء قبل بضعة شهور أم غيره، لكن ما قاله في توضيح الإجراءات التي اتخذت، تعتبر بمثابة اعتذار، أو هذا ما فسره زيد والهلالي معاً، وكان العنجري مترجماً. أما

العنجري فقد فهم من الزيارة شيئاً آخر: كانت الخارجية الألمانية تريد أن تعرف إلى متى سيبقى السلطان، وعدد المرافقين، وما إذا جلالته يطلب اللجوء السياسي. وأكد أن كل شيء قابل للبحث والدراسة على ضوء القوانين الألمانية. رد زيد بأن الجميع سيلتزمون بالنظام والقوانين، «وأن كل شيء سيكون حسب رغبة الألمان» والسفارة مفوضة بالأمر، واعتبر الزيارة اعتذاراً، وقد وافقه الهلالي، الذي قال معلقاً على هذه الزيارة:

ـ لما زرناهم: لا هلا ولا مرحبا، وكأنهم ما يعرفون الناس. أما هالحين فوصلونا على رجليهم، وما هو بس كذا: سألوا وعرفوا، وقالوا: نصلهم قبل ما يأخذون على خاطرهم، فالله يكثّر خيرهم وعفا الله عما مضى.

حتى هانس أورلخت لم يعد يفارق خلال هذه الفترة، لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد جاء مرتين بصحبة المحامي. صحيح أنه في إحدى المرتين لم يكن من السهل إجراء أية محادثات، لأن المترجم، وكان ابن سلطان الفهيد، ولم تمض على إقامته في ألمانيا سوى ثلاث سنين، لم يكن «يعرف المصطلحات القانونية والاقتصادية»، كما أوضح في تعليل عدم استمرار الترجمة بخصوص شراء القصر الثاني للسلطان، في شمال ألمانيا، عدا عن الأرقام التي حُدّدت ثمناً للقصر، وقد كتبها هانس بأرقام كبيرة، بحيث أن الهلالي، الذي قضى سنة ونصفاً في الولايات المتحدة، بدورة تدريبية، عرفها وهمس لزيد يبلغه عن ثمن القصر! أمّا الزيارات الأخرى، خاصة بعد أن فرض زيد على العنجري الإقامة في القصر، «للضرورة» ثم «لأمر سام من السلطان» فقد كانت أسهل، وتم الوصول إلى نتائج بشأن القضايا الّتي كانت تطرح.

كتب يونس شاهين في يومياته عن تلك الفترة: «. . . ولم ينس عظمة السلطان، رغم كثرة مشاغله، تقصي أدق التفاصيل المتعلقة بأخيه المعزول. كان يتصل بالسفارة ببون يومياً، ويتحدث مطولاً مع السفير والملحق العسكري؛ وكان أيضاً يتلقى تقارير ضافية من بعض مرافقي

السلطان المخلوع، وكانت هذه التقارير تصل عبر قنوات متعددة.

«إن اهتمام السلطان ومتابعته بسبب الدقة، والظروف الخاصة المحيطة بعملية العزل، إذ كان يخشى رد الفعل، خاصة من قبل رجال القبائل والمشايخ، إضافة إلى أفراد العائلة السلطانية.

«أما عندما أبلغ جلالته الأمير مجحم أن الدكتور محملجي أصبح ثانوياً فلم يصدق. بدا فرحاً مثل طفل، وقال كلمة لا بدّ من تسجيلها: يجب أن يغادر، أن لا يبقى إلى جانبه، لأن معظم الآخرين لا يستطيعون شيئاً إذا غاب.

«أما بعد أن غادر نهائياً، وبعد أن طلّق السلطان ابنته، فقد قال كلمة انتشرت بين رجال الحاشية، قال جلالته: «النصف الصعب انتهى، أما النصف السهل فهذا الزمن كفيل به». ولذلك أوعز إلى عدد من الأخوة، وإلى السفارة في بون، وإلى أصدقاء السلطان المخلوع، أن يجعلوه يعيش على الأمل، على الوعود، فترة بعد أخرى، فإذا انقضت شهور يصبح خبراً بعد أثر...».

أول صدمة وقعت حين صدرت عن السلطات الألمانية إشارة أن «الهلالي شخص غير مرغوب فيه بألمانيا» جاء هذا البلاغ عن طريق هانس أورلخت، وقد نقله لزيد، استناداً إلى أقول المحامي، الذي بلّغ عن طريق السلطات المحلية، بعد انتهاء التحقيق بموضوع الفندق، والسلاح غير المرخص الذي عثر عليه لدى عدد من الموقوفين، فقد اعترف الكثيرون «أنه سُلّم إليهم من قبل صالح الهلالي». وزيد الذي فوجئ وارتبك، لم يعرف هل يلجأ إلى السفارة لمعالجة الموضوع أو إلى السلطان، وظل حائراً ثلاثة أيام، باعتبار أن ابن السحيمان غادر إلى فرانكفورت لحضور معرض زراعي. أما حين جاء مفوض من قبل المحكمة، لإبلاغ صالح الهلالي ضرورة مثوله أمام قاضي التحقيق للرد على التهم المنسوبة إليه، فقد كان رد القصر، وتم الاتفاق على الرد بين زيد والهلالي، «أنه غير موجود حالياً ويجب الانتظار».

لو أن الأمر اقتصر على مجرد استدعاء الهلالي لوجد له حل بالاتفاق مع هانس والمحامي. لكنه تجاوز ذلك إلى ضرورة تقديم صور شمسية لجميع النساء المرافقات للسلطان، بدءاً من عدلة وانتهاء بأصغر خادمة.

لقد أثار هذا الأمر قلقاً حقيقياً. فالنساء اللواتي وصلن إلى ألمانيا، وصلن بجوازات لا تحمل أية صور فوتوغرافية، إذ كتب مكان الصورة: «سيدة محجبة» ووافقت سلطات المطار والحدود على استقبال هاته النسوة، فما معنى أن تطلب صورهن الآن؟

اتصل زيد عدة مرات بالسفارة لمعالجة الأمر، فكان رد نائب القنصل، بديوي المطلق، «أن الصور ضرورية، وليس هناك بديل عنها: لا صور الأزواج، ولا صور الأخوة، والغريب أن السلطات الألمانية تساهلت في دخول النسوة دون صور فوتوغرافية».

ماذا يستطيع أن يفعل زيد؟ وما هو رد فعل السلطان، خاصة في مثل هذه الظروف؟ وماذا لو امتنع عن التجاوب مع السلطات الألمانية والاستجابة لمثل هذا الطلب؟

قال زيد لهانس، عن طريق المترجم:

ـ . . . ويلزمهم يعرفون: حريمنا كذا، وحنا راضين.

فأكد له هانس أن أمراً كهذا لا يمكن أن تسمح به ألمانيا، ولا بدّ من الاستجابة إلى مثل هذا الطلب العادي والمشروع. وحين يؤكد له زيد استحالة الأمر، يسأله، أو يتساءل: كيف يفسر إذن أن بنات السلطان وزوجاته ينزلن إلى الأسواق بوجوه سافرة؟ وكيف أن نزلاء الفندق يلتقون بهن في المقهى والمطعم، وفي برك السباحة أيضاً، ولا يشكل ذلك حرجاً بالنسبة لهن، ويمتنعن في نفس الوقت عن تقديم مجرد صور للوجه؟

والسلطات الألمانية إذا كانت تتساهل فإنها لا تنسى.

قال المحامي الذي جاء إلى القصر مع هانس، وكان العنجري يترجم:

ـ . . . ولا بدّ أن يعرف صاحب الجلالة، وجميع مساعديه، أن المحامي لا يستطيع أي شيء، إذا لم يتعاون معه موكله. . .

وحين بدا كلامه، رغم بداهته، غير مفهوم، أضاف بحزم:

ـ الأفضل لصاحب الجلالة، ولجميع المرافقين، أن يتعاونوا مع السلطات، لأن هذه السلطات تعرف كل شيء.

وخفّض المحامي صوته، وكأنه يبوح بسرّ إلى المترجم، فأكّد أن السلطات الألمانية تعرف بوجود صالح الهلالي، وبسهرات عدد من نساء القصر، وعلى صلة بموضوعات أخرى...

قال الكلمات الأخيرة وابتسم، وبعد أن هزّ رأسه عدة مرات أضاف:

ـ لا حاجة لأن تذهب كل مسألة إلى المحاكم، وأن يصدر بشأنها حكم، لأنها إذا وصلت إلى المحاكم تنتشر، ويمكن أن تضر بسمعة السلطان، وقد تصل إلى موران، إلى الطرف الآخر، أيضاً!

الأمور التي كان يراد إخفاؤها عن السلطان، كانت تصله قبل غيرها. إذا لم يسأل عنها بنفسه، خاصة بعد أن أصبح يقضي ساعات طويلة في «المنظرة»، وهي عبارة عن غرفة نصف دائرية تشكل بروزاً في القصر، وتشبه برج المراقبة في قلاع القصور الوسطى. كان من هناك يرى الداخلين إلى القصر والخارجين منه، فإذا جاء غريب، أو رأى شيئاً غير عادي، فلا بدّ أن يسأل عنه، اللهم إلا إذا شغله أمر آخر. أما الأشياء التي لا ترى مباشرة فهناك الخدم والنساء، ثم زيد أو أحد المرافقين، لا بدّ أن ينقله إليه، حتى من خلال الصمت، أو تبدل الملامح واختلاف السلوك.

حين يطول صمت زيد، أو تضطرب حركاته، يدرك السلطان أن وراءه شيئاً يريد أن يقوله، فيسأله بسخرية:

ـ لما كان خوينا موجود، ويصم حلقه ويسكت، كنت تقول: سبت. وهالحين أشوفك أنت السابت؛ وراك سالفه؟

وبعد تردد، وفي محاولة غير جادة للهروب، يعترف زيد، يقول كل ما عنده.

حين طُلبت الصور الشمسية، واحتار زيد بأمرها بعد أن تلقى ذلك الجواب من بديوي المطلق، لم يجد مفراً من مفاتحة السلطان.

صمت السلطان، أطرق مفكراً، حتى ظن زيد أن ليس لديه ما يقوله حول الموضوع، وكاد يبحث موضوعاً آخر، إلى أن جاء الصوت المثقل والمستسلم:

ـ إذا كان هذا طلبهم ما يخالف، وأنت تعرف: الضيف أسير المعزّب!

وبعد مناقشات تفصيلية تم الاتفاق على إحضار مصوّر إلى القصر، لكي يقوم بتصوير النساء.

إنه يوم مشهود من أيام قصر بادن بادن، إذ بعد أن تعذر العثور على ذلك المصور الذي ينتقل بكمراته وأدواته إلى القصر، جيء بواحد من شتوتغارت. جاء به هانس. كان مسناً، أبيض الشعر، وكأنه أفلت بأعجوبة من القرن السابق، ولم يفطن أحد إليه وهو يتسلل خلسة إلى هذا القرن. كان قصيراً، وفي رجله اليسرى عرج خفيف يحاول إخفاءه من خلال الحذاء الخاص الذي صنعه لهذه القدم.

لم يبقَ أحد إلا وانشغل، بشكل ما، بهذا الرجل وأدواته. حتى السلطان الذي راقب جزءاً من المشهد من «المنظرة» وبدا له طريفاً، من خلال حركاته، وتجمّع الصغار والكبار حوله، وقد نصب آلاته في الحديقة، وكان مثل الساحر يدخل في غرفة الحرس لكي يهيّئ أفلامه، ثم يُدخل رأسه في الكيس الأسود، وبعد أن يطمئن، ولكي لا يضطر لإعادة الصورة، بدأ بالكبار، لكن التجارب الأولى كانت فاشلة تماماً، لأن الحركات والأصوات التي تصدر عن الآخرين، تجعل الجالس للتصوير يلتفت، يضحك، يغيّر في وضعيته، مما اضطر زيد للتدخل عدة مرات.

في مرحلة لاحقة نزل السلطان. كان في ثوب منزلي أبيض بسيط، ورغم أن هانس ملأ رأس المصور، خلال الرحلة من شتوتغارت إلى بادن بادن، بأهمية الشخصيات التي سيقوم بتصويرها، واستجاب المصور لانفعالات هانس، فذكر أنه قام بتصوير عدد كبير من الأشخاص المهمين، وأنه يحتفظ بهذه الصور ويفخر بها، فقد كان خلال الفترة الأولى لوصوله إلى القصر متهيباً، أقرب إلى الخوف، لكن حين بدأت أفواج الصغار

والكبار تتقاطر، لم يصدق عينيه، تساءل أي نوع من الأسر المالكة هذه؟ ولماذا يبدو أفرادها هكذا، وهل هم حقيقة مثلما ذكر هانس؟

وشيئاً فشيئاً بدأ يألف الوجوه والملابس. وحين بدأ بتصوير الصغار، ولكي يثبّت أنظارهم على فتحة الكاميرا، بدأ يشير إلى العدسة، إلى أن قال العنجري لأحد الصغار: «عصفور.. عصفور، ناظر هنا وراح تشوف العصفور» وبعد أن ثبت الصغير عينيه حيث أشار العنجري، اعتبرت هذه الطريقة وحدها الكفيلة بالتقاط صور مناسبة، وهكذا أخذ يلتفت المصور إلى العنجري، ويقول له: «آسور... آسور»، مع كل صورة جديدة!

عندما بدأ يلتقط صور النساء، طُلب من الحرس أن يبتعدوا، لكن أفراد الأسرة والمقربين كانوا وحدهم كافين لإفشال عشرات الصور. مجرد أن يضع المصور يده على كتف، أو يعدل خد سيدة من السيدات، حتى يبدأ الضحك والتعليقات، وبعض الأحيان الصفير. أما حين وضع يديه على ساقي روفة لكي يعدل جلستها على الكرسي، فقد بلغت الفوضى ذروتها. وفي تلك الأثناء، وصل السلطان، ورغم أن الكثيرين شديدو التحفظ، وحتى الخوف، بحضوره، إلا أن تعليقات روفة البذيئة وشتائمها «على هذا المقرود المفرود» لم تترك أحداً إلا وضحك وقهقهه، بمن فيهم السلطان، وكذلك الحرس أيضاً، فقد ظل المصور مشوقاً لرؤية الملك الكبير، وحين أشار هانس، ببعض التحفظ، للرجل الطويل ذي الثوب الأبيض، رد عليه المصور:

ـ يمكن أن تقول هذا الكلام لمصور مبتدئ، وليس لواحد مثلي يمتلئ بيته بصور كبار الشخصيات التاريخية!

إنه يوم حافل ظل الكثيرون، بل الجميع، يتذكرونه، حتى بعد المآسي التي وقعت في وقت لاحق.

وإذا كان التقاط الصور السبب لاجتماع هذا العدد من أفراد الأسرة، الكبار والصغار، إضافة إلى الخدم والمرافقين، فإن مجرد اجتماعهم، وقد اعتبره السلطان مناسبة لتصفية القلوب، فإن الابتسامات التي تبادلها الجميع

فيما بينهم، أو أمام الكاميرا أو حولها، لم تخف الأحقاد والضغائن. وما لم يقله السادة قاله الخدم، والشيء الذي لم يقُل أثناء اللقاء قيل بعده.

فعدلة التي كانت مضيفة عذبة، وهي تنتقل بين أجنحة القصر وردهاته، توزع ابتساماتها ولطفها على الكثيرين، لأنها في بيتها وواثقة تماماً، بعد أن قضت على آخر المنافسات، ولم تتردد في أن تظهر مكشوفة الوجه، كما لم يعترض السلطان، خاصة بعد أن قالت روفة بصوت عالٍ، ولم يبق أحد إلا وسمع:

ـ إذا الكفار شافونا فارعات دارعات فأهل دينا أولى!

وفي هذه الزيارة، التي لم تستغرق سوى يوم واحد، قارنت كل زوجة من زوجات السلطان وضعها بوضع عدلة، هنا وهناك، وفعلت ذلك كل خادمة، وبتدقيق أكبر، لكي تنقل لسيدتها، فيما بعد، ما لم تره السيدة، ولكي تسرّ إليها أيضاً بأحاديث كثيرة ومتنوعة سمعتها من الخادمات والماشطات.

تمنت كل واحدة من زوجات السلطان في أن تكون الأجمل والأرق والأقرب إلى القلب، وإذا كان لموران قانونها الخفي، حيث تعرف كل واحدة ليلتها ودورها ومتى يشتهي زيارتها السلطان، خلافاً للمواعيد، «فهذه البلاد القشرة مقطع، وما يقدر أحد يحصل منها لا خير ولا شر» ولذلك انهارت الهدنة، لتبدأ الحرب من جديد. صحيح أنها، هنا، من بعيد، على شكل غارات، وحين تحين الفرص، لكنها بدأت تؤثر. إذا ما يكاد السلطان يصل واحدة من الثلاث اللواتي وصلن، حتى تطبق عليه كالعنكبوت. كان السلطان، في أحيان كثيرة، يستجيب، يستسلم، لأنه يفضل أن يبقى حيث هو، ويفضل أكثر من ذلك أن ينسى ويغيب.

ولأن الظرف استثنائي إلى أقصى حد، ورغم التكتم، فقد كانت كل واحدة قادرة على استخراجه من مخبئه: الأخبار الجديدة، رسائل عاجلة، أسرار لا تقال إلا لطويل العمر.

عدلة التي كانت واثقة ما لبثت أن اهتزت ثقتها. أما مجلي الذي كان

يخطط لغزو موران، وبحث عن عدة مشاريع مع أبيه لاقتحام الحدود، فبدأ يجد أباه أقل استعداداً لأحاديث من هذا النوع. عزا الأمر، في البداية، إلى الأخبار الجديدة التي حملها مشعل والذين جاءوا، وعزاها في وقت لاحق إلى وعود مهيد ومزعل، لكن في وقت متأخر اكتشف أن نسوة أبيه الثلاث لا يقلّن عن القوى الأخرى الكثيرة المتربصة!

ولأن مجلي هو آمر الصرف، والثروة، أو القسم الأكبر منها، بين يديه، فقد بدأ يستخدمها كوسيلة ضغط. بدأ يعطي ويمنع، وإذا لم يمنع تماماً، لا يعطي ما هو المطلوب، أو في الوقت المناسب.

والنساء ومن معهن من الأقرباء والخدم، إذا كانوا قادرين على التحمل والصبر هناك، فإنهم هنا طيور مقصوصة الأجنحة، سمك أخرج من الماء، ولذلك فإن أصغر القضايا، بما في ذلك بنزين السيارة، أصبح يصل إلى السلطان، ويفترض فيه أن يعالجه، ومجلي الذي يلقي اللوم على المساعدين، وعلى عطلة البنوك الطويلة، ولغياب المترجمين، يعطي من جديد، «ومن مصروفه» كما يقول. لكن لا تكاد تنتهي مشكلة حتى تبدأ أخرى. وفي الغربة، ومهما كانت المشكلة صغيرة، فإنها تصبح هماً ثقيلاً، لا يمكن أن تُنسى أو أن تُؤجّل!

زيد الذي كان يستطيع أن يفعل أي شيء هناك، وتجرأ وجلد عدداً من نزلاء الفندق في باحة القصر، هنا، وبدا واثقاً حين أجبر الحكيم على الرحيل، وجد نفسه، فجأة، غير قادر على التصرف أو التقرير. قال لصالح الهلالي:

- صدري ضاق بهالديزة القشرة يا صالح: لا لقمة هنية ولا نومة رضية، وما هو بس كذا، روسنا مطلوبة، إذا ما هو من جماعتنا العربان، فمن أولاد الحرام الألمان، فما تقول لي شلون راح نخلص؟

وصالح الذي كان كالديك خلال الفترة السابقة، أصبح في المرحلة الجديدة ضائعاً خائفاً، فهو لا يريد أن يُسلّم إلى موران، مهما كانت الظروف، لأن فنر إذا نسي أحداً، أو عفا عن أحد، فلن يكون، أبداً،

صالح الهلالي واحداً ممن ينساهم أو يعفو عنهم، لأنه نقل لحماد المطوع ثلاث مرات ما سمعه من قطمة، خادمة موضي، وكانت تربطه بها علاقة قرابة، وقيل إنه كان يريد أن يتزوجها لولا اعترض الأمير فنر. الآن، وقد أصبح حماد اليد اليمنى لفنر، ويتذكر ما قاله عن محاولة اغتيال السلطان خزعل، وكان ضمن الذين اشتركوا في المحاولة ثلاثة من رجال فنر، فلا بد أن يدفع الثمن، ولا بد أن يتذكره أحد الأطراف الثلاثة: فنر، أو حماد، أو أولئك الذين قضوا سنوات في السجن بهذه التهمة.

قال صالح الهلالي بيأس:

- مهما قلنا عن الجماعة هنا، يا أبو راشد، يظلوا أرحم من جماعتنا.

- وإذا كظّوك وسفّروك يا صالح؟

- أرمي نفسي من الطيارة، وبيدي لا بيدك يا عمرو، لان الموتة عن طريقهم ما تنراد، يا أبو راشد.

- من رأيي يا صالح أن تقول لطويل العمر: نريد أهلنا أو يلقي لنا بنت حلال من هنا من هنا!

- ويا ولّ حنا الخوف قطّع ركبنا، وأنت تريد تعرّس؟

- ما ينسّي الخوف، يا صالح، إلا العرس..

وبعد قليل وهو يضحك:

- وما تشوف طويل العمر نسي كل شيء، وما تلقاه هالحين إلا يحوّس من واحدة للثانية؟

- يا ابن الحلال خلنا، هالحين، بهمنا، وعسى أن الله ينسّي الألمان، ويخلّصنا.

بعد يوم من هذا الحديث اتصل السكرتير الأول من سفارة السلطنة بصالح الهلالي، وأبلغه أن السفارة تلقت مذكرة تطلب تسليم صالح، للمثول أمام قاضي التحقيق، والإجابة عن التهم الموجهة إليه. كان السكرتير مؤدباً، لكنه دون عواطف، أو هذا ما قدره صالح. وحين بدأ

يناقشه فيما إذا كانت هناك حلول أخرى، وماذا يترتب على نتائج التحقيق قال السكرتير ببرودة وحياد:

- إذا ثبتت التهمة فالنتيجة أحد أمرين: السجن أو التسفير.

رد صالح بتوسل:

- غيّر، بدّل، يا ابن الحلال...

وكاد يتابع، إلا أن الرد جاء سريعاً:

- فكّر بالموضوع، وحنا نفكر، ونتصل بك باكر أو اللي عقبه، ونتدانش.

قال شايع السحيمي لصالح الذي جاءه متوسلاً طالباً مساعدته:

- بردان طاح على متلحف ردونه.

وضحك بسخرية وتابع

- لو كنا بموران، يا صالح، كان حميتك ببطن عيني، لكن هنا مثل ما تشوف: العين بصيرة واليد قصيرة، فخلنا نشوف طويل العمر ونسولفه، وناخذ رأيه، يجوز أنه يدز ورا ابن سحيمان ويكلّفه ويقول له.

في اليوم التالي كانت الفتوى عند العنجري، المترجم. قال لصالح:

- ... وحسب القوانين الألمانية، فإن قصر صاحب الجلالة السلطان، جزء من أرض السلطنة، ولا يمكن لأية قوة أن تقتحمه عنوة، أو تلقي القبض على أي فرد ما دام في رحاب القصر، لأن هذا مخالف للقوانين الدولية والأعراف الدستورية والحصانة الدبلوماسية...

وكاد يتابع، إلا أن شايع السحيمي رد بسخرية:

- يا وليدي على مهلك، فهذا الكلام إذا ينقال با لمدارس، أو ينكتب بالجرايد، أو إذا علموكم كذا، أو قريته بكتاب، فانساه، وخلنا ندور درب ثاني.

وفي نفس اليوم أيضاً اتصل السكرتير الأول. كان أكثر وداً من الأمس، وبعد ما سأل صالح إذا توصل إلى حل، قال له إن لديه صديقاً

يريد أن يكلمه. كان في الظرف الآخر مبارك الموينع!

من خلال كلمات متباعدة، لكن لا ينقصها الوضوح، أبلغه «قضيته رغم صعوبتها ودقتها، فالأخوان قادرون على المساعدة» وأبلغه أيضاً أن قريبه، بديوي، يمكن أن يكون بتصرفه ويأتيه إلى بادن بادن.

كان صالح الهلالي ممتناً وشاكراً إلى أقصى حد. قال كلمات كبيرة، ربما لا يعنيها، لكن أفلتت منه هكذا، تعبيراً عن الفرح. وتم الاتفاق على اتصال لاحق خلال بضعة أيام «وإلى أن يرتبوا الجماعة كل شيء ويضطبوها زين».

ومثل أمطار الصيف التي تأتي فجأة وعلى غير توقع، استيقظ القصر على مفاجأة كادت تهد أركانه:

فالسلطان الذي بقي ممسكاً بورقة أساسية، يمكن أن يستعملها في اللحظة الأخيرة، وفي الوقت الذي لا يجد حلاً آخر، اكتشف، فجأة، أنه فقد هذه الورقة.

فالطائرة الخاصة التي أقلته من موران، والتي كانت جاثمة في مطار شتوتغارت، لم تغادره، إلا في جولات قصيرة فوق المطار وحوله، وكان يعتبرها مثل فرسه أو ناقته، يمكن أن يمتطيها عندما تضيق به الأمور ويهبط في موران، أبلغ السلطان أن الطائرة لم تغادر المطار فقط وإنما وصلت إلى موران أيضاً. ولقد غادر على متنها، بالإضافة إلى ملاحيها، عدد من نزلاء الفندق، وكان ضمنهم مبارك الموينع.

قيل ان الخبر كتم عن السلطان ثلاثة أيام. ورفض كل من مشعل ومجلي أن يقوم أي منهما بإبلاغه، رغم توسلات زيد والهلالي. وقيل ان مجلي أبلغ أمه في اليوم الثالث لتقوم هي بنقل الخبر للسلطان، فكان رد عدلة:

ـ إذا الملك كله طار، وما حيكت ولا شكيت، هالحين تريد مني يا وليدي أقول له: والطيارة طارت بعد؟

وظهرت على وجهها علامات الحزن والاستغراب.

بعد أن تركها مجلي حائراً، قالت لروفة:

ـ روفة، يا مسخّمة، يقولون الطيارة طارت. . .

ـ الطيارة طارت؟

ـ ووصلت موران.

ـ وبعد؟

ـ ما أدري!

ـ وأنا ما أدري يا عمتي!

وبعد فترة صمت، سألت عدلة من جديد:

ـ نقول له أو ما نقول؟

ـ شنهو يا عمتي؟

ـ الطيارة طارت ووصلت موران.

ـ إذا طارت ووصلت سلامات فهذي بشارة يا عمتي.

ـ ونبشر طويل العمر؟

ـ وليش ما نبشره ونقول له: الطيارة طارت ووصلت موران بالخير والسلامة؟

ـ الله لا يسلّم عظمك يا بنت الحرام!

وبعد أن فهمت روفة، وبصعوبة، أن الطائرة التي كانت تنتظر السلطان، غادرت، قالت وكأنها تكلم نفسها:

ـ أثاري الطيارات مثل الأباعر تهجّ إذا عافت، فالله يسترنا بعد هجيجها.

وبعد قليل:

ـ من رأيي، يا عمتي، ما دام أنّا ما شفنا، ما نحكي ولا نقول!

وهكذا قررت عدلة أن لا تقوم بمهمة إبلاغ السلطان.

قيل إن زيد، وهو يبلغ السلطان، كان يرتجف. وأكد الساقي وواحد

من الحرس أن السلطان حين سمع بالخبر تهدل فكاه وكاد يقع. وبعد أن استوضح واستوعب ما حصل هاج مثل ثور، وأكد الاثنان أنه لطم زيد وصرخ في وجهه:

ـ أغرب عن وجهي يا غراب البين!

وأسرّت عدلة لمجلي في اليوم التالي أن السلطان أغلق على نفسه الجناح، ورفض الأكل، ورفض استقبال أحد، رغم جميع المحاولات التي بذلتها. وقد سمعت، خلال الليل المتأخر، بكاءه أقرب إلى النشيج، وأظهرت ندمها لأنها لم تقدّر أن الأمر مهم إلى هذه الدرجة، وإلا لحاولت إبلاغه بنفسها، ولوجدت الطريقة المناسبة.

استمر الأمر هكذا حتى عصر اليوم التالي. وخلال ذلك بُذلت محاولات عديدة، شارك فيها الكثيرون. تناوب على باب الجناح عدلة ومجلي ومشعل، وشارك شايع والهلالي، واشتركت روفة أيضاً، وبالتوسل والرجاء، وبحرق البخور ورش الماء، وبقراءة بعض الأدعية التي تطرد الجن والعفاريت، وافق السلطان أخيراً على فتح الباب.

قالت غزيلة، المتخصصة بتفريك رجلي السلطان، أنها أنكرته تماماً حين رأته. كان شاحباً إلى درجة المرض، وكان يستند إلى حافة الباب لكي لا يقع. وأكدت أنه ظل واقفاً هكذا وقتاً غير قصير، لا يتقدم ولا يفسح المجال لدخول الذين يقفون في وجه الباب، وظل صامتاً أيضاً، لا يجيب عن الأسئلة التي توجّه إليه.

وأيدت زينة، الماشطة، ما قالته غزيلة، وأضافت أن السلطان كان يبكي بصمت، وكان الذين يقفون حوله يبكون. فعلوا ذلك دون إرادة، ولم يستطيعوا منع أنفسهم من النشيج في بعض اللحظات، إلى أن مشوا جميعهم إلى القاعة الكبيرة في الطابق العلوي، وهناك غرقوا في الصمت. وأكدت أنهم ظلوا كذلك حتى بعد أن هبط الظلام، ولم يجد أحدهم لديه الرغبة أو الإرادة لإشعال النور.

شايع أسرّ لصالح الهلالي في اليوم التالي أن السلطان لم يفتح الباب نتيجة إلحاح الذين يدقون ويتوسلون، وليس بفعل الأدعية والبخور، وإنما «لأن ما عنده من بول إبليس خلص، ففتحه ولقانا بوجهه. ويجوز، إذا الله ما كذبني، أن الجوع قتله، وراد شي يتبلغ به».

أما كيف سارت الأمور بعد ذلك، فإنها تشبه إلى حد كبير ما حصل بعد أن بلغه نبأ العزل. اعتكف في جناحه الخاص، لا يراه ولا يزوره إلا خاصته، لم يغادر الجناح إلى الحديقة أو المنظرة إلا بعد أسابيع. وكان أغلب الوقت صامتاً مطرقاً.

ومثلما تصرفت السفارة في المرة السابقة، ومثلما تصرف السفير، حصل هذه المرة أيضاً. فالسفارة التي أبدت استغرابها لما حصل، وأسفها، عندما اتصل زيد بالسكرتير الأول، نظراً لوجود السفير في موران، لأنه استدعي للتشاور، ولا يعرف وقت عودته، فإنها التزمت الصمت والتجاهل. أما حين وصلت صحف موران، وفي أحد أعدادها مقابلة طويلة مع قائد الطائرة ومساعديه، فقد انفعل مجلي إلى أقصى حد، فشتم وهدد، وأحس «أن المؤامرة مستمرة»، كما قال لمشعل ولزيد الهلالي، واتفقوا ألا يطلع السلطان على هذه المقابلة، وألا يرد ذكر لها أبداً!

وغرق قصر بادن بادن، وغرقت الفيلات الثلاث، في الصمت.

مـن جملة الأمور التي أعقبت الزيارتين اللتين قام بهماالأميران مهيد ومزعل، وكتعبير عن المودة تجاه السلطان خزعل، وربما نتيجة الأحاديث العرضية التي تطرق إليها الأخوة، فقد وصلت إلى بادن بادن كوكبة من الخيول العربية الأصيلة: اثنان هدية من فنر، واثنان هدية من مهيد ومزعل، وثلاثة من إسطبل قصر الخالدية، وقد ذكرهم السلطان خزعل بالاسم أثناء الزيارة، وأشاد بمزايا هذه الخيول وشوقه إليها.

وصلت الخيول بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من زيارة مهيد، لكن الإجراءات الصحية والحجر أخرت وصولها إلى القصر، وربما كان هذا التأخير عاملاً إيجابياً، إذ أتاح الفرصة الكافية لإعداد مكان لاستقبالها، والاتفاق مع أحد السواس المشهورين في جنوب ألمانيا للإشراف عليها، خاصة في الفترة الأولى، ريثما تتكيف مع الجو الجديد، وإلى حين تسمية واحد أو اثنين من الحرس للعناية بها.

لم يكن تأخر وصولها إذن إلى القصر ليسبب إزعاجاً للسلطان، الأمر الذي لا يمكن التسامح فيه أو قبوله، لولا الحالة النفسية المسيطرة، إذ بالإضافة إلى الآمال الكبيرة التي أعقبت الزيارة، والأخبار التي جاءت مع القادمين الجدد، فإن السلطان كان بشوق إلى زوجاته وأبنائه، وقد شغله هؤلاء خلال الفترة التي تم فيها إعداد الإسطبل. كما لمس أيضاً مقدار المودة والندم معاً في سلوك فنر. صحيح أنه لن يغفر له، ولن يتهاون في محاسبة كل من له علاقة، لكن سيأتي يوم، سيأتي بالتأكيد، يتصالح الأخوة، وتعود المياه إلى مجاريها، كما يقولون، بعد أن يتم التراجع

والاعتذار، وبعد أن ينزل العقاب بالمستشارين ورفاق السوء الذين أغروا فنر بأن يعمل ما عمل.

كان يوم وصول الخيول إلى القصر مشهوداً وجليلاً: فالسلطان ذاته كان في استقبالها، وكاد بعض الحرس يطلق النار حين امتطى جلالته غصن البان، وهو واحد من الخيول التي يعتز بها السلطان، وكثيراً ما جرَّ الحديث نحو الخيل، لكي يتاح له، وللمقربين منه، التحدث عن غصن البان بشكل خاص. كاد الحرس يطلقون النار، لولا الصرخة الزاجرة من زيد، ثم التنبيهات المشددة من صالح الهلالي. قال لهم صالح بحزن وحزم معاً:

ـ إحرصوا، فالطلايب الموجودة بيننا وبين الألمان تكفي وزود، ومانريد دوشه ووجع راس.

أما حين تفقد جلالته كل واحد من الخيول، وقد فعل ذلك بعناية لافتة للنظر، فلم يبق أحد إلا وتأكد من معرفته أولاً، ومن تعلقه بها، بعد ذلك.

ومع أن الخيول الأصيلة لا تخفي نفسها ولا تخفى، فقد تأكد السلطان من هيئاتها، وجمالها، وحتى من أعمارها، إذ فتح أفواهها، وتطلع بإمعان، إلا أنه شعر بأسى لعدم توافر معلومات بالمقدار الكافي عنها. فالرجال الذين جلبوها كانوا مجرد حراس عليها أكثر مما كانوا سواساً، أو ملمين بتواريخ الآباء والأمهات، كم عاشت، وكم خلفت، ومن يملك مثيلاتها. وشعر بأسى أكبر أنه ليس في موران. لو كان هناك لوجد الكثيرين الذين يمكن أن يقدموا معلومات وافرة ونافعة، ولا تخلو، بالتأكيد، من الطرافة أيضاً، أما هنا، فإن الحديث لن يمتد ولن يطول، وسوف يعود الرجال، بسرعة، إلى همومهم، وإلى ما هم فيه من الرتابة والضجر. حتى السلطان نفسه، ورغم غبطته بهدية الأخوة، فإنه لم يشعر بالتألق كما كان يحصل هناك، وإزاء هدايا أقل أهمية من هذه الهدية.

السلطان، بعد أن روى، ربما للمرة المائة، قصصاً لها علاقة بغصن البان، ورغم أن الرجال حوله استمعوا باهتمام، وأبدوا دهشتهم لذكاء

الحصان وقدرته على التحمل وسرعته، إلا أن الأسئلة التي وُجّهت، والتعليقات التي أعقبت كلامه، كانت باهتة، عادية، بحيث قتلت رغبته في مواصلة الحديث، في الوقت الذي كان مثل هذا الحديث، لو جرى في موران، فإنه يبدأ لكن لا أحد أبداً يعرف كيف سينتهي، أو كم من المفاجآت سيحمل في ثناياه. قال السلطان لنفسه «أهل الخيل ما هم مثل غيرهم؛ من يوم ما ينفطمون وهم مصبحين مسيين معها، وما ينسون ذكرها إلى أن يموتوا».

ورغم أن الخيل كانت تحمل أسماءها وحججها، فقد راودت السلطان الرغبة في أن يطلق عليها أسماء جديدة، خاصة الخيول التي جاءت من الأخوة، لأن في ذاكرته رنيناً لأسماء بذاتها، وفي قلبه مودة لخيول أحبها أو امتلكها في أيام بعيدة، ويريد، هنا، أن يستعيدها، أو أن يستعيد، معها، أياماً ماضية. ومما حرّض السلطان على أن يفكر مثل هذا التفكير أن المسؤول الألماني عن الأسطبل وجد صعوبة في نطق عدد من الأسماء، أو تحولت على لسانه إلى شيء مضحك. لكن هذه الفكرة لم تستمر طويلاً، باعتبار أن الحرس، والذين رافقوا الخيول، لم يتصوروا أبداً إمكانية لمثل هذا العبث، رغم أنهم ضحكوا وتندروا، فيما بينهم، على طريقة الألماني في المناداة على الخيول أو ترديد أسمائها، وبذلوا، بالمقابل جهداً مضاعفاً معه من أجل نطقٍ أسلم، وهذا ما تمّ الوصول إليه بعد عدة أسابيع!

ليس هذا كل شيء، فإن المضمار الذي تجري فيه الخيول من الضيق إلى درجة لا يمكن أن تحافظ على لياقتها ونشاطها إن بقيت فيه. قال ذلك المشرف، وذكره زيد لابن سحيمان، الأمر الذي دعا للبحث عن قصر آخر للسلطان في شمال ألمانيا، مع مساحة تابعة له تكفي لإقامة مضمار أطول وميدان أوسع.

تشاءم شايع السحيمي لوصول الخيل، رغم الأحاديث التي طالما رددها حين كان في موران. لقد بات متأكداً أن الإقامة ستطول هنا، وربما تصبح نهائية. لم يشأ أن يقول ذلك لأحد، أو أن يعبر عن رأيه أمام

الآخرين. أما حين سأله السلطان ماذا يقول بخيله والخيول الأخرى التي وصلت، فقد رد بتورية:

ـ الخيل الأصيلة ما ينراد لها شهادة يا طويل العمر، مثل البنت المزيونة، تبرق وتضوي، وما تخفى، وإذا حكت وقالت، تقول: هذا أنا!

ضحك السلطان، بانت أسنانه الكبيرة، كانت تشبه أسنان غصن البان تماماً. تابع السحيمي:

ـ بس لها عيب واحد يا طويل العمر!

ـ شنهو عيبها يا السحيمي؟

ـ عيبها، طال عمرك، إنها ما تحمل غير راعيها، وما تحمل برد هذي الديرة.

هزَّ السلطان رأسه موافقة وحزناً، وجعل الحديث، بعد ذلك، يأخذ نسقاً آخر.

ربما رجّح الاحتمال الذي أشار إليه السحيمي، أن الخيول، رغم العناية والاهتمام، بدت مستوحشة، قليلة الأكل، ثم أصبحت زيارات الطبيب لها متقاربة، والأدوية التي تعطى إليها تزيد يوماً بعد آخر.

قال زيد للسلطان ذات يوم:

ـ الله العليم أن هوا هذا البلاد، يا طويل العمر، ما والم خيلنا. أشوفها مدنقرة وعايفه الأول والتالي؛ ويلزم تعرف، طال عمرك: الإبر فتحت جنابها.

ـ ما تقول لي والم من هوا هذي الديرة يا زيد؟

هكذا تساءل بمرارة السلطان، وبعد أن زفر:

ـ خلنا نلحق العيار لباب الدار. قال شهر شهرين ونتفرج، نرجع لأهلنا وديرتنا، فراح الكثير ظل القليل، خلنا نصبر..

وتغيرت لهجته، أصبحت آمرة:

ـ وقبل أي آدمي يركب ويمشي، يا زيد، تمشي الخيل. وهناك، بديرتها، وبين الناس اللي يفهمون بها ويقدرونها، تلقانا وعليها فرسانها.

وابتسم ابتسامة كبيرة وهو يضيف:

ـ ولولا العيب، يا زيد، غصن البان ما يركب إلا طيارتي، وما يأكل إلا من راحة يدي. وإذا هنا انظام وما لقي الدلال اللي يستاهله، عسى أن الله يمكّنا ونعوض القصور هناك.

أما بعد الأحداث التي وقعت، واعتكاف السلطان، وبعد أن سافر المشرف الألماني لأستراليا، إذ كان يخطط لإنشاء مزرعة كبيرة للخيول، ويطمح إلى تهجين يعطي خصائص جديدة، فقد أصبح شايع السحيمي المشرف الحقيقي على الخيل. صحيح أن اثنين من الحرس فُرزا لهذه المهمة، ويقع عليهما العبء اليومي، إلا أن معرفتهما بمتطلبات الخيل، وأمراضها، كانت أقل من السحيمي.

وانقضى الصيف كله وانقضى الخريف، وبدأ الشتاء.

الشمس بعد أن كانت تملأ جنبات القصر، وتلاعب الأشجار والخيول، في محاولة للنفاذ إلى أعماقها، ولا تمل أبداً من هذه اللعبة، وتتفنن فيها، إلا أنها بدأت تتأخر، ثم أخذت تختفي، فلما دخل الشتاء، أصبحت تظهر وتتلاشى قبل أن يستعيد الجسد تكيفه مع يوم جديد، وقبل أن تزول آثار الليلة السابقة.

رجال السلطان الذين كانوا يشغلون أنفسهم بالتجوال، ويقضون ساعات كل يوم في دفء النهار، وجدوا أنفسهم، فجأة، أسرى الغرف الباردة المعتمة، وأصبح الوقت طويلاً مثل حبل لا نهاية له، لا يعرفون متى يبدأ النهار ومتى يأتي الليل، لكي يتكيفوا مع الأول ويحتالوا على الثاني.

وإذا كانت خضرة الأشجار انهارت دفعة واحدة، وغادرت تماماً، فقد تكشّف المحيط عن خواء أقرب إلى الفوضى. تأمل الرجال، من وراء نوافذ مغلقة، هذا الذي حدث فجأة، فتبدت لهم الأشجار المنتصبة بلونها الإسمنتي القاسي، وكأنها لم تكن خضراء في يوم من الأيام؛ وأشبه ما

تكون بالأنابيب المقشورة، والتي يتراوح لونها بين الأزرق المقتول والرمادي الكامل، مع مقدار كبير من البني المغبّر أو المتسخ. ومع أنهم حزنوا، فقد قالوا لأنفسهم: «تبقى أشجاراً، وتبقى أشجارهم». وتذكروا الأشجار في الأماكن الأخرى، وفي موران بالذات. صحيح انها لم تكن بهذه الخضرة، ولا بكثافة الأوراق، لكنها لا تستسلم هكذا. أما حين تذكروا النور هناك فقد أحسوا أنهم تحولوا إلى شموع سوداء، أو إلى أعمدة من رماد.

وحين هزوا أجسادهم وتوجهوا إلى الخارج صفعتهم الريح الباردة، وحملت إليهم من الزوايا وحافات النوافذ الأوراق الميتة؛ كانت الأوراق تتطاير مثل عصافير خائفة. وفجأة تذكر عدد منهم الخيل فاتجهوا نحوها.

كانت الخيول، في هذا الشتاء، ضعيفة وحزينة، رغم العناية الفائقة التي خصها بها شايع السحيمي واللذان يساعدانه. فالمدافئ التي وضعت في الزوايا بدل أن تشيع الدفء ولّدت رائحة خانقة هي مزيج من الروث المتخمر والرطوبة الثقيلة والهواء الراكد، الأمر الذي جعل الخيل أقرب إلى الدوخة والخدر، فحركتها بطيئة، غير متوازنة، وعيونها كامدة مليئة بالحزن والعذاب، أما استجابتها للأكل والصفير، أو للمداعبة، فكانت في حدها الأدنى، أو أقل من ذلك.

قال شايع لزيد الهريدي.

ـ إذا جتّ المصايب يا زيد تجي مثل مزن الربيع...

وزيد الذي هزّ رأسه موافقاً لم يتكلم ولم يعلّق، إذ يعرف أن للحديث تتمة، تابع السحيمي:

ـ وهالحين ما عدنا نحكي على مصايب البشر، لأن البشر يستاهلون، واللي ما يستاهل يدبر أموره، بس هذه الأمانة التي توكلنا عليها شلون ندبرها؟

وأشار بيده كلها نحو مكان الخيول. رد زيد بحزن:

ـ يا أبو عاهد نسوي اللي الله يقدّرنا عليه.

ولم يتأخر الرجلان، ولم يتأخر الرجال الآخرون، في تنظيف الإسطبل وتهويته. ومن عباءات الوبر وأغطية الأسرة صنعوا للخيول أغطية ودثروها بها، واتفقوا إلا توقد المدافئ قبل منتصف الليل، في الوقت الذي تستلم مجموعة الحراسة الليلية الأخيرة نوبتها.

أعطى هذا الحل بعض النتائج المرضية، لكن عندما دخل الشتاء الكبير، وأصبح الكون كله مثل عمودٍ من جليد، وتداخل الليل بالنهار، وسيطرت العتمة على كل شيء، فقد تحول خوف شايع السحيمي إلى رعب حقيقي. فهو لا يستطيع أن يفارق الخيل، ولا يستطيع، في نفس الوقت، أن يفعل شيئاً من أجلها. كان يقضي معظم لياليه في الإسطبل، كان يسمّك الأغطية ليلة بعد ليلة، وكان يوقد المدافئ لكسر حدة البرد، ثم يطفئها لئلا تفسد الهواء. وكان لا يتردد في أن يستعين بأنفاسه وبيديه الاثنتين من أجل أن يولّد الدفء في أجسادها، ويحرك الدم في عروقها. كان يفعل ذلك دون شعور بالتعب أو الملل. لكن حزن الخيل يزداد يوماً بعد آخر، ومقاومتها تضعف يوماً بعد آخر.

قال لزيد في أحد الأيام التي ملأ فيها الثلج الكون كله:

ـ ما بقي، يا زيد، قدامنا إلا واحد من اثنين: إمّا نوجهها نحو القبلة، وكل واحد منها طلقة بقصته، وينتهي كل شيء في أمان الله، أو نسفّرها، نردها لديرتها.

وانفعل فجأة، تملكه غضب حزين:

ـ عيونها، يا زيد، وأنت تناظرها، كأنها عيون الغزلان ساعة الذبح، ونظرتها نظرة المظلوم، ونفَسها نفسَ الملهوف اللي يترجى. أما دقات قلوبها فمثل دقات قلب الأم. وإذا التفتت برقابها، يا زيد، فكأنها التفاتة العاشق، تقول كل اللي بقلبها، وبعد هذا شلون تريدني اصبر واحمل؟

وتغيرت لهجته، فارقها الغضب، أصبحت حزناً كلها:

ـ انذبحت يا زيد، ما أقدر أشوفها وأحمل؛ وهي، هالمسكينة، ما لها لا صوج ولا ذنب، شيّلوها من آخر تلفات الدنيا لأنجس مكان، لهذا

الزمهرير، وقالوا لها هنا تموتين. فما تقول لي شنهو ذنبها؟ وليش يسوون بها كذا؟

ـ الذنب ذنب اللي دزها، يا أبو عاهد.

ـ لا بالله، يا زيد، الذنب ذنب اللي رادها وطلبها!

ـ والحل يا شيخنا؟

ـ مثل ما قلت لك من قبل: نذبحها أو نسفّرها!

ـ خلينا نشوف طويل العمر، ونأخذه شوره.

ـ شفه أنت، لأني ما أحمل كلمة زايدة أو كلمة ناقصة، وأخاف أغلط عليه أو يغلط عليّ.

ـ وكل الله يا أبو عاهد!

جرى هذا الحديث بعد أيام قليلة من الحركة المفاجئة التي دبت في القصر، فقد جاء هانس أورلخت خلال يوم واحد مرتين، وكان معه في المرة الثانية أحد موظفي السفارة، إضافة إلى المحامي ومترجم جديد. وقيل إن الجميع التقوا بالسلطان أثناء الزيارة الثانية.

ورغم أن الحركة بدأت في القصر قبل هذه الزيارة، أو على التحديد حين غادر السلطان جناحه، إلا أنه لم يلتق سوى زيد، ولمرتين فقط، ولم يدم كل لقاء أكثر من عشرين دقيقة. ومع ذلك شوهد السلطان مرتين في «المنظرة»، وقد ميزه الحرس حين اقترب كثيراً من النافذة، فملأها كلها، وكانت عدلة معه في المرة الثانية.

ترافق ذلك مع همس سري وتزايد يوماً بعد آخر أن أموراً كثيرة متوقعة، لكن لم يستطع أحد أن يقرر هذه الأمور، أو عما ستسفر، كما لم يشر إليها زيد حين سئل.

صالح الهلالي الذي بدأ بياته الشتوي قبل أن يدخل الشتاء الكبير، إذ لم يعد يُشاهد إلا قليلاً ونادراً، وجاء اعتكاف السلطان ليجعله يغلق أبواب القصر، فلا يفتحها إلا لإحضار التموين، والحاجات الضرورية، وصدف

عدة مرات أن امتنع الحرس عن فتح البوابة، بأمر من صالح، «لأنا ما نفتح لأحد بدون موعد»، وكأنه بهذه الطريقة يوفر لنفسه أقصى درجات الحيطة والأمن. . .

الآن، وقد قطع السلطان اعتكافه، بدأت الزيارات، ودبت في القصر حركة غير عادية، أصيب صالح الهلالي بحالة من الفزع أقرب إلى التطير، وقد سيطرت عليه هذه الحالة قبل أن يسأل وقبل أن يعرف. أكثر من ذلك لم تكن لديه الرغبة لأن يسأل زيداً، إذ كان يخشى من الإجابة، وكان يفترض أن أي شيء يحصل سيكون على حسابه.

قال الذين كانوا بإمرته، منذ سنوات طويلة، إنهم لم يروه هكذا أبداً. فالأرض التي كانت تهتز لأوامره، والعقوبات التي توقع لأبسط الأخطاء، وذلك الصوت الجهوري، وكان لا يتفوه إلا بالأوامر والشتائم، أصبح خلال أقل من شهرين إنساناً آخر: نقص وزنه إلى النصف، غارت عيناه وبدت أكثر صفرة، أما يداه فإنهما ترتجفان مثل سعفة حين يرفع بواحدة فنجان القهوة، ويحاول بالثانية أن يسندها ويسنده!

خلال المرات القليلة التي تحدث، لم يُسأل عن ذلك أبداً، قال إن الأكل لم يواته، والطقس آذاه، أما المياه «فتنزل بقلبي، يا جماعة الخير، مثل الرصاص». وأشار في مرحلة أخرى إلى أن رجفة اليد حالة ورثها عن أبيه «وإن الطب عجز، وما تركنا شيء إلا وسويناه، لكن ما فاد».

فسر اثنان من الحرس القدامى للسلطان «أن صالح الهلالي برقبته بين العشرين والثلاثين، ذبحهم بمسدسه البراون، فإذا فلت من أهل واحد ما يفلت من غيرهم خاصة بعد ما طاح السلطان»، وهذا ما يفسّر خوفه من أن يُسلَّم إلى موران، وخوفه أيضاً من كل زائر غريب. صحيح أنه لم يشر إلى ذلك أبداً، كما لا يحب الأحاديث التي تتناول موضوعات لها صلة، لكن هذا ما يُرجِّح.

عندما أبلغه زيد، بعد الزيارة التي قامت بها هذه المجموعة للسلطان، أنه يجب التحقيق معه، من أجل إنهاء القضية، كما قال المحامي، وكما

أكد مندوب السفارة، فقد أصيب بحالة من الانهيار. لدقائق ظل يرتجف، ولم ينطق بكلمة واحدة، ثم سقط على الأرض. كان في وضع أقرب إلى الذهول، لا يسمع ما يقال له، ولا يجيب عن أي سؤال. وبالرغم من كل الكلمات المطمئنة التي قالها زيد والابتسامات، والتأكيد المتزايد «إن المسألة شكلية، ولا تتعدى سؤالاً أو اثنين وترجع بالسلامة والقضية خالصة»، إلا أن وضع صالح يتراجع ويسوء بين لحظة وأخرى، مما اضطر زيداً واثنين من الحرس إلى حمله ووضعه في سريره، وقد استولت الحيرة والمفاجأة على الجميع.

الأيام الثلاثة اللاحقة شديدة الغموض. ففي الوقت الذي يؤكد الكثيرون أن صالح لم يغادر غرفته، أو بالأحرى سريره، ورفض الأكل أو تناول أي نوع من الأدوية، يؤكد عناصر نوبة الحراسة الصباحية إنهم شاهدوه يحمل بندقية ومسدساً وخنجراً، ويتوجه نحو إسطبل الخيل. لقد ارتابوا كثيراً بوضعه، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، حتى إنهم لم يبلغوا أحداً. ومما جعلهم يصمتون هكذا إن صالح عاد إلى غرفته بسرعة. وقد فسروا الأمر، فيما بعد، إنه اضطر إلى ذلك نتيجة وجود شايع السحيمي، إذ ربما كانت لديه نوايا عدوانية وخطرة تجاه الخيل، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لما رأى شايع.

ويؤكد غير هؤلاء أن صالحاً، على غير عادته، استيقظ مبكراً، ولبس أحسن ثيابه، وقضى فترة الصباح كلها في قيادة الحرس، وحين استغرب الذين دخلوا المحرس ورأوه، فقد أجاب في إحدى المرات «ورانا أشغال واجد هذا اليوم» ولم يعرف ما إذا كان يستعد لمقابلة السلطان، أو للمثول أمام قاضي التحقيق، وقيل أيضاً إنه كان ينوي الذهاب إلى شتوتغارت مع الذين سيذهبون.

أما لماذا أجّل موعد قاضي التحقيق من يوم الجمعة إلى يوم الاثنين اللاحق، فإن الأمر يحتمل تأويلات كثيرة. قال صالح، أو ربما زيد «مثل ما هو الأحد للنصارى، فنحنا مسلمين، عطلتنا الجمعة، وفيها ما نسوي

شيء أبداً». وجاء من أكد أن القاضي المنوط به الأمر تعرّض لحادث سيارة، اضطر معه لتأجيل الموعد. وقيل إن انشغالات القصر خلال تلك الفترة هي السبب في التماس تأجيل الموعد لبضعة أيام لاحقة.

وتوجُّه الكثيرين إلى القصر صباح يوم السبت، وما رافق ذلك من هرج ووصايا، إضافة إلى الحركة السريعة، لم تسمح بالجزم ما إذا كان صالح الهلالي واحداً من الذين زاروا القصر والتقوا السلطان، وإن كان واحد من نوبة الحراسة ذاتها قال إن صالحاً ظل يحاول الوصول إلى الحديقة الخلفية للقصر، وربما كان يضمر شراً بالسلطان، لكن نتيجة الحراسة المشددة هناك، أو ربما نتيجة التردد، فقد عاد أدراجه، ولم يغادر غرفته، وقيل سريره، طوال ذلك اليوم، رغم الهرج والصراخ، ورغم السيارات التي وصلت.

ما كان أحد ليهتم بهذه التفاصيل، أو ليقف عندها، خاصة وأنه اليوم الذي كان مقرراً لسفر عدد كبير من ساكني القصر، لولا ما حصل بعدها.

فالسلطان الذي احتجب فترة طويلة، اتخذ فجأة مجموعة من القرارات، وطلب تنفيذها دون تأخير.

أمر بتسفير زوجاته الأربع، ومعظم الذين جاءوا معهن. وطلب من مشعل أن يسافر، كما سافر عدد من المرافقين.

أما لماذا فعل ذلك، فإن جميع التفسيرات مجرد تقدير وتوقع. فالمكالمات التي جرت مع موران، جرت من جناح السلطان، ولم تجر، كما هي العادة، من الصالة الكبيرة، في الطابق العلوي، أو من غرفة التشريفات في الطابق الأول. واقتصرت هذه المكالمات على السلطان أول الأمر، ثم شاركه مشعل ومجلي، وقيل مجلي وحده، وحتى عدلة التي أرادت أن تكلّم عدداً من أولادها أو أقاربها، لم تفعل في جو الاضطراب والارتباك والسرعة. أما ما جرى وما دار خلال هذه المكالمات، ومن كان الطرف، أو الأطراف الأخرى، فإن أحداً لم يدرِ. حتى الذين كانوا

قريبين، وسمعوا، أو تنصتوا، فقد حملوا معهم معلوماتهم وأسرارهم وارتحلوا بها.

وقبل ذلك لماذا أنهى السلطان اعتكافه وما حقيقة ما دار بينه وبين السفير، ثم ما دار بينه وبين عنان بسيوني الذي وصل إلى القصر في بادن بادن برفقة السكرتير الأول للسفارة، وقد قضى هذا الأخير فترة المحادثات كلها في المحرس، ولم يدخل مع عنان، ويبدو أن الأمر متفق عليه سلفاً؟

إن أية إجابة عن مثل هذه الأسئلة تفتقد البرهان، أو حتى مجرد القرينة، لأن أياً من الذين شاركوا لم يتكلم.

وعكس مرات سابقة، إذ كانت تتسرب الأخبار، أو تشي بها التصرفات، وتفضحها، بعض الأحيان، العيون أو زلات اللسان، أو تغير السلوك، ففي هذه المرة، ونتيجة اتفاق جازم، أن لا يتسرب خبر، فإن كل شيء ظل طي الكتمان، وزاده غموضاً المبالغة في السرية، والحرص أيضاً على الصمت والغياب.

حتى زيد الهريدي، الذي راقب الحركة بعناية، فقد أجاب شايع حين سأله أن الأمور تبدو له غير مفهومة، ولا يستطيع أن يفسر ما يجري.

وحين ألحَّ عليه شايع السحيمي، وكان صوته حزيناً، رد بانفعال:

ـ تاهت عليّ يا أبو عاهد، وما أدري شي ابد. . .

وبعد قليل ولم يغادر الأسى صوته:

ـ من يوم ما وصل أبو العظم الأزرق، مجلي، وبعده عدلة، الله لا يعدلها، ما هو بس ابعدوني عن كل شي، صرت بنظرهم المسؤول عن كل المصايب اللي وقعت. يناظروني، يا أبو عاهد، ويدردمون، يتكلمون بين بعضهم ويريدوني أسمع. والسلطان، الله يسلمه، مثل العجي، كلمة تأخذه والثانية ترده. يصدق كل شي ينقال له، فلما شفته كذا، قلت لروحي: خلك بعيد يا ولد أحسن لك وآمن. . .

وتغيرت النبرة تماماً:

ـ ومن يومها، يا أبو عاهد، ما عرفت، ولا سألت.

ـ وهذا الخبل، المسكين، صالح، شلون قضي؟

ـ والله علمي علمك، يا أبو عاهد، وسوالف الناس كثيرة، وكل واحد يسولف شي يختلف عن الثاني...

تنحنح وتلفت، ثم تابع:

ـ يقولون أن جماعة السفارة، وهو بالمطار يودع الجماعة، رادوا يحمّلونه بالطيارة اللي رايحة، شرّبوه شي وداخ، لكن ما قدروا عليه، انكشف أمرهم، فخافوا. ويقولون إن الألمان رادوا يقبضون عليه، لكنه قاوم وصاح، فقالوا مريض ويلزم يتعالج. ويقولون إنه هو نازل من الطيارة، بعد ما تأكد من راحة المسافرين، داخ وطاح. رشوه بالماء صاحوا طبيب المطار، قال الطبيب، يلزمه أجزخانة، ورأساً حمّلوه وراحوا به...

هز رأسه، تنفس بعمق، وبعد قليل:

ـ وسرّ لي عجرم، حارسه وقريبه، إن صالح نبه على جماعته، قال لهم وحرّصهم: إذا شفتم شي غير طبيعبي تصرفوا، لأني بخطر، وكل شي بهذي الدنيا يصير. فلما طاح، وهو نازل من الطيارة، وجت سيارة الإسعاف وجا الطبيب، رفض إبراهيم الشرابي، ومسفر دخل الله إن أحد يتقرب منه، لكن وهم يشوفونه يلبط، يريد يموت، وافقوا إنهم يشيلونه، بس شرطهم أن يرافقوه.

أكد إبراهيم الشرابي أن الوفاة حصلت أثناء نقله، وقبل وصوله إلى المستشفى، «لإني، بعيني، شفت روحه تطلع، طلعت مثل غيمة زرقة وملت السيارة كلها، ولما جسيته لقيته بارد، وما به حركة». أما مسفر دخل الله، فقد أجاب، بعد أيام، حين سأله السلطان، «إن الرجال، وهم يشيلونه، صاحي ويسولف، وقال لنا: لا تخافوا، بس يلزم تحرصوا وتفتحوا عيونكم زين، وبلشوا به: أبر ودوايات، ووين الجنب اللي يوجعك، وتحمل. وبعد أن وصل المستشفى منعونا من الدخول إلى غرفته، وهناك ذبحوه».

ومما عزز رواية مسفر دخل الله التحقيق الذي طلبت السفارة إجراءه، بناء لطلب السلطان، الأمر الذي أدى إلى تشريح الجثة، وبالتالي تأخير تسلمها، خاصة بعد أن تقرر دفنها في ألمانيا وفق الإجراءات الإسلامية.

وإمام مسجد ميونيخ، الذي استدعي إلى القصر، للاتفاق معه على تسلم الجثة ودفنها حسب المراسيم الإسلامية، طلب مبلغاً كبيراً، وكانت حجته: مرور فترة طويلة على الوفاة، ولأنه مضطر إلى الاتصال بمسلمي المدينة، واستدعائهم في غير يوم الجمعة، من أجل المشاركة في الصلاة على المتوفى ودفنه. كان ثملاً وهو يتحدث، وزيد الذي وافق على جميع الشروط، أعطاه مبلغاً إضافياً، بناء لطلب السلطان من أجل إقامة عشاء على روح صالح الهلالي.

العلقاوي الذي كان يترجم ويفسر بين الإمام وزيد، قام بمراجعة إدارة المستشفى للحصول على شهادة وفاة، وبعد عدة أسابيع، بناء لطلب من موران، فتبين له أن جثة صالح الهلالي بيعت لمستشفى كلية الطب. وقد باعها إمام مسجد ميونيخ، اعتماداً على تفويض من عائلة المتوفى!

لما عرف شايع السحيمي، ارتجف، خاف، قال كأنه يخاطب نفسه:

- يلزمنا نلحق أهلنا وديرتنا يا جماعة الخير، لأن الغريب يظل غريب دنيا وآخرا، وخاف باكر ما نلقى قبر يحوشنا ويصير بنا مثل ما صار بهذا المسكين!

خلال أكثر من شهر لم تهدأ الحركة ولم تتوقف بين قصر بادن بادن وموران، أو بين القصر والسفارة في بون، إذ بالإضافة إلى التلفونات خلال النهار، وبعض الأحيان في ساعات متأخرة من الليل، وقيل إن السلطان تحادث مع عدد من أخوته، بينهم فنر، وقد جاءت المبادرة من فنر، فإن الزوار الذين وصلوا خلال تلك الفترة أكثر من أية فترة سابقة. أما حين وصلت ياسمين، عروساً جديدة للسلطان، ومعها أمها وعدد من المرافقين، فقد فُهم، بشكل أفضل، السبب وراء سفر الزوجات السابقات! وحين تبين الشبه، على الأقل من حيث العمر، وبياض البشرة، بين العروس الجديدة وسلمى، فقد تأكد الجميع أن عدلة، التي رتبت هذا الزواج، تريد أن تثبت للسلطان قدرتها على الاختيار!

الهدايا التي رافقت العروس أكّدت، مرة أخرى، المكانة التي يحتلها السلطان لدى الإخوة، خاصة فنر. فبالإضافة إلى هداياه الثمينة والمتنوعة للعروس، فقد أرسل مسدسه المذهّب، والذي تلقاه من أبيه في احتفالات البلوغ، هدية لأخيه، مع كلمة قصيرة: «أغلى هدية من أعز إنسان لأكبر أخ، فنر».

ورغم أن الاحتفال كان محدوداً، إذ اقتصر على أفراد الحاشية والمرافقين، إضافة إلى السفير، فقد قال زيد، نيابة عن السلطان، وربما بإيعاز منه:

ـ اليوم قراءة الفاتحة، أما العرس فما يكون إلا بموران، لأن الأعراس انخلقت لموران!

فهم كلام زيد بأكثر من معنى، خاصة حين علق السلطان:

ـ الحق اللي تقوله يا زيد، وهذا اللي راح يصير!

أما المسدس الذي عرض بهذه المناسبة، مع الكلمة المرفقة، فقد أثار الإعجاب والتقدير، واعتبر بمثابة اعتذار علني من فنر. هكذا فهم وهكذا فسر من الجميع عدا شايع السحيمي، الذي قال لزيد في نهاية الاحتفال:

ـ الله يسترنا من التوالي يا زيد...

ظل زيد صامتاً. ضحك شايع بحزن، وخرج صوته مضطرباً:

ـ قال له: إذا ما كفّتك الخيل وربطتك، خذ معها، هالحين، الليل، وإذا لا هذا ولا ذاك، دواك هذا المسدس، رصاصة واحدة منه تكفي وتوفي، وكفى الله المؤمنين شر القتال!

وضحك بسخرية وهو يتابع:

ـ بس هات من يفهم!

وبعد قليل:

ـ ألف رحمة عليك يا أبا العلاء!

مجلي بعد أن حضر احتفال الزواج غادر في اليوم التالي إلى شمال ألمانيا، برفقة هانس والمحامي، وصحبه مترجم، للتأكد من ملاءمة القصور المعروضة للبيع، ولاختيار واحد منها. وبناء لاتفاق سابق مع هانس لم يبلغ السفارة، ولم يصطحب أحداً معه، «أنه بمجرد أن يُعرف وجود علاقة للسفارة يتضاعف الثمن مرات، وقد لا يبيعون»!

الخيول التي احتملت برد أول الشتاء، وكادت تنجو، لم تستطع أن تحتمل برد شباط القاسي. كان البرد، في هذه السنة، أو هكذا افترض السحيمي، مخصصاً للقتل، ولقتل الخيول بشكل خاص، إذ رغم العناية الفائقة، بما في ذلك استعمال الأغطية المخصصة للحرس، فقد فرض السحيمي على عناصر نوبة الليل، قبل أن يتبادلوا السلاح وكلمة السر، أن يدثروا الخيول بالأغطية التي كانوا يتدثرون بها! ولجأ في فترة لاحقة إلى

إبقاء المدافئ مشتعلة، «لأن اللي يخاف من الموت يرضى بالحمى». ومع ذلك فإن الخيل بدأت تتساقط. ولم يأت أول الأيام المعتدلة، وليس الدافئة، إلا وكان قد سقط منها ثلاثة رؤوس.

أخفي الأمر، في البداية، عن السلطان، لكن مسألة إخراج الخيول النافقة، في هذا الجو، ومن هذا المكان، بالإضافة إلى ما كان يسببه من الإرهاق والهموم، غالباً ما تترافق مع حركة غير عادية، وأصوات لا يمكن التحكم بها، مما اضطر السحيمي، بعد أن مات الحصان الثالث، إلى مقابلة السلطان:

ـ الخيل يا طويل العمر، طلبت أهلها، وإذا قدرنا عليها طول المدة الماضية، وحمينا اللي قدرنا نحميه، تراها مصبحة مسيّة، وأولها غصن البان.

والسلطان الذي عرف بما حصل، أو ببعضه على الأقل، خاف، علق بصوت مرتجف:

ـ لو كان بيدي، يا أبو عاهد، بروحي أفديها، بس مثل ما تشوف عينك: عايشين بالأمل، اليوم وباكر، فاصبر شوي، عسى أن الله يفرجها.

ـ أنا سلمت أمري للواحد القهار، يا طويل العمر، بس أمر هذي الأرواح المسكينة بيدك، فاعتقها أو أقتلها، لأن روحي شاغت وما أقدر أحمل، وكل يوم أموت ألف موتة.

ـ وشنهوا اللي نقدر نسويه؟

ـ نرجعها لموران.

ـ يلزم يطرّشون لنا طيارة من هناك، لأن السفير يقول طيارات الألمان ما تشيلها..

وبعد قليل وبحزن:

ـ إذا فاتت المربعانية، يا أبو عاهد، نخلص، ويكون الله كاتب لها ولنا عمر جديد، فخلنا نتحمل ونصبر، وكلها كم يوم.

ـ لكن مربعانيتهم، يا طويل العمر، حسابها غير عن ديرتنا، والخويا اللي قبلنا يقولون: البرد بعده بأوله، وراح يجي برد أزرق وريح تقطع المسمار، فخاف ننغدر ونخسر الأول والتالي.

ـ وكل الله، وخلنا نشوف!

جرى هذا الحديث قبل وصول العروس ببضعة أيام، وكان السلطان مشغولاً بهذا الأمر أكثر من أي أمر آخر! أما بعد ان وصلت، ولم تكد تنقضي فترة قصيرة، حتى بدا السلطان لكل من يعرفه أو رآه، إنساناً آخر: عصبياً، نزقاً، سريع الغضب لأية كلمة، ولا يتردد في أن يشتم أو حتى أن يضرب.

رجال حرسه الخاص، وبعض مرافقيه، الذين حضروا عدداً من زيجاته السابقة، لاحظوا، ومنذ الأيام الأولى للزواج، أنه لا يبدو مرحاً أو منتعشاً، ليس لأنه لم يوزع عليهم العطايا، كما كان يفعل من قبل، ولا لأنه لم يتبسط معهم أو يمازحهم، وإنما لأنه تجاوز كل حد، وأصبح يخرج عن طوره لأبسط الأسباب وأقلها أهمية.

قال تركي الصهيب الذي يقف وراء السلطان مثل ظله «الثلاثاء خنثى، لا ذكر لا أنثى، وظني، لأنه تزوج بهذا اليوم، ارتكس وانتكس، والله يستر».

أما صويلح الجريان، كاتب السلطان، فقد تلقى نظرة حارقة وبعض الشتائم، في اليوم الثالث للزواج، لأنه اقترح توجيه دعوة للجالية العربية في ألمانيا بهذه المناسبة. ولم يفهم أبداً لماذا غضب السلطان أو سبب رد فعله الحاد.

ترافق ذلك مع تراجع واضح في الحالة الصحية لجلالته، إذ قلّ أكله، وبدأ يشكو من آلام المعدة والخصيتين، ورغم أنه احتمل الآلام، فقد رفض بإصرار أن يزوره الطبيب، كان يرد بحدة حتى يُقترح عليه دعوة الطبيب:

ـ البني آدم طبيب روحه، ويعرف سالفته أكثر من أي واحد آخر.

وبدل أن يستجيب لرأي طباخه الخاص، فيما يجب أن يأكل أو يمتنع عنه، بدأت يستهلك في القصر كميات كبيرة من التوابل والمكسرات والعسل، إضافة إلى أنواع عديدة من الحشائش، تمّت التوصية عليها من موران، وأرسلت بالطائرة. كما أصبح السلطان يشرف بنفسه على الطعام الذي يجب أن يعدّ له، ولا يتردد في أن يضيف إليه، في اللحظة الأخيرة، مقادير من أدوية كان يحتفظ بها!

زيد الهريدي، رغم مسافة البعد التي فُرضت عليه منذ أن وصل مجلي، والتي فرضها على نفسه أيضاً، نتيجة الكلمات التي سمعها، والاتهامات التي وصلت إليه، كان أول الناس يكتشف أن عطباً كبيراً، أقرب إلى الخطر، ألمّ بالسلطان. ظنه، خلال الأيام الأولى، بسبب الخدعة الجديدة، مثل الكثير من الوعود التي أعطيت وتم التراجع عنها، لكن حين تأكد أن العلاقة مع موران، والعلاقة مع السفارة، لم تتعرضا إلى التغيير، فقد أصبح على يقين أن الأمر لا يتجاوز قصر بادن بادن. قال لنفسه بسخرية: «الملدوغ من الحبل يخاف، والبني آدم إذا سمع الصوت يناظر بعيد، وما يريد يشوف القريب منه؛ وياما مصايب طلعت من حدر الرجلين، أو كانت من صنع الإيدين». وبعد تحريات جادة، استمرّت عدة أيام، توصل زيد إلى معرفة السبب: جاويد.

فهذا الفتى الأشقر، الأحول، ابن الثامنة، والذي يشبه القرادة، وجاء في موكب أخته، عروس السلطان، ولّد هذا الجو المشحون، أو بسببه خُلق هذا الجو.

إن زيداً على يقين. فالسلطان الذي كان يتطير إلى أقصى حد من العوران، ومن المصابين بالحول، وكان يرفض استقبالهم، ويشيح بعينيه إذا التقى بهم، وجد نفسه فجأة أمام هذا الصغير، الذي رفض الجميع وتعلق بالسلطان! كانت علاقته بياسمين علاقة قوية، وكانت هي تحبه وتعطف عليه، وربما وُجد من قال إنه يمكن معالجته في ألمانيا، فجاء، ولذلك تشاءم السلطان، وأصبح عصبياً هكذا.

الذين كانوا ينقلون المواد التموينية إلى القصر لهم رأي آخر: «البلاد الباردة» ينراد لها أكل حار، والشمس إذا غابت لازم يتعوض عنها بقرفة وزنجبيل وعسل، إذا ما انوجد حليب النوق، والله العليم إن هذه الفريخة ما تكفي، لهذا السبب ضاق صدره!».

أم العروس كادت في ليلتين، تفصل بين الواحدة والأخرى ثلاثة أيام، أن تتعرض إلى مشاكل بما فيها إطلاق النار، إذ بعد أن نقّبت في القصر، كما يفعل الشحاذ، عثرت على ما تعتبره السحر الذي يربط السلطان، عثرت على حزمة من شعر ملفوفة بورقة مشمّعة، معها سفوف، مربوطة بخرقة صفراء، موضوعة بزجاجة، والزجاجة محزومة بخيط، والخيط متدلي من أعلى السرير ومارّ تحت الجانب الأيسر حيث ينام السلطان!

«إنه السحر ولا شيء غيره. تركته عدلة، أو واحدة غيرها، حتى تربط السلطان».

أخذته ميّسر، أم العروس، ليلة الجمعة، بعد أن نام الجميع، إلى الحديقة الخلفية للقصر، وكانت قد حفرت له في النهار حفرة، وما كادت تضعه فيها، وتغطيه، حتى وجدت حارساً فوق رأسها. خافت، صرخت، خرج صوتها كمواء القطة. حين عرفها الحارس، سألها، وكان صوته يرتجف:

ـ الله العليم: وحشة الديار، واختلاط الليل بالنهار، وكأنك تنشدين موران، يا عمتي، ما هو كذا؟

ـ موران بعيدة يا ابن الحلال، والأقرب منها ماحنا واصلينه!

لم تنم أم جاويد براحة تلك الليلة، ولأن اليوم التالي هو السبت، لم تستطع أن تفعل شيئاً، ولذلك مر السبت بطيئاً ثقيلاً، وجاء الأحد، كان أكثر بطأ وأثقل، وقد لفت اضطراب ميسر، أم جاويد، نظر الكثيرين، خاصة وأنها لم تقرب الطعام؛ أما بعد أن تقدم الليل، وتأكدت من نوم الجميع، فقد اتجهت إلى الحديقة، إلى نفس المكان الذي دفنت فيه السحر، لكي تستخرجه، من أجل مكان أفضل ووقت أنسب. ما كادت

تبدأ، حتى وقف الحارس نفسه وقال:

ـ فلا شدة إلا ويرجى لها فرج   ولا كربة إلا ولها ألف حلال

بقي لي عوض ما فات تذكار ما مضى   وحزني عليهم وين ما رحت يبرى لي

بدت أم جاويد أقل خوفاً هذه الليلة، ردت، وخرج صوتها متحدياً:

ـ خلينا يا ابن الحلال نصلي ركعة أو ثنتين تحت السماء عسى أن الله يستجيب ونخلص.

ـ صلاة مقبولة يا عمتي!

وبدل أن يستجيب الله ازدادت الأمور سوءاً:

الفترة التي حُدّدت انقضت دون أن تنفّذ الوعود. زيارات الموفدين من موران تراخت ثم انقطعت. الاتصالات التلفونية أخذت تتأخر ثم اضطربت، لتصبح في الأخير هما ثقيلاً. ومثلما فعل السفير في مرات سابقة فعل هذه المرة أيضاً: «سافر إلى موران للتشاور» كما قيل لزيد الذي اتصل بالسفارة من أجل طلب بعض المواد التموينية.

وصحة السلطان تتراجع أيضاً، أما رفضه لزيارة الطبيب فقد أصبح أقل من السابق، وحين وافق أخيراً، كان مصمماً أن لا يستجيب لما قد يطلب منه، أما بعد وضع الطبيب قائمة طويلة للممنوعات والأدوية، فقد قال السلطان لزيد:

ـ ثلاثة يعرفون داي زين: أنا وموران وأبو غزوان. . .

زفر. خرج الهواء من صدره ثقيلاً حارقاً، واضطرب صوته:

ـ وأنا، يا زيد، مربّط، مثل ما تشوف عينك؛ وموران كلها لئامة وقلة دين، ما تعرف إلا اللي فوقها وبه حيل؛ أما أبو غزوان فيعرف الداء والدواء، لكنه بعيد، وظلمناه. وتعال، هالحين، وافق على اللي ما يعرفون شي، وسفّ أدويتهم، ونام على الجنب اللي يريدون!

ضحك بسخرية وأضاف:

ـ لكن ظني ما يفرحون!

ويزداد القصر توتراً وخوفاً. يظهر السلطان يوماً، ويختفي أياماً. ويزور القصر بين فترة وأخرى موفد من السفارة، حاملاً الجرائد والرسائل وبعض الكلمات التي ينشغل بها الجميع، ويحارون في تفسيرها.

مجلي لم يعد يظهر في القصر إلا لفترات قصيرة، يغيب بعدها في أسفار لا يعرف أحد إلى أين يصل أو ماذا يفعل، فإذا عاد من جديد اختلى بأبيه وقتاً طويلاً، يعقبه اتصالات مع موران، وتوقعات وانتظار، لا يقطعهما إلا سفر جديد.

هانس الذي تردد في اختيار القصر الجديد للسلطان، توصل في أول الربيع إلى القصر المناسب، لكن العقبة التي شغلته، وأخرت تسجيل ملكية القصر، الإجراءات، كما قال، خاصة وإن الملكية لأجانب. ولئلا تضيع الفرصة سجّل القصر، مؤقتاً، باسمه، على أن تُنقل الملكية لاسم السلطان في وقت لاحق!

السحيمي الذي قلق لمرض الخيول، وتحسب، ثم أخذ يغرق في الحزن والجفاف مع كل رأس يميل ويسقط، ما لبث أن وقع مريضاً حين التوت رقبة «مرزوق» وانتهى. كان يحب مرزوقاً ويفضله على باقي الخيل، وكان يعتبره أفضل خيول السلطان، قد لا يكون أسرعها أو أغلاها ثمناً لكنه أكثرها حناناً ووفاء. صحيح أنه لا يعترف بميزة الآخرين على مرزوق، من حيث النشاط والسرعة، ففارق العمر بينه وبينها كبير، وحين كان لا يجاريه أحد، لم تكن هذه موجودة، أو حتى لو وجدت لما استطاعت معه شيئاً، «لكنه العمر» هكذا يقول، وهو لا يخفي اعتزازه.

قال زيد: إذا عاش أبو عاهد بعد مرزوق تكون انكتبت له حياة جديدة.

مرت أيام، تعافى شايع وبدأ الربيع. ومع بداية الربيع وصلت، فجأة، عدلة.

كان وصولها مفاجئاً غير متوقع، وخلال فترة قصيرة دب النشاط في القصر كله، وشوهد السلطان في «المنظرة» عند الظهر، بعد أن غاب، لم

يشاهده أحد، أسبوعين كاملين، حتى إنه سرت إشاعات قوية تؤكد سفره إلى جهة مجهولة، وقيل إنه سافر إلى بون لكي يلتقي بأخيه فنر هناك. وفي عصر اليوم نفسه شوهد في الشرفة، وكانت عدلة إلى جانبه، تحدثه حول أمور بدت مهمة من خلال هزات رأسه التي كانت تتوالى بانتظام. ولم تكد تمر نصف ساعة حتى دخلت عدلة، وحين عادت كانت تحمل عباءة سميكة القتها على كتفيه. وأكد من راقبهما بعناية أنهما ظلا كذلك حتى بعد أن هبط الظلام.

زيد الذي كان خائفاً وحائراً، باعتباره الوحيد الذي يلتقي بالسلطان، وكان يرى ضعفه وتراجع قواه، لكن لا يقوى على إقناعه بتناول الدواء أو بإجراء فحوص طبية جديدة، وبالتالي لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل، اعتبر مجيء عدلة حلاً مناسباً، أو حلاً بعث به الله.

قال لشايع السحيمي الذي هرم خلال شهور:

ـ أبشر يا أبو عاهد. . .

وشايع الذي رفع إليه عينين متعبتين، ولا تحملان فضولاً أو تساؤلاً، قال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ راح وقت البشاير يا زيد. . .

وانخفض صوته، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ اللهم حسن الختام.

قال زيد بحماس، لعله ينعش السحيمي وينعش نفسه.

ـ جماعة السفارة قالوا وأم مشعل تقول. .

ـ شنهو اللي يقولونه؟

ـ صارت الرجعة قريبة، وكل شيء انتهى!

ـ تنينا إيام وسنين، يا زيد، والشي الزين راح وانقضى، وهالحين ما حنا بخسرانين شي إذا انتظرنا يوم وثنين، لكن. . . .

ـ هذي النوبة غير عن كل اللي قبلها يا أبو عاهد!

ـ ما عاد يلزمني من هذي الدنيا، يا زيد، إلا ما يلزم العجين من الملح، بس حتى أوصّل هالخيل لأهلها وديرتها، وبعدها، ما بنفسي شي.

ـ الله كريم، يا أبو عاهد.

ويوماً بعد يوم، ومثلما تنفجر الضحكة المفاجئة، أو الصرخة في الظلمة، بدأت تنفجر الطبيعة، وتفاجئ نفسها وتذهل الكثيرين.

السلطان، بعد الغياب الطويل، أخذ يطيل جلوسه في الشرفة الأمامية صباحاً، وفي الشرفة الغربية بعد الظهر، وقد رآه أكثر من واحد يضحك. أما حين نزل إلى الحديقة، فقد أثار فرح الجميع. صحيح أنه بدا متعباً، أقرب إلى الإعياء، وكان يستند إلى عصاه وإلى كتف زيد، لكنه وقف مع الرجال وتحدث. سألهم عن أحوالهم، وقال، بمداعبة، أن الأيام الدافئة أقبلت، «لكن الله العليم انّا نرحل قبل الصيف»، وتوجه بعد ذلك إلى الإسطبل.

داعب غصن البان طويلاً، ويبدو أنه استعد لذلك، إذ وضع في جيبه قطعاً من السكر، وكان بين فترة وأخرى يعطيه واحدة منها، ولم ينس عقاباً، وغالب حصاني فنر، وكذلك الوضحة، فرس مهيد. وفي لحظة من اللحظات همس بكلمات، لكنها لم تسمع، وقيل إنه كاد يمتطي حصانه، لكنه عدل، مرجئاً الأمر إلى وقت آخر.

هذا اليوم كان مشهوداً في قصر بادن بادن. فبعد الحزن والعتمة والبرودة والخوف، يشيع جو جديد. حتى السحيمي الذي جاء من يقول له إن السلطان يتمشى في حديقة القصر، ثم أبلغ وهو يتوجه إلى الإسطبل، لم يجد في نفسه الرغبة أو الهمة لكي يلحق به أو ليطلب منه شيئاً خاصاً بالخيل، لكنه لم يتردد في أن يستوضح الذين رافقوا السلطان عن كل صغيرة وكبيرة.

اليوم التالي غامت السماء وأمطرت، فالتزم الكثيرون الغرف، لكن راقبوا الغيوم والشرفات، وبدا لكل واحد منهم أنه أكثر قوة وأكثر تفاؤلاً.

وفي اليوم الثالث، ومنذ الصباح الباكر، سُجلت حركة غير عادية في القصر، اتضح بمرور الساعات أن مرضاً مفاجئاً ألمَّ بأحد النزلاء، ولقد تأكد ذلك من وصول الطبيب في الصباح الباكر، ثم قبل العاشرة. أما عند الظهر، فقد وصل السفير نفسه ومعه سيارتان، وتبين من الحركة المحاذرة والنظرات أن الأمر أكثر جدية مما قدر الكثيرون. ومع ذلك لم يعرف من المريض، وما هو المرض. وإن بدأت تتسرب أخبار، غير واضحة، وغير مؤكدة، أن السلطان هو المريض.

عناصر النوبة الليلية لاحظوا نشاطاً وحركة، وسمعوا أصواتاً في القصر لم يتبينوها بوضوح، لكن وصول الطبيب مرة أخرى أكد أن الحالة بلغت حد الخطورة، خاصة وأن السفير واثنين من مرافقيه بقوا في القصر لم يغادروه. وقبل أن يطلع الفجر، ومن الركض المفاجئ، والمناداة، وخروج النسوة من غرفهن نحو غرفة السلطان، ومجيء اثنين من الأطباء، ثم مغادرتهما السريعة، والحركة المضطربة المهتاجة، ثم ما أعقبها من السكون الذي يشبه السقوط، دل بوضوح أن السلطان أسلم الروح.

قال تركي الصهيب، وكان يبكي:

ـ كان صاحي، ناظرنا وابتسم، وتحسنت أحواله بعدما أخذ الدوا. قلنا لأرواحنا باكر يكون أحسن من اليوم، وما أن نام وغفا، وأنا حدّ رجليه، أناظره، وعيني ما فارقته، إلا وأشوفه يختض ويرجف. تقربت منه، سألته إن كان يحتاج شي أو شي يوجعه، لكنه لما فتح عينه شفته ما هو ولا بد، يناظر، لكن عيونه شاخصة. جت عمتي عدلة، وجا كل من بالقصر. ناديناه. هزيناه. جا الطبيب، فحصه، ضربه إبرة، لكن ما مرت ساعة إلا وخلص.

هكذا قضى السلطان.

في اليوم التالي بدأت الاتصالات لنقل الجثمان.

موظفو السفارة يتراكضون. نزلاء القصر، وأفراد الحاشية والحرس، في حالة من الحزن والذهول. زيد يذرع الحديقة من أولها إلى نهايتها وكأنه

يقيسها. شايع السحيمي، لما سمع بالخبر طب على وجهه وغرق في النوم، حتى إن الكثيرين خافوا عليه.

لم تهدأ الحركة ولم تتوقف.

عند الظهر رأى عدد من الحرس غصن البان يغادر الإسطبل، كان يمشي هادئاً نحو القصر، توقف عند الأدراج، تطلع إلى فوق. دار حول القصر، كان يمشي بهدوء ورأسه يتشمّم الهواء. دار مرة ثم أخرى، تطلع إلى فوق، ثم عاد، بهدوء، أيضاً، إلى الإسطبل. وقبل الغروب مات غصن البان!

في اليوم التالي وصلت طائرة من موران لنقل جثمان السلطان. كانت نفس الطائرة التي حملته إلى هنا، وكان قائد الطائرة هو الذي أوصل السلطان إلى بادن بادن.

نقل الجثمان بسرعة، وسافر على نفس الطائرة معظم نزلاء القصر وأفراد الحرس والحاشية. أما شايع السحيمي فقد تأخر. قال له زيد، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ ومن وصلتنا، يا أبو عاهد، من كل بد نذز لك طيارة تحملك وتحمل الخيل والغراض وكل ما بقي ومن بقي.

قال شايع السحيمي:

ـ احرص يا زيد، ولا تنسَ، وما هو من أجلي، من أجل الخيل، لأن ما لها أحد غيرنا، وخاف تموت مثل اللي مات قبلها.

ـ لا تخف يا أبو عاهد ووكل الله.

ـ ما أنا بخايف يا زيد لكن المصيبة أن البعيد ينسى، وهذي أرواحها برقبتنا، وباكر نتحاسب عليها!

وأغلقت بوابة القصر، واتجه شايع السحيمي إلى الإسطبل، وما إن وصل حتى بدأ يحدّث الخيل، ويبكي.

صيف ١٩٨٨



مُدُن المِلح
المُنْبَــتّ

* إنها عمل طموح يغمره إيقاع حزين وعمق اجتماعي فكري حاذق في تعبيره.

ميشيل ابشيرسن

* إن المثابرة على قراءة عمل من هذا النوع، هي مغامرة ليست سهلة، إلاّ أنّي تجشمت عناء هذه الرحلة، ويسرني أن أقول: إنَّ مكافأتي كانت قيمة، ألا وهي نظرة غنية جديرة بالثقة حول تجربة مجتمع وهو يخوض غمار تحوّل وتبدّل في نمط حياته.

شكران كمال

* ما يريد مؤلف مدن الملح أن يقوله هو أنه لا توجد على الإطلاق إمكانية للحلول الوسط.

ديفيد جيلمور ـ نيويورك ريفيو

* مدن الملح بمحتواها واتساع نطاقها وأسلوبها ومنظورها السردي وتكنيكها تنحو منحى التقاليد الرفيعة في الأدب القصصي.

محمد صدّيق

* مدن الملح رواية ذكية جاءت في الوقت المناسب. المسائل التي تطرحها ربما كانت قائمة ومطروحة، ولكنها الآن، في الثمانينات مطروحة أكثر، وهي أن العرب، كأُناس عاديين، وقعوا تحت الظلم من جانب كلٍّ من الغرباء ومن جانب قادتهم وحكامهم.

ديفيد لامب ـ التايمز


ISBN 978-9933-407-05-6



المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ـ المركز الثقافي العربي